



التاريخ السياسي والمضاري للدولة العباسية

دار الكتاب الحديث

البروفيسور
محمد مسن العيدروس

التاريخ السياسي والحضاري للدولة العباسية

البروفيسور / محمد حسن العيدروس

دار الكتاب الحديث

| | |
|--|--|
| العبدروس ، محمد حسن . | |
| التاريخ السياسي والحضاري للدولة العباسية/ محمد حسن العبدروس . - ط1 . - القاهرة : دار الكتاب الحديث ، 2010 | |
| 322 ص ؛ 24 سم | |
| تدملك : 0 - 978-977-350-300 | |
| 1- الدولة العباسية . 2- العالم العربي - تاريخ - العصر العباسي . | |
| أ - العنوان . | |
| 953.04 | |

رقم الإيداع / 2010/8775

حقوق الطبع محفوظة

1432 هـ / 2011 م

دار الكتاب الحديث

| | |
|----------|--|
| القاهرة | 94 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (00 202) فاكس رقم : 22752992 (00 202) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com |
| الكويت | شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 - 13088 الصفاة هاتف رقم 2460634 (00 965) فاكس رقم : 2460628 (00 965) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw |
| الجزائر | B. P. No 061 - Draria Wilaya d'Alger- Lot C no 34 - Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr |
| الامارات | دار العبدروس للكتاب الحديث ص ب . 2855 ابو ظبي هاتف 00971505932613 فاكس 0097126392062 email: alaidaroosgp@hotmail.com |

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ

إهداء

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾
[الأنبياء] صدق الله العظيم.

إلى والدي العزيز طيب الله ثراه/ حسن أحمد
العبدروس، وإلى كل من يعز في نفسه بعث دولة
الخلافة الإسلامية وإحياء أمجاد الإسلام والمسلمين.
وإلى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى
عن المنكر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حمداً كبيراً وثناءً كثيراً والصلاة والسلام على سيدنا وحبينا
وشفيئنا رسول الله محمد ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الأخيار إلى يوم
الدين .

حكمت الأسرة العباسية الهاشمية أكثر من خمسة قرون، حافلة
بالأحداث الجسام وكذلك بالتقدم الحضارى الإسلامى فى كافة المجالات
العلمية الفكرية وقد تميزت الفترة الأولى من الحكام العظام، وإن كان الطابع
العام المهيمن فى النظام السياسى والمؤثر يغلب عليه العنصر الفارسى ثم
التركى أكثر من العنصر العربى، مما يعنى أنها دولة كانت إسلامية شاملة ولم
تقتصر على قومية معينة برغم استفراد البويهيين الشيعة الفرس من خرسان أو
السنة الاتراك ضد العرب، ولكن مجملها كونت حركة التاريخ الإسلامى بكل
إيجابياتها وسلبياتها. وبقيام الأسرة العباسية تغيرت الدولة فأصبحت ذات
طابع إسلامى عالمى.

تعتبر الدولة العباسية مثلها مثل الدولة الأموية، والعثمانية، والفاطمية
اشتركت فى عدة صفات وإن اختلفت فى بعضها الآخر. مثل: عدم اتباعها
نهج الخلفاء الراشدين الدولة الإسلامية الثانية فى تطبيق الشريعة الإسلامية
واختيار الأكفاء، وإنما كانت دولة ملكية وراثية للنظام السياسى مثل البيزنطى
والرومانى، والفارسى المجوسى وإن كان معظم حكام الأسرة العباسية ملتزمين
شخصيا بالدين الإسلامى الحنيف، إلا أن الطابع العام السياسى لم يكن

كذلك بالشرعية الإسلامية، وطابع الخلفاء الراشدين، إضافة إلى اضطهاد المعارضة العامة ذات الطبقة الشعبية والفكرية وخاصة الأسرة العلوية مثلما كان في عهد الدولة الأموية التي اضطهدت آل البيت أو آل محمد، برغم أن العباسيين كانوا الأقرب بصفاتهم أبناء عمومة بنى هاشم وليس كبنى أمية، ولكن نفس التوجه الأموي ضد العلويين.

استمرت الدولة العباسية حتى سقوطها على أيدي المغول عام 1258م، ثم انتقال الخلافة العباسية إلى مصر عندما أحياها الظاهر بيبرس المملوك عام 1260م لتستمر حتى دخول العثمانيين لمصر عام 1517م، وقد عولجت هذه الدراسة بأبعادها الشاملة المتكاملة بطريقة بسيطة. وبرغم تقسيم بعض المؤرخين التاريخ العباسي إلى عصرين إلا أن هذين العصرين يمثلان مرحلة تاريخية متكاملة بكل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية أكثر منها سياسيا، وسوف تشمل هذه الدراسة: العباسيون والدعوة للرضا من آل محمد ﷺ حكم الأسرة العباسية والحياة الإدارية، والمعارضة العلوية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، والمعارضة والثورات والعلاقات الخارجية.

أتمنى أن أكون قد وفقت إلى إعطاء صورة عن الحكم العباسي للدولة الإسلامية. ونطلب من الله في آخر دعوانا أن يوفقنا إلى قول الحق وعمل الحق والدفاع عن الحق - الحق الإسلامي، والحمد لله تعالى والصلاة على خاتم النبيين، وإمام المتقين رسول الله محمد ﷺ وعطرته من آل البيت رضوان الله عليهم.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

د. محمد حسن العيدروس

رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات

الفصل
الأول

العباسيون والدعوة للرضا

من آل محمد ﷺ

الدعوة العباسية:

قامت الدولة العباسية على أثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالى ثلث قرن تقريباً، فضمت إلى صفوفها كل العناصر المعادية للأمويين وكلمة دعوة هى المقصودة بها حديثاً كلمة الدعاية ويقابلها فى المصطلح الأوروبى الحديث كلمة Propaganda، فالشرق الإسلامى قد عرف الدعاية من قديم وإن كان الغرب المسيحى لم يعرفها إلا فى العصور الحديثة المتأخرة. والغرض من الدعاية هو استعمال طرق مختلفة شريفة أو ملتوية للإعلان عن مبدأ أو فكرة بقصد تهيئة الأفكار لقبول هذا المبدأ أو هذه الفكرة. وأول دعاية قامت فى الدولة الإسلامية هى دعوة العباسيين التى نظمت تنظيمًا دقيقًا باسم الرضى من آل محمد ﷺ، وتمكنت فى النهاية من أن تؤدى الغرض المقصود منها، وهو إسقاط الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية. ثم قامت بعد ذلك دعوة سرية أخرى باسم المهدي المنتظر تخضت عنها قيام الدولة الفاطمية فى المغرب. هذا بخصوص كلمة دعوة. ولما كان التاريخ الإسلامى قد دون معظمه فى عصر الدولة العباسية، فقد حرص المؤرخون بطبيعة الحال على إظهار مؤسس هذه الأسرة بمظهر المؤيد للإسلام منذ ظهوره، وأنه لم يقف من الرسول موقفاً معادياً كما فعل بقية أعمامه أمثال أبى لهب وأبى جهل، بل على العكس عمل على حمايته وأخذ فى هذا السبيل عهداً على أهل المدينة بحمايته عند بيعة العقبة، كما ظل يكاتب النبى سرّاً بعد هجرته إلى المدينة.

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه، كان من زعماء قريش وساداتها، تولى أمر سقاية الحاج فى مكة، لم يكن رضى الله عنه ذا سابقة فى الإسلام، وإنما أسلم عام الفتح، ولهذا جاء إسلامه متأخراً. وبالرغم من قرابة العباس من رسول الله ﷺ إلا أن غالبية المصادر التاريخية

لاتذكر له أى طموح سياسى لنيل الخلافة . فلم يعرف عنه أنه ادعى الخلافة يوماً فى حياته بل أيد ابن أخيه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى مطالبته بالخلافة ونيله لها . والواقع أن العباس لم يكن له نفوذاً كبيراً فى الإسلام بدليل أنه بعد وفاة الرسول لا نسمع له ذكراً هاماً . تشير بعض الروايات فقط إلى اهتمامه بتولية ابن أخيه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام ، إذ قال له «أمدد يدك لنبايعك» ، وهذا يدل على أنه لم يكن له أى طموح فى الخلافة .

يقول المسعودى عن ذلك : أجاز العباس بن عبد المطلب بيعة الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام عندما قال له : «يا ابن أخى هلم إلى أبايك فلا يختلف عليك اثنان» . ولا شك بأن تلك البيعة التى أشار إليها المسعودى إنما تمت بعد وفاة رسول الله ﷺ عندما اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يتولى أمور المسلمين . ويؤكد هذا ما أشار إليه المقرئى إذ يقول : «خرج الإمام على بن أبى طالب عليه السلام من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى توفى فيه ، فقال الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب ، فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإنى والله لأرى رسول الله ﷺ يتوفى من وجعه هذا ، وإنى لأعرف وجوه بنى عبدالمطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فى هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا ، فقال الإمام على عليه السلام : «والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فمنعنا لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسأله من رسول الله ﷺ ، وأضاف المقرئى قائلاً : بأن العباس قال للإمام على عليه السلام : ابسط يدك فلنبايعك ، فقبض على يده ، وتوفى العباس فى عام 32 هـ الموافق 652م فى خلافة عثمان بن عفان وكان سنه ثمان وثمانين عام . وقد أعقب أولاداً كثيرين

نذكر منهم ابنه الثانى عبدالله بن العباس الذى من نسله جاء البيت العباس .
أما بقية أبناء العباس فلم يكن لهم عقب باق . عبدالله بن العباس شخصية
علمية فريدة ، معروفة لدى الأدباء والعلماء واللغويين إذ كان يؤخذ عنه رواية
الحديث وتفسير القرآن . ولم يكن عبدالله يطمع فى الخلافة لإيمانه القوى
بحق الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فيها . ولهذا انضم إليه وأيده ،
وولاه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام البصرة وأعمالها . وبعد مقتل
الإمام على عليه السلام ، ترك البصرة ورحل إلى الحجاز حيث أقام بالطائف
مسالماً للأمويين إلى أن توفى فى عهد عبدالملك بن مروان عام 68هـ الموافق
687م .

كان من أبرز أبناء الأسرة العباسية فى عهد الخلفاء الراشدين وفى مطلع
العصر الأموى عبدالله بن عباس رضى الله عنه ، ابتعد عن السياسة بادئ
الأمر ، ثم أصبح عضواً بارزاً فى الحجاز آنذاك ، بل وشارك فى فتوحات
المسلمين فى عهد الدولة الأموية ، يؤكد هذا مشاركته لجيش يزيد بن معاوية
الذى خرج لفتح القسطنطينية فى عهد معاوية ولهذا لم يكن عبدالله بن عباس
هو الآخر طموحاً لنيل الخلافة وكانت علاقته بالعلويين طيبة سواء فى عهد
الإمام على بن أبى طالب عليه السلام - عندما أشار عليه بعدم التسرع فى
عزل ولادة عثمان ، ولما رأى من الإمام على عليه السلام تصميمًا على ذلك
أشار عليه بابقاء معاوية ريثما تهدأ الأمور وتنجلي الغمة . أما فى عهد أبنائه
كثيراً ما نصح زعماءهم باتخاذ الاحتياطات اللازمة لضمان حقهم فى الخلافة
ولعل أبرز تلك النصائح هى تقديمه النصيح للإمام الحسين بن على عليهما
السلام عندما أزمع السفر إلى الكوفة ، على أثر الرسائل التى بعث بها أهل
الكوفة ، إليه مطالبين بقدمه إليهم ومبايعته بالخلافة . تلك النصائح التى
قدمها عبدالله بن عباس للإمام الحسين بن على عليهما السلام الذى يعتبر فى

نفس الوقت رعيم العباسيين تعطينا صورة واضحة على أن العباسيين لم يكونوا يطمحون إلى الخلافة . نعم لقد كان العباسيون يعترفون بحق العلويين فى الخلافة دون أن يفكروا بها أو بالمشاركة فيها مع بنى عمومستهم فى تلك الأحداث التى وقعت منذ قيام الدولة الأموية حتى نهاية القرن الأول الهجرى . فلو كان عبدالله بن عباس من المتطلعين إلى الخلافة لما تردد فى هذا خاصة بعد مقتل الإمام على بن أبى طالب عليه السلام ، لأنه فى نظر الكثير أقرب إلى هذا من ابن الزبير على الأقل . ولهذا لم يشارك بنو العباس فى الأحداث التى وقعت فى الدولة الإسلامية منذ عهد عثمان ، ولم يتطلع أحد منهم إلى تولي منصب الخلافة آنذاك فى حين انحصر أمر المطالبة بالخلافة على الإمام على عليه السلام ومن بعده بنيه وأحفاده⁽¹⁾ .

عبدالله بن العباس ، كان غير طامح للخلافة ، هو الآخر ومثله آمن بحق الإمام على عليه السلام فى الخلافة حتى أنه لما أنجب ولدًا سماه عليًا باسم الإمام على عليه السلام أحب الناس إليه . وبعد مقتل الإمام على عليه السلام وتسلم الإمام الحسن عليه السلام ، اعتزل عبدالله الفتنة وأقام بمكة ، واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه ، فعرف الإمام بالبحر لعلمه . ورفض عبدالله بن العباس مبايعة ابن الزبير ، وخرج من مكة إلى الطائف مع ابن الحنفية - محمد بن الإمام على بن أبى طالب عليهما السلام - حيث توفى فيها عام 68هـ الموافق 687م .

ولقد أنجب عبدالله بن العباس ولدًا أسماه عليا لأنه ولد فى نفس الليلة التى قتل فيها الإمام على عليه السلام عام 40هـ الموافق 660م . على بن عبدالله بن العباس شخصية غامضة غير واضحة كوضوح شخصية أبيه . كذلك لم يسع على بن عبدالله بن العباس إلى الخلافة⁽²⁾ .

1 - عبد العزيز محمد الميلم - العلاقات بين العلويين والعباسيين ص 96 .

2 - د . إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 18 .

وتوفى على فى الحميمة عام 118هـ الموافق 736م وأنجب ولدًا اسمه محمد. يعتبر محمد بن على بن عبدالله بن العباس الشخصية القوية. والعباسى الحقيقى الذى أظهر طموحًا نحو الخلافة وسعى سعيًا سرّيًا منظمًا لنيلها⁽¹⁾.

يقول البعض فى هذا: «لم يكن للعباسيين من زعامات فى الحركات التى ظهرت منذ عهد اجتماع السقيفة، ولا بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وإنما كان زعيمها الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، والإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام من بعده.

ولهذا فإن الطموح السياسى للعباسيين لم يظهر إلا فى مطلع القرن الثانى الهجرى، وذلك بظهور على بن عبدالله بن عباس. وكان على هو أصغر أولاد عبدالله بن عباس، وفيه الجمهرة والبيت والخلافة ولا عقب لعبدالله من غير على. وكان على هذا هو أصغر أولاد أبيه، كان سيدًا شريفًا بليغًا، كان من أجمل رجالات قريش، مفرطًا فى الطول، إذ طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب. وقد كان على نشطًا من الناحية السياسية، ولهذا نظرت إليه السلطة الأموية بعين الشك والريبة والحذر، فاستدعاه الأمويون، وأقطعوه قرية «بالبلقاء» من أرض الشام يقال لها: «الحميمة» فى عهد عبدالملك بن مروان، ولعل هذا عائد بالطبع إلى غرض سياسى الهدف منه هو وضع العباسيين تحت رقابة الأمويين قدر الإمكان يقول عن هذا الموضوع صاحب كتاب «أخبار الدولة العباسية» من أن عبدالملك بن مروان قد خير على بن عبدالله بن عباس فى المكان الذى يريد الإقامة فيه لوضعه تحت أمرى ومسمع عبدالملك إذ يقول: شخص على بن عبدالله إلى الشام، وقدم على عبدالملك، فأكرمه وأجلسه معه على سريريه، وقوى بمكانة على ابن

1 - أحمد مختار العبادى - الدولة العباسية ص 19.

الزبير، وقال لوجوه أهل الشام: هذا ابن عم محمد ﷺ قد أتاني عارفاً أني أولى بالأمر من ابن الزبير، فزاد ذلك في بصائرهم، وقال له عبد الملك: ارتد منزلاً تضم فيه أهلك وخاصتك، فبلغنا أن علياً قال له: أحب المنازل إلى أخلاها، وأبعدها من العوام، فإني متى أقمت معك بدمشق لم آمن أن يلقاك بعض أهل الشام فيقول: قال علي: ولقي علي، وعرضني لتهمتك، فقال له عبد الملك، وصلتك رحم، ما أنت بمتهم، والبقاء نزل صدق، تضم فيه أهلك وحشمك، وتقيم عندي ما أحببت، وتأتيني إذا شئت ولست تبعد عني، ولا ينسأك ذكرى، ولا يبعد عنك خبر من بالحجاز من أهل بيتك. فنزل بالشرارة من البلقاء، ونزل من «الشراه» «الحميمة»، ولم يزل عبد الملك له مكرماً معظماً يجلسه معه على سريريه إذا دخل، ويحادثه ويسامره. وبعد وفاة علي بن عبد الله انتقل ولاء شيعته إلى ابنه محمد الذي أظهر طموحاً نحو الخلافة، بل حصل ذلك أيضاً أثناء حياة والده عندما سارا بالدعوة للرضا من آل محمد سيراً حثيثاً، وقد رأيا أن يمهدا للدعوة عام 100هـ الموافق 718م وفي عهد عمر بن عبدالعزيز، على أن تكون للرضا من آل محمد، وكان من نتائج ذلك هو التعاون بين عدد من العناصر الناقمة على الدولة الأموية لإسقاط الأمويين. وبعد وفاة محمد حمل لواء الدعوة من بعده ابنه إبراهيم، إلا أن الأمويين تمكنوا من القبض عليه عندما وقع خطاب في يد الحاكم الأموي مروان بن محمد، كان قد بعث به الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يتضمن سباً للحاكم مروان، حيث أخذ إبراهيم إلى مروان في «حران» وسجن هناك حتى مات في سجنه، وقد أوصى إبراهيم من بعده لأخيه أبي العباس السفاح «عبد الله بن محمد» الذي تم في عهده إعلان قيام الدولة العباسية عام 132هـ الموافق 749م، فاتخذ من الكوفة مقراً لحكمة أولاً، ثم الهاشمية فالأنبار⁽¹⁾.

1 - عبد العزيز محمد المليلم - العلاقات بين العلويين والعباسيين ص 39.

بذل هذا السفاح جهوداً جبارة من أجل تثبيت دعائم الحكم العباسي يساعده في هذا أخوه أبو جعفر وأعمامه عبدالله وسليمان وداود وصالح، إذ طارد الأمويين وقتل كثيراً منهم خاصة من وقعوا في يد عبدالله بن علي وأخيه صالح، ولعل تلك القسوة التي عامل بها السفاح الأمويين هو الذي حدا بالمؤرخين إلى تسميته بالسفاح، أو كما قال عن نفسه في خطبته التي ألقاها من على منبر المسجد الجامع في الكوفة يوم بيعته: إذ اختتم خطبته بتلك العبارة: فأنا السفاح المبيح والثائر المبير. وقد تربع العباسيون على دست الحكم بعد أن أطاحوا بالدولة الأموية، وأعلنوا دولتهم في الوقت الذي ضاعت فيه السلطة من يد بني أمية لأمر أشار إليها المسعودي يحسن ذكرها إذ يقول: «سئل بعض شيوخ بني أمية أثر زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال: إنا شغلنا ببلداتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، ووثقنا بوزرائنا، فأثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعدائنا فتظافروا مسعهم على حربنا، وطلبنا أعدائنا، فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا. لا شك بأن زوال ملك بني أمية قد جمع بين عواطف شتى، فهو شماته من قبل أعدائهم، وأسف من قبل أنصارهم، وحسرة من قبلهم هم على زوال هذا العز الضائع الذي فقدوه عندما تخاذلوا عن الاحتفاظ به، من إهمال لشؤون الدولة، وغفلة عما يجري فيها، وإسناد الأمر إلى غير أهله. نعم لقد ندموا على تصرفهم هذا ولات ساعة مندم. أما عن كيفية تفكير العباسيين في الحصول على الخلافة فالمعروف أن العلويين الذين كافحوا وناضلوا في سبيل الحصول على الخلافة كانوا هم الوحيدين الذين وقفوا في وجه الدولة الأموية طيلة وجودها، ولم نسمع بأن أحداً من العباسيين قد انضم أو ساعد العلويين ضد خصومهم الأمويين طيلة ستين

عامًا منذ أن تولى معاوية بن أبي سفيان الحكم فى عام 40هـ الموافق 660م حتى نهاية القرن الأول الهجرى . وهكذا نرى بأن دور العلويين فى مناوأتهم للأمويين، وطموحهم لنيل الخلافة يفوق كثيراً طموحات العباسيين، وأن العباسيين لم يظهر لهم اسم فى مقاومة ظلم الأمويين سواء على مستوى الزعامة، أو التأييد للعلويين اللهم إلا مع مطلع القرن الثانى الهجرى عندما تزعم محمد بن على بن عبد الله العباسى أمر الدعوة سرًا مع ما فى هذا من ملابسات حيال تنازل أبى هاشم للعباسيين عن الدعوة وأسرارها. إذا فما هى الأسباب التى دفعت بالعباسيين إلى التفكير جدّيًا فى مناهضة الأمويين، والاستماتة فيما بعد للحصول على الخلافة؟⁽¹⁾.

للإجابة على هذا التساؤل: يقول البعض من المؤرخين: بأن أبا هاشم عندما وشى به البعض أمام سليمان بن عبد الملك بأنه يطلب الخلافة لنفسه استدعاه وأكرمه، بل بالغ فى إكرامه، ولكنه فى نفس الوقت توجس منه خيفة فأمر من يدس له بالسم، وهكذا فعل، ولما خرج من عنده وأحس بدنو أجله اتجه إلى قرية بالبلقاء «الحميمة»، ولهذا فقد اضطر أبو هاشم إلى أن يسير إلى ابن عمه على أو محمد بن على - كما يقول البعض الآخر من المؤرخين بأسرار الدعوة التى دعا إليه ضد بنى أمية، وأخبره بأسرارها، وأعطاه بيانًا بأسماء الدعاة الذين كانوا يتعاونون معه. ومنذ ذلك التاريخ أى نهاية القرن الأول الهجرى عام 99هـ الموافق 717م أو عام 100هـ الموافق 718م أو عام 101هـ الموافق 719م على اختلاف آراء المؤرخين فى هذا التاريخ بدأ العباسيون بالدعوة فعلا بزعامة على بن عبد الله، وإن كانوا قد تكتموا بالفعل على هذه الدعوة وأحاطوها بالسرية المطلقة، بحيث يصعب العثور على أصحابها وعلى مقر وجودهم. لهذا فإن رغبة العباسيين فى الوصول إلى

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 41.

الحكم لم تبرر إلا فى ذلك التاريخ . وكان إلى جانب على بن عبد الله ابنه محمد الذى أظهر هو الآخر ميلا كبيرا نحو الخلافة وعمل على التمهيد للدعوة العباسية . وقد سار الاثنان بالدعوة سيرا حسنا حيث وضعا للدعوة نظاما محكما قمته الإمام ، وتحتة اثنا عشر نقيبا وسبعون من الدعاة ، كل هذا أحيط بسرية تامة حتى أن الدعاة فى أثناء تجوالهم فى المدن والقرى كانوا يتزيفون بزى التجار خوفا من انكشاف أمرهم أمام بنى أمية ، وكانت الدعوة التى يدعون إليها هى أيضا مبهمة وغامضة وهى عبارة عن الغار ومعميات يصعب معها معرفة الخليفة أو الإمام المنتظر . تلك هى «الدعوة للرضا من آل البيت» أو آل محمد . وربما عمد العباسيون إلى ذلك للتعمية على الآخرين حتى يصعب تحديد اسم الشخص المبايع له ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هو أيضا محاولة لكسب العلويين وأنصارهم لأن السواد الأعظم من الناس كانوا يعتقدون بأن الدعوة إنما هى للعلويين ، وليست للعباسيين ، لأنهم هم الأقرب إلى هذه التسمية ، وهم الذين كافحوا من أجل ذلك طيلة وجود الدولة الأموية لهذا فقد كان غالبية رأى العام الإسلامى تقريبا يرى بأن هذه الدعوة إنما هى لآل على دون غيرهم ، ولم يكن يعلم بالحقيقة سوى النقباء والدعاة ، ومن هم محيطون بتلك الدعوة ، أو قريبون منها⁽¹⁾ .

الدعوة العباسية متى وكيف؟

نقل ابن أبى الحديد ، عن أبى جعفر الأسكافى : أنه قد صحت الرواية عندهم عن أسلافهم ، وعن غيرهم من أرباب الحديث ، أنه : لما مات الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام ، طلب محمد بن الحنفية من أخويه : الإمام الحسن ، والإمام الحسين عليهما السلام ميراثه من العلم ، فدفعوا إليه صحيفة ، لو أطلعاه على غيرها لهلك .

1 - عبد العزيز الليلم - نفس المرجع ص 42 .

فصرح ابن الحنفية لعبدالله بن العباس بالأمر، وفصله له فى تلك الصحيفة التى انتقلت منه لولده أبى هاشم، وعن طريقه وصلت إلى بنى العباس. ويقال: إنها قد ضاعت منهم أثناء حربهم مع مروان بن محمد الجعدى، آخر حكام الأمويين وقد ذكرت هذه الصحيفة فى كلام بنى العباس وبعد هذا، فإن الشئ المهم هنا هو تحديد الزمن الذى بدأ به العباسيون دعوتهم، وكيف؟ ونستطيع أن نبادر هنا إلى القول: إن الذين بدءوا بالدعوة أولاً هم العلويون، وبالتحديد من قبل أبى هاشم، عبدالله بن محمد بن الحنفية. وهو الذى نظم الدعاة، ورتبهم، وقد انضوى تحت لوائه: محمد بن على بن عبدالله بن العباس، ومعاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، وعبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وغيرهم، وهؤلاء الثلاثة هم الذين حضروه حين وفاته، وأطلعهم على أمر دعائه. وقد قرأ محمد بن على، ومعاوية بن عبدالله تلك الصحيفة، المشار إليها آنفاً، ووجد كل منهما ذكراً للجهة التى هو فيها. ولهذا نلاحظ: أن كلا من محمد بن على، ومعاوية بن عبدالله، قد ادعى الوصاية من أبى هاشم، مما يدل دلالة واضحة على أنه لم يخصص أيهما بالوصية، وإنما عرفهما دعائه فقط هذا، وبعد موت معاوية بن عبدالله، قام ابنه عبدالله يدعى الوصاية من أبيه، من أبى هاشم، وكان له فى ذلك شبهة، يقولون بإمامته سرّاً حتى قتل. وأما محمد بن على فقد كان بمتهى الحنكة والدهاء، وقد تعرف - كما قلنا - من أبى هاشم على الدعاة، واستطاع بما لديه من قوة الشخصية، وحسن الدهاء أن يسيطر عليهم، ويستقل بهم، ويتبعدهم عن معاوية بن عبدالله، وعن ولده، ويبعدهما عنهم، واستمر محمد بن على يعمل بمتهى الحذر والسرية، وكان عليه أن:

1 - يحذر العلويين ، الذين كانوا أقوى منه حجة ، وأبعد صيتاً . بل عليه أن يستغل نفوذهم - إن استطاع - لصالحه ، وصالح دعوته ، ولقد فعل ذلك هو وولده كما سيتضح .

2 - وكان عليه أيضاً أن يتحاشى مختلف الفئات السياسية ، التى لن يكون تعامله معها فى صالحه ، وفى صالح دعوته .

3 - والأهم من ذلك أن يصرف أنظار الحكام الأمويين عنه ، وعن نشاطاته ، ويظللهم ، ويعمى عليهم السبل⁽¹⁾ .

إثر قيام الدولة العباسية ، التى قال بها العباسيون ، من أن أبا هاشم قد تنازل عن حقه وحق العلويين فى الإمامة للعباسيين ، وهل حدث التنازل فعلاً أم لا ؟ ثم ادعاء كل من العلويين والعباسيين بأحقية كل منهما فى الخلافة ، ونظرة المؤرخين إليهم من خلال كتاباتهم عنهم ، والنتائج المترتبة على ذلك الصراع .

ويشير البعض من المؤرخين إلى أن سليمان بن عبد الملك عندما شك فى أمر أبى هاشم «عبد الله بن محمد بن الحنفية» يقول البلاذرى : بأن سليمان بن عبد الملك بعث مع أبى هاشم دليلاً وأمره أن فحاده عن الطريق ، وقد أعد له أعرابياً فى خباء ومعه غنم ومعه سم فاستقا الأعرابى فسقاه لبناً فيه سم فلما شربه مرض فمال إلى محمد بن على بالحميمة عنده (أنساب الأشراف مخطوط ص 687 أ - 687 ب مخطوطة استانبول) .

ويقول البعض الآخر بأن سليمان بن عبد الملك دس له السم ، وعندما أحس الأخير بدنو أجله عرج على بنى عمومته العباسيين الذين اتخذوا من الحميمة مستقراً لهم ومقاماً ، عندما أقطعهم إياها بنو أمية ، وبهذا أفضى إلى

1 - جعفر مرتضى العاملى - الحياة السياسية للإمام الرضا ص 30 .

بنى عمومته وعلى رأسهم على بن عبدالله بن عباس «عميد الأسرة العباسية آنذاك» بجميع أسرار الدعوة، وتنازل لهم عن حقه وحق العلويين فى المطالبة بالخلافة .

مدى سرية الدعوة : والظاهر أن عبدالله بن معاوية كان من جملة أولئك المخدوعين بهذه الشعارات ؛ إذ قد ذكر المؤرخون ، ومنهم : أبو الفرج فى مقاتل الطالبين ص 168 ، وغيره : أنه بعد أن استظهر ابن ضبارة على عبدالله ابن معاوية توجه عبدالله إلى خراسان ، وكان أبو مسلم قد ظهر بها ، فخرج إلى أبى مسلم طمعاً فى نصرته !! فأخذه أبو مسلم ؛ فحبسه ، ثم قتله وهذا يدل دلالة واضحة على أن عبدالله بن معاوية كان يظن أن أبا مسلم سوف ينصره ، وأنه - يعنى أبا مسلم - كان يدعو إلى أهل البيت ، والرضا من آل محمد على الحقيقة ، ولم يخطر فى باله : أن الدعوة كانت للعباسيين ، وبتدبير من أعظم داهية فيهم !! بل لعلنا نستطيع أن نقول : إن محمداً بن على قد استطاع أن يخفى هذا الأمر حتى عن ولديه : السفاح ، والمنصور ، ولذا نراهما قد التحقا مع جميع بنى هاشم العباسيين والعلويين على حد سواء ، وبعض الأمويين ووجوه قريش بعبدالله بن معاوية الخارج عام 127هـ الموافق 744م . فى الكوفة ، ثم فى شيراز ؛ حيث تغلب على : «فارس» ، وكورها ، وعلى «حلوان» ، و«قومس» ، و«أصبهان» ، و«الرى» وعلى مياه «الكوفة» ، وعلى مياه «البصرة» ، وعلى «همدان» ، و«قم» ، و«اصطخر» ، وعظم أمره جداً أن سليمان بن حبيب بن المهلب أخذه ؛ فحبسه ، وأراد قتله ، فسلم المنصور منه بعد أن أشرف على القتل . . . وليراجع الجهشيارى أيضاً . وقد تولى المنصور من قبل عبدالله بن معاوية هذا على «إيدج» كما تولى غيره غير ذلك من الأمصار . . . فقبول المنصور لولاية «إيدج» من قبله ، باعتباره من الهاشميين يكشف عن أنه لم يكن يعلم : أن والده كان ابتداءً من عام مئة الموافق 718 ،

أى قبل خروج عبدالله بن معاوية بـ «28» عاما يسعى جاهداً، ويشقى ويتعب فى تدبير الأمر للعباسيين، وتركيز الدعوة لهم، وإنما كان يعلم أن الدعوة كانت لأهل البيت، والرضا من آل محمد، المنطبق - بالطبع - على العلويين أكثر من غيرهم على الإطلاق.

وإلا فلو كان لمحمد بن على دعوة واضحة، ومشهورة، ومتميزة، وكان المنصور يعلم بها لكان توليه لا يذج من قبل عبد الله بن معاوية مضرًا جدًا فى دعوة أبيه، وضربة قاضية لها. اللهم إلا أن يكون ثمة غرض آخر أهم؛ فيكون ذلك منهم حنكة ودهاء، كأن يكون نظرهم إلى أنه: لو نجحت دعوتهم، فيها، وإلا.. فلو نجحت دعوة عبدالله بن معاوية، فباستطاعتهم أن يحتفظوا فيها بمراكزهم، ونفوذهم؛ إذ لهم أن يقولوا: إننا كنا من المعاونين والمساهمين فى هذه الدعوة، كما أن بذلك تنصرف أنظار الحكام عنهم، ويأمن العلويون جانبهم؛ فلا يناهضون دعوتهم ولا يقفون فى وجهها، وبهذه الأسباب نستطيع أن نفسر بيعة العباسيين جميعاً، أكثر من مرة لمحمد بن عبدالله العلوى، وبه أيضاً نفسر جواب المنصور لسائله عن محمد بن عبدالله هذا، حيث قال: «هذا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، مهدينا أهل البيت» ويأخذ بركابه، ويسوى عليه ثيابه. وأيضاً قوله فى مجلس البيعة لمحمد هذا: «ما الناس أصور أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم لهذا الفتى..» ومما يوضح أيضاً مدى تكتم العباسيون بأمر دعوتهم، أن: إبراهيم الإمام قد بشر بأنه قد أخذت له البيعة بخراسان - وهو فى نفس الاجتماع الذى كان قد عقد ليجددوا فيه البيعة لمحمد بن عبد الله بن الحسن وهكذا فإن النتيجة تكون هى: أن العباسيين ظلوا يسترون بالعلويين، ويخدعونهم، على اعتبار أنهم لو نجحوا فى دعوتهم السرية، فإن بيعتهم للعلويين، ودعوتهم لهم لاتضرهم، وإذا ما فشلوا فإنهم سوف يحتفظون بنفوذهم ومراكزهم فى دولة

أبناء عمهم. هذا مجمل الكلام بالنسبة للدعوة العباسية، ولكن طبيعة الدراسة تفرض علينا التوسع فى بيان المراحل التى مرت بها هذه الدعوة، ولا سيما فيما يتعلق بربطها بأهل البيت عليهم السلام، والعلويين، ومدى اعتمادهم على هذا الربط فنقول: لا بد من ربط الثورة بأهل البيت إنه كان لا بد للعباسيين من ربط الثورة والدعوة بأهل البيت عليهم السلام، حيث إنهم كانوا بحاجة إلى (1):

أولاً: صرف أنظار الحكام عنهم.

ثانياً: كسب ثقة الناس بهم، والحصول على تأييدهم لهم.

ثالثاً: أن لا تقابل دعوتهم بالإستغراب، والاستهجان، حيث إنهم لم يكونوا معروفين فى أقطار، وأنحاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ولا كان يعرف أحد لهم حقاً فى الدعوة لأنفسهم، كما هو الحال بالنسبة إلى العلويين، مما يجعل الدعوة لهم مع وجود العلويين مستغربة ومستهجنة إلى حد ما.

رابعاً:- وهو أهم ما فى الأمر - أن يطمئن إليهم العلويون، ويثقوا بهم، حتى لا تكون لهم دعوة فى مقابل دعوتهم، لأن ذلك بلا شك سوف يضعفهم، ويوهن قوتهم، لما يتمتع به العلويون من نفوذ ومكانة فى نفوس الناس بشكل عام. ولهذا نرى أبا سلمة الخلال، يعتذر لأبى العباس السفاح، عن كتابته للإمام الصادق عليه السلام، بأن يجعل الدعوة باسمه، ويبايعه - يعتذر - بأنه: «كان يدبر استقامة الأمر». نعم، لقد كان لربطهم الثورة بأهل البيت عليهم السلام أثر كبير فى نجاح ثورتهم، وظهور دعوتهم. وقد أكسبها ذلك قوة ومنعة، وجعلها فى متزى ومأمن من طمع الطامعين، وتطلع

1 - جعفر مرتضى العاملى - نفس المرجع ص 35.

المتطلعين، الذين كانوا يرجون لأنفسهم حظاً من الحياة الدنيا، وما أكثرهم كما وأن ذلك قد أثر تأثيراً بالغاً في اكتسابهم عطف الأمة، وتأيدها، وخصوصاً الخراسانيين في المشرق الإسلامي، الذين كانوا لا يزالون يعيشون الإسلام بعيداً عن أهواء المبتدعين، وتلاعب المتلاعبين، والذين: «وإن كانوا أقل غلوّاً (أى من أهل الكوفة)، فقد كانوا أكثر حماسة للدعوة لأهل البيت»؛ وذلك لأنهم لم يعاملوا معاملة حسنة في الواقع، ولم يسر فيهم بسيرة رسول الله محمد ﷺ والقرآن إلا الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، كما أنهم لم ينسوا بعد ما لاقوه في الدولة الأموية من العنف والتنكيل؛ ولذا فمن الطبيعي أن نراهم مستعدين لتقبل أية دعوة لأهل البيت عليهم السلام، والتفاعل معها، بل والتفانى في سبيلها. كما أن بلدهم كان بعيداً من مركز الخلافة بالشام ولم يكن فيه فرق وأحزاب متناحرة كالعراق الذى كان فيه شيعة وخوارج ومرجئة وغير ذلك. وكانت وطأة الحكم العباسى على العراق ومراقبتهم لكل حركة فيه أشد منها في خراسان، وبالفعل لقد شيد الشرقيون الخراسانيون، الذين كانوا يحبون أهل البيت عليهم السلام أركان دولة بنى العباس، وقامت خلافتهم على أكتافهم، واستقامت لهم الأمور بفضل سواعدهم، وأسيافهم.

مرت عملية الربط بثلاثة مراحل أو أربعة، طبقاً للظروف التى كانت قائمة آنذاك. وإن كانت هذه المراحل قد تبدو متداخلة، وغير مميزة فى أحيان كثيرة قال فى العيون والحدائق ص180: «وكان قد انتشر فى خراسان دعاة من الشيعة، وقد انقسموا قسمين: قسم منهم يدعو إلى آل محمد على الإطلاق. والقسم الثانى يدعو إلى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية، وكان المتولى لهذه الدعوة إلى آل رسول الله ﷺ ابن كثير، وكان الدعاة يرجعون فى الرأى والفقہ إلى أبى سلمة إلخ...»، إلا أن ذلك كان تبعاً للظروف المكانية،

والزمانية، والاجتماعية، التي كانت تتفاوت وتختلف باستمرار إلى حد كبير، هذه المراحل هي: الأولى: دعوتهم في بادئ الأمر «للعلوين» الثانية: دعوتهم إلى: «أهل البيت»، و«العترة». الثالثة: دعوتهم إلى «الرضا من آل محمد». الرابعة: ادعاؤهم الخلافة بالإرث، مع حرصهم على ربط الثورة بأهل البيت، بدعوى: أنهم إنما خرجوا للأخذ بثأر العلويين، وليرفعوا عنهم الظلم الذي حاق بهم.

المرحلة الأولى: وإذا قد عرفنا أن الدعوة كانت في بدء أمرها للعلويين، فلا يجب أن نستغرب كثيراً، إذا قيل لنا: إن جلة العباسيين، حتى إبراهيم الإمام، والسفاح، والمنصور كانوا قد بايعوا للعلويين أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة، فإن ذلك ما كان إلا ضمن خطة مرسومة، وضعت بعناية فائقة، بعد دراسة معمقة لظروفهم مع العلويين خاصة، ومع الناس بشكل عام. ويمكن أن نعتبر بيعتهم هذه هي المرحلة الأولى من تلك المراحل المشار إليها آنفاً. فنراهم عدا تعاونهم الواضح مع عبدالله بن معاوية، قد بايعوا محمد بن عبدالله بن الحسن أكثر من مرة أيضاً، فقد:

«اجتمع آل عباس، وآل علي عليه السلام «بالإبواء»، على طريق مكة، وهناك قال صالح بن علي: «إنكم القوم الذين تمتد إليهم أعين الناس، فقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاجتمعوا على بيعة أحدكم، فتفرقوا في الآفاق، فادعوا الله، لعل أن يفتح عليكم، وينصركم»، فقال أبو جعفر، أي المنصور: «لأي شيء تخذعون أنفسكم؟». والله، لقد علمتم: ما الناس أصور (أي أميل) أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى». يريد محمد بن عبدالله العلوي. قالوا: «قد والله صدقت، إنا لنعلم هذا»، فبايعوا جميعاً محمداً، وبايعه إبراهيم الإمام، والسفاح، والمنصور، وصالح بن علي، وسائر من حضر «طبعاً ما عدا الإمام جعفر الصادق عليه السلام...».

خرج دعاة بنى هاشم عند مقتل الوليد بن يزيد، فكان أول ما يظهرونه فضل الإمام على بن أبى طالب عليه السلام وولده، وما لحقهم من القتل، والخوف، والتشريد، فإذا استتب لهم الأمر ادعى كل فريق الوصية إلى من يدعو إليه، ولم يجتمعوا (أى المتبايعون الآن ذكروهم) إلى أيام مروان بن محمد، ثم اجتمعوا يتشاورون، إذ جاء رجل إلى إبراهيم الإمام، فشاوره بشيء، فقام وتبعه العباسيون، فسأل العلويون عن ذلك، فإذا الرجل قد قال لإبراهيم: «قد أخذت لك البيعة بخراسان، واجتمعت لك الجيوش...» بل لقد بايع المنصور محمد بن عبدالله العلوى مرتين: إحداهما: بالإيواء على طريق مكة. والأخرى: بالمدينة. وبايعه مرة ثالثة أيضاً: فى نفس مكة، وفى المسجد الحرام بالذات. ومن هنا نعرف السبب فى حرص السفاح والمنصور على الظفر بمحمد ابن عبدالله العلوى، فإن ذلك لم يكن إلا بسبب ما كان له فى أعناقهما من البيعة... وقد ذكر أبو فراس الحمدانى هذه البيعة فى قصيدته المشهورة، المعروفة بـ «الشافية»، فقال:

بشس الجزاء جزتيم فى بنى حسن أباهم العلم الهادى وأهمهم

لابيعة ردعتكم عن دمائهم ولايمين، ولاقربى، ولاذمم

ذكر ابن الأثير: أن عثمان بن محمد، بن خالد بن الزبير، هرب بعد مقتل محمد إلى البصرة، فأخذ وأتى به إلى المنصور، فقال له المنصور: يا عثمان، أنت الخارج على مع محمد؟! قال له عثمان: بايعته أنا وأنت بمكة، فوفيت ببيعتى، وغدرت ببيعتك، فشتمه المنصور، فأجابه، فأمر به فقتل. وذكر البيهقى: أنه لما حمل رأس محمد بن عبدالله بن الحسن إلى المنصور، من مدينة الرسول، ﷺ، قال لمطير بن عبدالله: «أما تشهد أن محمداً بايعنى؟». قال: «أشهد بالله، لقد أخبرتنى أن محمداً خير بنى هاشم، وأنتك بايعت له...»، قال: يا ابن الزانية إلخ... وكانت النتيجة، أن المنصور أمر

به، فوترد فى عىنیه، فما نطق!!! إلى آخر ما هنالك من النصوص الكثيرة، التى يتضح معها بما لا مجال معه للشك، أن الدعوة كانت فى بدء أمرها لخصوص العلویین، وباسمهم، ثم استغلت بعد ذلك لمصلحة العباسیین⁽¹⁾.

یرى الكثير من أن الإمامة كانت خرجت من أبى هاشم، وانتقلت إلى عبدالله بن معاوية بن جعفر أو إلى غيره من العلویین وليس إلى محمد بن على العباسی⁽²⁾.

المرحلة الثانية: كيف أن الدعوة العباسية تستبعد العلویین، وتتحاشى التصريح باسمهم، بطريقة فيها الكثير من الدهاء، والسياسة، حيث اقتصروا فى دعوتهم - بعد ذلك - على أنها لـ «أهل البيت»، و«العتره»، وهذه هى المرحلة الثانية... وكان الناس لا يفهمون من كلمة: «أهل البيت» إلا العلویین، لانصراف الأذهان إليهم عند اطلاق هذه العبارة، وذلك بسبب الآيات والروایات الكثيرة، التى استخدمت هذا التعبير للدلالة عليهم، دون غيرهم. فهذا أبو داود يقول للنقباء: «... أفظنونه - أى النبى ﷺ - خلفه - أى العلم - عند غيره عترته، وأهل بيته، الأقرب، فالأقرب؟! إلى أن قال: أفتشكون أنهم معدن العلم، وأصحاب ميراث رسول الله ﷺ؟! وهذا أبو مسلم الخراسانى القائم بالدولة العباسية، يكتب إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ويقول: «إنى دعوت الناس إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فيه، فأنا أبايعك؟». فأجابه الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «... ما أنت من رجالى، ولا الزمان زمانى» ثم جاء أبو مسلم، وبایع السفاح، وقلده الخلافة وقال السيد أمير على بعد أن ذكر ادعاء العباسیین للوصاية من أبى هاشم: «... وقد

1 - جعفر مرتضى العاملى - نفس المرجع ص40 وانظر: الكامل لابن الأثير ج5 ص12 المحاسن والمساوى للبيهقى ص482.

2 - الملل والنحل 112/1 والفرق بين الفرق ص28.

لاقت هذه القصة بعض القبول فى بعض المناطق الإسلامية . أما عند عامة المسلمين ، الذين كانوا يتعلقون بأحفاد رسول الله محمد ﷺ ، فقد ظل دعاة العباسيين يؤكدون لهم أنهم يعملون لحساب أهل البيت وحتى ذلك الوقت كان العباسيون يظهرون الولاء التام لبني فاطمة ، ويخلعون على حركتهم ، وعلى سياساتهم مظهر الوصول إلى هدف ضمان العدالة ، والحق لأحفاد رسول الله محمد ﷺ وكان يمثلوا أهل البيت ، ومحبوهم ، لا يخامرهم الشك فى الغدر ، الذى تبطنه هذه الاعترافات من العباسيين . فشمّلوا محمد بن على ، وجماعته بعطفهم وحمايتهم ، الذين كانوا فى حاجة إليهما . . » ويقول : « . . وكانت كلمة : «أهل البيت» هى السحر الذى يؤلف بين قلوب مختلف طبقات الشعب ، ويجمعهم حول الراية السوداء . . »⁽¹⁾ .

ثم تأتى المرحلة الثالثة ، ويتقلص ظل العلويين ، وأهل البيت عن هذه الدعوة ، أكثر فأكثر ، كلما ازدادت قوتها ، واتسع نفوذها ، حيث رأينا أخيراً أنها اتسعت بحيث تستطيع أن تشمل العباسيين أيضاً مع العلويين . حيث أصبحت إلى : «الرضا من آل محمد» ، وإن كانوا لا يزالون يذكرون فضل الإمام على عليه السلام ، وما لحق ولده الإمام الحسين عليه السلام من القتل والتشريد ، كما يتضح بأدنى مراجعة لكتب التاريخ . وهذه العبارة ، وإن كانت لا تختلف كثيراً عن عبارة : «العترة ، وأهل البيت» ، ونحوها . إلا أنها كانت فى أذهان العامة أبعد من أن يراد بها العلويون على الخصوص . ولكن مع ذلك بقيت الجماهير تعتقد أن الخليفة سيكون علوياً ، كما كان العلويون يعتقدون ذلك» على حد تعبير أحمد شلبي . وإذا صح هذا ، وفرض - ولو

1 - جعفر مرتضى العاملى - المرجع السابق ص 42 وانظر : روح الإسلام ص 306 و 308 . ولا بأس بمراجعة ما ورد فى كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج 1 جزء 2 ص 532 . والسيادة العربية والشيعة والإسرائيليات ص 94 . وإمبراطورية العرب ص 406 ، وطبيعة الدعوة العباسية ، وغير ذلك .

بعيداً - أن شعار: الرضا من آل محمد لا يختلف عن شعار: العترة، وأهل البيت في أذهان عامة الناس، فلما نصر على جعل هذا مرحلة مستقلة، بل يكون داخلاً فيما سبقه، وتكون المراحل حيثث ثلاث، لا أربع⁽¹⁾.

ومهما يكن فقد كانت هذه الدعوة التي ورثها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس من أقوى الدعوات وأكثرها إيجابية وتنظيماً. فمنذ أن قامت بالدعوة لابن الحنفية بعد تسليم الحسن أو قبل ذلك، كانت قائمة على قدم وساق في ستر وكتمان، بإرسال الدعاة وجمع الزكاة ليوم الثوب. ولما تسلمها المختار وأظهرها، أعلنها حرباً شعواء على الأمويين وكل من وقف أمامها. كذلك ظلت الكيسانية بعد المختار تدعو إلى قتل آل أبي سليمان وهدم دمشق فلما آلت الدعوة إلى محمد بن علي أبقى على إيجابيتها وجعل هدفها القضاء على دولة بني أمية وإعلان الخلافة في بني هاشم وذلك بالدعوة الغامضة) للرضا من آل محمد. وكان عليهم أن يبينوا فضلهم وظلم بني أمية، وإشاعة أحاديث نبوية تؤيد ذلك كذلك استمر محمد بن علي في إرسال الرجال والدعاة وكان أبو هاشم طلب من الدعاة الطاعة له، فأصبحت الدعوة أكثر تنظيماً على يديه بجعله لها مجلساً يشرف عليها يتكون من اثني عشر نقيباً، أما الدعاة فكان عددهم كبيراً حتى بلغ السبعين. وكان الدعاة يذهبون في زى التجار مستبضعين، على أن يجتمع بهم محمد في موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون منه التعليمات والأوامر. لكن المؤرخين لم يقتنعوا بصحة رواية انتقال الوصية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس للأسباب الآتية: إذا تنازل أبو هاشم فعلاً للعباسيين لأفصحوا عن هذا

1 - جعفر مرتضى العاملي - نفس المرجع ص 43 وانظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأحمد شلبي ج 3 ص 20. طبيعة الدعوة العباسية 152، نقلاً عن: مخطوطة العباسي ص 93، 93ب. راجع: تاريخ الجنس العربي ج 8 ص 411.

التنازل، بدلاً من التمويه على الشيعة بوجه خاص بالدعوة للرضا من آل البيت أو آل محمد وهذا دليل على عدم صحة فكرة التنازل. تبادل الرسائل بين محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب) وبين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. يتبين منها: أن العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر أيام الدولة الأموية، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الدولة الأموية، يكون خليفة المستقبل الإمام محمد النفس الزكية وكان أبو جعفر المنصور حاضراً في هذا الاجتماع. فلو أن فكرة التنازل حدثت فعلاً لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك أو أشار إليها في رسائله⁽¹⁾.

لا بد من ملاحظة أنهم في نفس الوقت الذي نراهم فيه يبعدون الدعوة عن أهل البيت، كما يدلنا عليه قول محمد بن علي العباسي لبكير بن ماهان: «وحذر شيعتنا التحرك في شيء مما تتحرك فيه بنو عمنا آل أبي طالب؛ فإن خارجهم مقتول، وقايمهم مخذول؛ وليس لهم من الأمر نصيب، وسنأخذ بثأرهم». وكما يدلنا عليه ما رواه الطبري من أن محمداً بن علي نهى دعائه عن رجل اسمه: غالب؛ لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة نراهم من جهة ثانية، وحتى لا يصطدموا بالعلويين وجهاً لوجه. كانوا في جميع مراحل دعوتهم يتكتمون جداً باسم الخليفة، الذي يدعون الناس إليه، وإلى بيعته، بل إن الشخص الذي كانوا يدعون الناس إليه، وإلى بيعته. بل وكان الناس يبايعونه ما كانوا يعرفونه، بل يعرفه الدعاة فقط، وعلى الناس أن يبايعوا إلى «الرضا من آل محمد» ولا بأس بمراجعة نص البيعة في تاريخ التمدن الإسلامي، المجلد الأول، الجزء الأول ص 125 ولعل هدفهم من ذلك

1 - إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 20 وانظر - الكامل 37/4 والأخبار الطوال ص 342.

كان أيضاً: هو أن لا يربطوا الدعوة بفرد معين، حتى لا تضعف إذا ما مات، أو اغتيل وعلى كل فقد نص ابن الأثير في الكامل ج4 ص 310، حوادث عام 130 الموافق 747م على أن أبا مسلم كان يأخذ البيعة إلى الرضا من آل محمد. ومثل ذلك كثير في كلمات المؤرخين، وإليك بعض النصوص التاريخية، التي تدل على ذلك. ففي الكامل ج4 ص 323 نص على أن محمداً بن علي بعث داعياً إلى خراسان يدعو إلى «الرضا من آل محمد» ولا يسمى أحداً، ولعل الذي أرسله هو أبو عكرمة الآتي ذكره. وقال قال محمد بن علي العباسي لأبي عكرمة: «فلتكن دعوتك إلى «الرضا من آل محمد»؛ فإذا وثقت بالرجل، في عقله وبصيرته، فاشرح له أمركم وليكن اسمي مستوراً من كل أحد، إلا عن رجل عدلك في نفسك، وتوثقت منه، وأخذت بيعته». ثم أمره بالتحاشي عن الفاطميين ويقول أحمد شلبي: «.. كانوا (أي العباسيون) يوهمون العلويين بأنهم يعملون لهم، ولكنهم في الواقع كانوا يعملون لأنفسهم» ويقول أحمد أمين «.. ومع هذا فكان من إحكام أمرهم أنهم لم يكونوا يصرحون عند دعوتهم في كثير من المواقف باسم الإمام؛ ليتجنبوا انشقاق الهاشميين بعضهم على بعض) ولو كان الخليفة معيناً ومعروفاً عند الناس، لما استطاع أبو مسلم، وأبو سلمة، وسليمان الخزاعي، أن يكتابوا الإمام الصادق عليه السلام، وغيره من العلويين، أنهم يباعدونهم، ويجعلون الدعوة لهم، وباسمهم، وقد تقدمت رسالة أبي مسلم للإمام الصادق عليه السلام، التي يصرح فيها بأنه: إنما دعا الناس إلى موالاة أهل البيت فقط، أي من دون تصريح باسم أحد.. وقد قال أحدهم: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فأتاه كتاب أبي مسلم؛ فقال: «ليس لكتابك جواب. أخرج عنا».

وقال السيد أمير علي عن أبي مسلم: «وقد ظل إلى هذا الوقت موالياً، بل مخلصاً، بل متحمساً لأبناء الإمام علي عليه السلام» وقال صاحب قاموس

الأعلام: «وعرض أبو مسلم الخراساني الخلافة ابتداءً على الإمام جعفر الصادق، فلم يقبلها»⁽¹⁾.

وأما أبو سلمة: فإنه عندما خاف من انتقاض الأمر عليه، بسبب موت إبراهيم الإمام، أرسل - والسفاح في بيته - إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يطلب منه القدوم عليه لبياعه، وتكون الدعوة باسمه، كما أنه كتب بمثل ذلك إلى عبدالله بن الحسن. لكن الإمام عليه السلام، الذي كان في منتهى اليقظة والحزم. رفض الطلب، وأحرق الكتاب، وطرد الرسول وقد نظم أبو هريرة الأبار، صاحب الإمام جعفر الصادق عليه السلام هذه الحادثة شعراً، فقال:

ولما دعا الداعون مولاي لم يكن ليثي إليه عزمه بصواب
ولما دعوه بالكتاب أجابهم يحرق الكتاب دون رد جواب
وما كان مولاي كمشرى ضلالة ولا ملساً منها الردى بثواب
ولكنه لله في الأرض حجة دليل إلى خير، وحسن مآب

وكتب إليه أبو سلمة أيضاً مرة ثانية، عندما أقبلت الرايات: «إن سبعين ألف مقاتل وصل إلينا، فانظر أمرك» فأجابه الإمام جعفر الصادق عليه السلام

1 - جعفر مرتضى العاملي - المرجع السابق ص 44 وانظر: طبيعة الدعوة العباسية ص 155، نقلاً عن OP. CID ص 95/195 ب. التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية 3 ص 20. ورغم أن أبا مسلم قد قضى على عدة ثورات قامت باسم العلويين، على ما في كتاب: طبيعة الدعوة العباسية ص 251، 253، فإننا نعتقد أن رسائله هذه، ورسائله التي أرسلها إلى المنصور يظهر فيها الندم على أنه زوى الأمر عن أهله، ووضعه في غير محله. هي السر، والسبب الحقيقي الكامن وراء قتله، مع أنه مؤسس الدولة العباسية (ومن سل سيف البغي قتل به)، ومشيد أركانها. وقد استظهر ذلك أيضاً المستشرق العلامة (بلوشيه) على ما في كتاب طبيعة الدعوة العباسية ص 251، وأشار إليه أيضاً السيد أمير على في كتابه: روح الإسلام ص 311.

بالرفض أيضاً وأما سليمان الخزاعي: المدبر الحقيقي للثورة في خراسان، فإنه اتصل بعبد الله بن الحسين الأعرج، وهما يسيران أبا جعفر المنصور في خراسان. عندما أرسله السفاح إليها، قال سليمان لعبد الله «إنا كنا نرجو أن يتم أمركم، فإذا شتم فادعونا إلى ما تريدون!!»، فعلم أبو مسلم بالأمر، فقتل سليمان هذا بل إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كثيراً من الدعاة ما كانوا يعرفون أن الخليفة سيكون عباسياً، فضلاً عن أن يكونوا يعرفونه باسمه الصريح قال الدكتور فاروق عمر: «على أننا نستطيع القول: إن اسم الإمام كان معروفاً لدى الحلقات الخاصة من الشيعة الهاشمية، أو العباسية، وأن الكثير من الأنصار، الذين ساندوا الثورة، ومنهم ابن الكرماني نفسه، لم يكن يعرف أن «الرضا من آل البيت» سيكون عباسياً، مع أن ابن الكرماني كان قائداً كبيراً، وكان يطمع إلى الاستيلاء على خراسان» طبيعة الدعوة العباسية ص 209 ولقد اشتبه الأمر على الدكتور فاروق عمر؛ فإن ابن الكرماني كان من عمال الأمويين، ولم يكن من الشيعة في أي وقت من الأوقات، وإنما استماله أبو مسلم توطئه للغدر به ولم يكن أبو مسلم ولا غيره من الدعاة والنقباء ليصرحوا لعدوهم بمثل هذا الأمر الذي يخفونه عن أنخص الناس بهم، بل حتى عمن هم مثل المنصور.

يلاحظ أن العباسيين قد موهوا على الناس، واستطاعوا أن يخدعواهم، حيث خيلوا لهم في بادئ الأمر أن الثورة كانت للعلويين ثم بدءوا يعدون العدة لما سوف يقولون للناس عند اكتشافهم لحقيقة الأمر؛ فصنعوا سلسلة الوصاية المعروفة عنهم من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، إلى محمد بن الحنفية، فإلى أبي هاشم، فإلى علي بن عبدالله بن العباس وهكذا وهي في الحقيقة نفس عقيدة الكيسانية، وقد جازت حيلتهم هذه على الناس، الذين كانوا يظنون أنهم يعملون للعلويين، حتى لقد خفى أمرهم عن عبدالله بن

معاوية حسماً قدمنا، بل لقد كان من جملة المخدوعين، الذين اكتشفوا الحقيقة بعد فوات الأوان، سليمان الخزاعي، الذي يقدم أنه - باعترافه - كان يرجو هذا الأمر للعلويين، وأبو مسلم الخراساني الذي صرح المنصور بأن السفاح كان قد خدعه.. وأنه خدع أيضاً من قبل إبراهيم الإمام، حيث ادعى الوصاية والإمامة، وحرفاً الآيات الواردة في أهل البيت لتنطبق عليهم، مما كان من نتيجته أنه زوى الأمر عن أهله، ووضع في غير محله أما انخداع ابن الكرماني فهو من الأمور الواضحة والمعروفة. بل لقد رأينا البعض يذكر أن أبا سلمة الخلال كان أيضاً من جملة المخدوعين، حيث كان يتوهم: أن الخليفة سيكون علوياً لا عباسياً⁽¹⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، هو ما تقدم من رفض الإمام القاطع لعرض كل من أبي سلمة، وأبي مسلم في جعل الدعوة له، وباسمه وما ذلك إلا لعمه عليه السلام بأن هؤلاء ليس لهم من هدف، إلا الوصول إلى مآربهم من الحكم والسلطان، ثم يتخلصون من كل من لا يعودون بحاجة إليه، إذا اعتبروه عقبة في طريقهم كما كان الحال في قتلهم أبا مسلم، وسليمان بن كثير، وأبا سلمة وغيرهم شاهدنا على ذلك جواب الإمام عليه السلام لأبي مسلم: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زمانى». . . وكذلك المحاورة التي جرت بينه عليه السلام، وبين عبدالله بن الحسن، عندما جاءه كتاب من أبي سلمة مثل كتابه. وأيضاً قوله عليه السلام: مالى ولأبى سلمة، وهو شيعة لغيرى بل ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة على اعتذار أبي سلمة للسفاح، عن مراسلته للصادق، وغيره من العلويين، بأنه: «كان يدبر استقامة الأمر» بل يذكر الطبرى وابن

1 - جعفر مرتضى العاملى - نفس المرجع ص 49 وانظر: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج 3 ص 254. وفى كتاب: السيادة العربية لفان فلوتن ص 97: أن النقباء أمروا بعض الدعاة بستر اسم المدعو له، وأخفوا اسم المدعو له عن البعض الآخر.

الأثير: أنه عندما جمع السفاح خاصته ليستشيرهم بقتل أبي سلمة وأخبرهم بمكاتبته للعلويين نجد أن بعض خاصته انبرى ليقول: ما يدريكم لعل ما صنع أبو سلمة كان من رأى أبي مسلم وأما كتابه للصادق فهو لا يدل على إخلاصه له، بل هو فقط - كان يدبر استقامة الأمر، وقتله من قبل العباسيين بهذا الجرم ليس إلا تغاضياً عن حقيقة الأمر بهدف الوصول إلى أهدافهم بالتخلص منه بطريقة مشروعة.

وعليه فلا يصح قول صاحب العيون والحدائق ص 181: «ولم يكن هوى أبي سلمة معهم، وإنما كان هواه مع الصادق جعفر الخ...» فإن لجوءه إلى الصادق إنما كان لأجل استقامة الأمر. بل إن بعض المحققين لا يستبعد أن يكون من جملة أهدافهم من رسائلهم تلك، إلى الصادق، وعبدالله ابن الحسن، وغيرهما من العلويين هو معرفة إن كان هؤلاء يطمحون إلى الحكم، ويرغبون فيه أولاً. وذلك ليستعد العباسيون - من ثم - لمواجهة دعوتهم، ورصد كل حركاتهم، وسكناتهم، ومن ثم شل حركتهم، والقضاء عليهم وهذا أسلوب استعمله المنصور من بعد، لكن الإمام الصادق عليه السلام تنبه للمكيدة، وعمل على إحباطها.

وتصريح أبي سلمة هذا وموقف الإمام عنه، وقوله: إنه شيعة لغيره يلقي لنا ضوءاً على الروايات التي تتهمه، وتتهم أبا مسلم بميل علوية وأن أبا مسلم أراد أن يعلم خلافة علوية، بمجرد وصوله إلى خراسان، كما عن الذهبي، وشارح شافية أبي فراس، وتاريخ الخميس. فإن ذلك لا شاهد له إلا رسائلهما التي أشرنا إليها... مع أنها لم يكن الهدف منها إلا استقامة الأمر للعباسيين خصوصاً إذا لاحظنا أن أبا مسلم قد قضى على عدة ثورات للعلويين، وأنه كان يلاحقهم تحت كل حجر ومدر، وفي كل سهل وجبل، على حد تعبير الخوارزمي ولكننا لا نجد فيما بأيدينا من الشواهد التاريخية ما

يؤيد دعوى الخوارج هذه عدا ما ذكروه من أنه: قتل عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، وعبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين⁽¹⁾.

ثم تأتي المرحلة الرابعة والأخيرة، وهي: ادعائهم الخلافة بالإرث، ولكنهم استمروا يربطون الثورة بأهل البيت عليهم السلام من ناحيتين. الأولى ادعائهم الخلافة بالإرث عن طريق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ومحمد بن الحنفية، الثانية: ادعائهم أنهم إنما خرجوا للأخذ بثأر العلويين فأما ادعائهم استحقاقهم الخلافة بالإرث، عن طريق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، واحتجاجهم بقرباتهم النسبية من رسول الله ﷺ، فإننا نلمحها في كثير من مواقفهم، حيث كانوا يستطيّلون على الناس بهذه القربى، ويحتجون بها في مختلف المناسبات حيث قد ظلوا بحاجة لأن يصلوا حقهم الذي كانوا يدعونه بحق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ووصايتهم بالوصاية التي له، والتي لا يجهلها أحد، وليصححوا بهذه الوسيلة خلافتهم، ويتقبلها الناس. مضيفين إليها تبرأهم من أبي بكر وعمر وعثمان.

وفي الحقيقة أن تلك هي عقيدة الكيسانية انتحلوها لأنفسهم بوحى من مصالحهم الخاصة. حتى إذا ما وصلوا إلى الحكم نراهم قد قطعوا حبل صلتهم بالإمام علي عليه السلام، وولداه، وجعلوا الخلافة حقا للعباس وولده، ثم تخلوا عن ذلك كله فيما بعد، ورجعوا إلى العقيدة والنظم التي أسسها معاوية، ولكنهم اختلفوا عنه بأنهم أدخلوا عليًا، وجعلوه في المرتبة الرابعة، وكان ذلك بداية وجود أهل السنة بخصائصهم، ومميزاتهم المذهبية، ولهذا حاول العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر أن يحيطوا خلافتهم بشيء من الشرعية معتبرين أن قانون الوراثة في الشريعة الإسلامية يعزز موقفهم أن الخلافة تركة بعد النبي وأنهم من نسل العباس ابن عم النبي. بينما العلويين

1 - جعفر مرتضى العاملي - نفس المرجع ص 51.

من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ، الهم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت. ففي إحدى رسائل المنصور التي وجهها إلى محمد النفس الزكية يقول: وأما قولك أنكم بنو رسول الله، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ [الأحزاب]. ولكنكم بنو بنته وإنها لقربة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجر لها الإمامة فكيف تورث بها؟ وأشاع العباسيون هذه النظرية عبر مؤيديهم من الشعراء والأدباء لمعرفة رد الفعل عليها. وهذا ما يستبعد فكرة التنازل عن الخلافة. والحقيقة هي أن العباسيين استغلوا فرصة الخلافة بين الأمويين والعلويين، لكي لا يبقوا منفردين عملوا على الانضمام إلى العلويين الذين تربطهم بهم صلة النسب، من أجل هذا تعاونوا مع العلويين بادئ ذي بدء في «الدعوة إلى آل البيت» حتى كانت وفاة عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو هاشم) دون عقب، روجوا الرواية التي تقول: إن أبا هاشم سلم زمام الدعوة الكيسانية للعباسيين قبل وفاته وخوفاً من أن يتعد الشيعة العلويون عنهم، فقد حرصوا على عدم إظهار أطماعهم في الخلافة، وأبقوا على تمويههم بأخذ البيعة «للرضى من آل محمد» دون تعيين أو تسمية أحد، في الوقت الذي أعادوا فيه ربط نسبهم إلى هاشم بن عبد مناف جد العلويين والعباسيين. ولما سقطت الدولة الأموية أعلن العباسيون خلافتهم السنية⁽¹⁾.

فقد قال داود بن علي، أول خطيب لهم على منبر الكوفة، في أول كلام له أمام السفاح: «ولما أخرجنا الأئمة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا» ونرى السفاح في خطبته الأولى أيضاً في مسجد الكوفة، بعد أن ذكر عظمة الرب تبارك وتعالى، وفضل النبي ﷺ «قد قاد الولاية والوراثة، حتى انتهيا إليه، ووعد الناس خيراً» ويقال: إن من جملة ما قاله السفاح في خطبته

١ - د. إبراهيم أيوب ص 21 - الكامل - 319/5.

الأولى: «فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفىء، والغنيمة نصيينا، تكرمًا لنا وفضلا علينا. ورعمت السبائية الضلال: أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة، إلى أن قال: ورد علينا حقنا لكن الظاهر أن لعن السبائية (وهم الشيعة الإمامية حسب مصطلحهم) مفتعل على لسان السفاح: لأن كلمة داود بن علي المتقدمة تدل على إنكار العباسيين - فى بدء أمرهم - خلافة أبى بكر، وعمر، وعثمان، وتمسكهم بخلافة الإمام على عليه السلام، حيث يصلون حبل وصايتهم بها، وإن كانوا قد رجعوا عن هذه العقيدة بعد ذلك إلى العقيدة التى كان قد روجها معاوية، ولكن من المؤكد أنهم استمروا على عقيدتهم تلك، أعنى إنكار خلافة الثلاثة، ووصلهم حبل وصايتهم بالإمام على عليه السلام، إلى زمن المنصور، الذى كان أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين.

ويقول داود بن على فى خطبته الأولى فى مسجد الكوفة أيضًا: «وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا».

موقف العباسيين من العلويين:

إلى أى مدى يمكن وصف عواطف العباسيين تجاه بنى عموماتهم العلويين؟ وهل كانت تلك العبارات التى تفوه بها أبو العباس السفاح، وعمه داود بن على، وغيرهما من زعماء العباسيين - عندما أعلنوا دولتهم - تجاه موافقهم من العلويين - وما أصابهم من مظالم؟ هل كانت كل تلك تعبر عن حقيقة مشاعر العباسيين تجاه العلويين؟ يقول أبو العباس السفاح فى خطبته التى ألقاها من على منبر المسجد الجامع بالكوفة بعد مبايعته بالخلافة: «الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكممه، وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوام به والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله

وقرابتة، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال عز من قائل: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ٢٣﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ... ٢٣﴾ [الشورى]. وقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢١﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ... ٧﴾ [الحشر]، فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمنا لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشأمت وجوههم، بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتم بنا النقيصة وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منه ومنحة لمحمد ﷺ فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحجوا مواريث الأمم، فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصاً منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا، والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا، وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث

أتاكم النحير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يشنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا، فأنا السفاح الميخ، والثائر المير وكان السفاح موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر، وصعد داود بن على عمه، فقام داود على مراقى المنبر فقال⁽¹⁾:

الحمد لله شكراً شكراً، الذى أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس الآن اقشعت جنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها وبزع القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق لى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم.

أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا، ولا نحضر نهراً، ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلّاهم لكم، واستثّارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسول ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ.

1 - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص 69 وانظر: البلاذرى/ أنساب الأشراف/ القسم الثالث ص ص 142 - 143.

تُبًا تَبًا لبني حرب بن أمية، وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم
العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا
الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم بالعباد،
ومستهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الأصار، وفرحوا
في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي جهلا باستدراج الله، وأمنا لمكر
الله، فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل
ممزق، فبعدًا للقوم الظالمين، وأدالنا الله من مروان، وقد غره الله بالغرور،
أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظن عدو الله أن لن
نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه
وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحق ضلاله،
وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا. أيها
الناس: إن أمير المؤمنين نصره الله نصرًا عزيزًا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة
أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن
استحضر فيه شدة الوعك، وأدعو الله لأمر المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله
بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في
الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتهكل
التمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها
بمعالم الهدى ومناهج التقوى.

فعج الناس له بالدعاء، ثم قال: يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا
مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعة أهل خراسان فأحيا
بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم
تنتظرون، وإليه تتشوقون، فأظهر فيكم الخليفة من بني هاشم، وبيض به
وجوهكم، ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة، فخذوا ما

آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخذعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصرًا وإنكم مصرنا، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ﷺ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

تلك العبارات التي تفوه بها داود بن علي من على منبر المسجد الجامع بالكوفة والتي قال فيها بعد حمد لله والثناء عليه: ما خرجنا لنحضر نهرًا، ولا لبنى قصرًا ولا لنجمع ذهبًا ولا فضة، وإنما أخرجنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبني عمنا؟ هل كانت تلك المشاعر تنم عن رغبة صادقة في مؤازرة العلويين في استعادة حقهم المسلوب، نظير ما لاقاه العلويون من الأمويين من تنكيل وقتل؟ الواقع يستبعد هذا، وما كان ذلك إلا لتبرير خروج العباسيين على الأمويين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ما هو إلا للدعاية من أجل جمع أكبر قدر ممكن من الأتصار والأعوان الذين يدينون بالولاء للعلويين قبل أن تظهر أسماء رجالات بني العباس على السطح بزمن طويل⁽¹⁾.

فالعباسيون عندما يتظاهرون بالغضب لما حل بالعلويين من قتل وتنكيل على أيدي الأمويين، وتأكيدهم لذلك على لسان داود بن علي عندما يخاطب أهل الكوفة، قائلًا لهم: واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب، وأبا العباس السفاح، ما هو أيضًا إلا بمثابة ذر الرماد في العيون بأن ما فعله العباسيون ما

1 - عبد العزيز النميله - المرجع السابق ص 71 وانظر: الطبري/ التاريخ الرسل والملوك ج 7 ص ص 425 - 428. ابن علمراني/ إلا في تاريخ الخلفاء ص ص 59 - 60.

هو إلا الانتقام لما نزل بالعلويين على أيدي بنى أمية ليس إلا . فلو كان العباسيون صادقين حقًا فى ادعائهم بأنهم ما خرجوا على الأمويين إلا غضبًا لما حل بالعلويين ، فلماذا لم يثاروا العلويين فى ثوراتهم المتكررة ضد الدولة الأموية طيلة ستين عامًا قبل ظهور الدعوة؟ فأين موقف العباسيين من المآسى التى يتعرض لها العلويون، وهم لا يحركون ساكنًا؟ بل لم نسمع عن أحد منهم قام بهذا الأمر أو تكلم به . ومن ناحية ثالثة ، فإنه إذا لم يحصل هذا - وهذا لم يحصل - أقصد مشاركة العباسيين للعلويين فى نضالهم ضد الأمويين قبل الدعوة ، فلماذا لم يشركوهم فى الحكم والسياسة والإدارة بعد أن تمكنوا من الإجهاز على الأمويين؟ إذ أغفلوهم ولم يحفلوا بهم . ولو عدنا إلى الوراء قليلا لمعرفة تلك الحركات التى قام بها العلويون منذ أن قامت الدولة الأموية ، وخاصة بعد مقتل الإمام الحسين بن على عليه السلام فى كربلاء ، لعرفنا أن العلويين هم الذين كافحوا وناضلوا طويلا من أجل محاولة استعادة حقهم المغتصب من قبل الأمويين وأنهم لم يتركوا تلك المطالبة بل عملوا كل الوسائل فى سبيل الوصول إلى الخلافة . ولقد وجد دعائهم فى مقتل الحسين ابن على سببًا قويًا للتأثير على مشاعر كثير من الناس سواء من صدق معهم فى هذا أم لم يصدق ، كما فعل المختار بن أبى عبيد الثقفى فى دعوته التى تبين فيما بعد أنه لم يعمل ذلك من أجل العلويين بقدر ما كان محاولة منه لاستقطاب الفئات الناقمة على الأمويين وفى نفس الوقت المناصرة للعلويين ليس إلا⁽¹⁾ .

وجد الدعاة فى هذه الحادثة سببًا للتأثير على مشاعر الناس وجعلتهم يحسون بالندم والأسى والرغبة فى استئصال شأفة الأمويين والآثار المترتبة على مقتل الإمام الحسين عليه السلام موجودة فى عدد من المصادر التاريخية كالطبرى

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 73 .

والمسعودى وابن الأثير وغيرهم كثير. كل هذه التساؤلات تجيب عنها الأحداث التالية التى تحدث عنها المؤرخون. لقد قامت الدولة العباسية وهى تحمل فى طياتها معارضة سياسية من قبل العلويين أصحاب الحق فى رئاسة الدولة الإسلامية وورثة جدهم رسول الله محمد ﷺ، وإن الدعوة كانت باسمهم، إلا أن العباسيين اغتصبوا منهم ذلك الحق، فوقفوا منهم موقفهم من الأمويين والكل يعلم ما لاقاه العلويون من الاضطهاد والتنكيل والمذابح الجماعية من الأمويين، ولعل من أهم الأمور المتصلة بهذا الموضوع حادثة كربلاء التى قتل فيها الإمام الحسين عليه السلام، ثم خروج المختار مطالباً بدم الإمام الحسين عليه السلام، ثم نهاية أبى هاشم «عبدالله بن محمد» على يد «سليمان بن عبد الملك»، ثم خرج الإمام زيد بن على فى أيام هشام بن عبد الملك ونهايته، ثم ابنه يحيى بن زيد، الذى كانت نهايته هو الآخر على يد الوليد ابن يزيد بن عبد الملك. وبعد أن تولى العباسيون الخلافة عملوا فى العلويين أسوأ بكثير مما عمله الأمويون فى العلويين، يقول البعض عن ذلك. سار العباسيون على نهج الأمويين، فاتسمت سياستهم إزاء أهل البيت [يقصد العلويين] بطابع الحسد الشديد الذى دفع الأمويين إلى تشريدهم واضطهادهم، ولم يكن للعباسيين أى حق فى المطالبة بالخلافة، ولكنهم اتخذوا من محبة الناس للعلويين سلماً للوصول إلى ذروة المجد، فلما وصلوا إلى غايتهم المنشودة كافأوا أولئك العلويين بضروب الاضطهاد والتنكيل والمذابح الجماعية، كما أنزلوا العقوبات بالفقهاء الذين تجاسروا على المجاهرة برأى لا يحظى بالقبول لدى الحكام. ولعل أصدق مثل على ذلك التذمر ما قاله أحد الشعراء مندداً بالعباسيين إذ يقول:

يا ليت جور بنى مروان عادلنا يا ليت عدل بنى العباس فى النار

لا شك بأن ادعاء العباسيين بحقهم فى الخلافة قد مر بمرحلتين مختلفتين تتميز كل منهما عن الأخرى من حيث الفحوى والأهمية، يقول البعض عن هذا: فى فترة الدعوة السرية ضد الحكم الأموى، تلك الفترة التى كان الدعاة العباسيون فيها يهدفون إلى كسب أكبر عدد ممكن من المعارضين للسلطة الأموية رفعت شعارات عامة، مثل حق أهل البيت أو بنى هاشم⁽¹⁾.

إننا إذا تتبعنا الأحداث التاريخية، نجد: أن كل مطالب بالخلافة كان يدعى أول ما يدعى الرحمة والقربى من رسول الله ﷺ. وأول من بدأ ذلك أبوبكر فى يوم السقيفة، وتبعه على ذلك عمر؛ حيث قررا أن ليس لأحد الحق فى أن ينازعهم سلطان محمد؛ إذ أنهم أمس برسول الله ﷺ رحماً (على ما فى نهاية الأرب ج 8 ص 168، وعيون أخبار ابن قتيبة ج 22 ص 233، والعقد الفريد ج 4 ص 258، طبع دار الكتاب العربى، والأدب فى ظل التشيع ص 24، نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ)؛ ولأنهم هم أولياؤه وعشيرته، على ما ذكره الطبرى ج 3 ص 220، طبع دار المعارف بمصر، والإمامة والسياسة ص 14، 15 طبع الحلبي بمصر، وشرح النهج للمعتزلى ج 6 ص 7، 8، 9، 11، والإمام الحسين للعلايلى ص 186، وص 190، وغيرهم. أو لأنهم عترة النبى ﷺ وأصله والبيضة التى تفقأت عنه كما فى العثمانية للجاحظ ص 200. فأسقطا بذلك دعوى الأنصار عن الاعتبار كما أن أبا بكر قد استدل على الأنصار بالحديث الذى صرح باستفاضته أهل السنة (على ما فى ينابيع المودة للحنفى)، وهو قوله ﷺ مشيراً إلى خلفائه الاثنى عشر: «يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة، كلهم من قريش». استدل به - بعد أن تصرف فيه، بأن حذف صدره، واكتفى بذكر: أن الأئمة من قريش على ما فى صواعق ابن حجر ص 6، وغيره. وأصبح كون الأئمة من قريش تقليداً

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 74.

متبعًا، بل ومن عقائد أهل السنة المعترف بها، وقد استدل ابن خلدون على ذلك بالإجماع.

أما ابن كثير فإنه قد استشكل بالأمر من ناحية أخرى؛ حيث قال - وهو يتحدث عن فتنة محمد بن الأشعث الكندي - : «والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة، وليس هو في قريش، وإنما هو كندى من اليمن؛ وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك، حتى أن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين، فأبى الصديق عليهم ذلك. ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عباد، الذي دعا إلى ذلك أولاً، ثم رجع عنه» راجع البداية والنهاية ج 9 ص 54. فتراه يستشكل في عمل من بايعوا محمد بن الأشعث بإمرة المؤمنين، التي رآها مخالفة للإجماع المدعى يوم السقيفة. وتراه يعترف بمخالفة سعد ثم يدعى أنه رجع عن ذلك. ولست أدري كيف رجع عنه، مع أنه من المتسالم عليه تاريخياً: أنه استمر على الخلاف معهم، حتى اغتيل بالشام - اغتالته السياسة، على حد تعبير طه حسين في كتابه: من تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 146، وغيره. وذلك أشهر من أن يحتاج إلى بيان وعلى كل حال. فإن ما يهمنا هو الإشارة إلى أن كون الأئمة من قريش ليس فقط أصبح تقليدًا متبعًا، بل أصبح من عقائد أهل السنة المعترف بها. ولكن ما تأتى به السياسة، تذهب به السياسة؛ إذ بعد تسعمائة سنة جاء السلطان سليم، وخلع الخليفة العباسي، وتسمى هو بـ: «أمير المؤمنين»، مع أنه لم يكن من قريش. وبهذا يكون قد ألغى هذا التقليد عملاً من عقائد طائفة من المسلمين السنة، وأبطله، ومهما يكن من أمر فإن أول من ادعى استحقاق الخلافة بالقربى النسبية من رسول الله ﷺ كان أبو بكر، ثم عمر، وجاء بعدهما بنو أمية؛ فعرفوا أنفسهم بأنهم ذوى قربى النبي ﷺ حتى لقد حلف

عشرة من قواد أهل الشام، وأصحاب النعم والرياسة فيها - حلفوا - للسفاح :
على أنهم لم يكونوا يعرفون إلى أن قتل مروان، أقرباء للنبي ﷺ، ولا أهل
بيت يرثونه غير بني أمية. راجع النزاع والتخاصم للمقریزی ص 28، وشرح
النهج للمعتزلی ج 159/7، ومروج الذهب ج 3 ص 33 وفتوح ابن أعثم ج 8
ص 59 بل لقد ذكر المسعودی والمقریزی: أن إبراهيم بن المهاجر البجلي،
الموالي للعباسيين قد نظم قضية هؤلاء الأمراء شعراً، فقال:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس إنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبدالمطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب
ويقول الكميت عن دعوى بني أمية هذه:

وقالوا: ورثناها أبانا وأمنا ولا ورثتهم ذاك أم ولا أب
نجد في العقد الفريد ج 120/2 طبع دار الكتاب العربي: أن أروى بنت
الحارث بن عبدالمطلب قالت لمعاوية: «ونينا ﷺ هو المنصور؛ فوليتم علينا
من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ، ونحن أقرب إليه منكم،
وأولى بهذا الأمر إلخ...» ثم جاء العباسيون، وادعوا نفس هذه الدعوة، كما
هو واضح من النصوص التي ذكرناها، ونذكرها بل لقد ادعى نفس هذه
الدعوى أيضاً أكثر إن لم يكن كل من خرج مطالباً بالخلافة، سواء كان
خروجه على الأمويين أو على العباسيين، وهذا يعنى أن العامل النسبي قد
لعب دوراً مهماً في الخلافة الإسلامية، وكان الناس بسبب جهلهم، وعدم
وعيهم لمضامين الإسلام يصدقون ويسلمون بأن القربى النسبية تكفى وحدها
في أن تجعل لمدعيها الحق في منصب الخلافة. ولعل أكثر ما ورد في القرآن

الكريم، والسنة النبوية الشريفة من الوصايا بأهل البيت عليهم السلام، والأمر بمودتهم، ومحبتهم، والتمسك بهم جعل الناس يظنون أن سبب ذلك هو مجرد قرابتهم النسبية منه ﷺ وكان أن استغل الطامحون فهم الناس الخاطئ هذا. بل لقد حاولوا ما أمكنهم تكريسه، وتثبيتته إلا أن حقيقة الأمر هي غير ذلك، فإن منصب الخلافة في الإسلام، لا يدور مدار القربى النسبية منه. بل هو يدور مدار الأهلية والجدارة، والاستعداد الذاتي لقيادة الأمة قيادة صالحة، كما كان النبي ﷺ يقودها، يدلك على ذلك أننا لو رجعنا إلى النصوص القرآنية، وإلى ما ورد عن النبي ﷺ بشأن الخليفة بعده، فلعلنا لا نعثر على نص واحد منها يفهم منه أن استحقاق الخلافة يدور مدار القربى النسبية منه ﷺ، وحسب. وكل ما ورد في القرآن، وعنه ﷺ من الأمر بموالاته أهل بيته، وحبهم، والتمسك بهم، ومن تعيينه خلفاءه منهم، فليس لأجل قرابتهم النسبية منه ﷺ. بل لأن الأهلية، والجدارة الحقيقة لهذا المنصب قد انحصرت في الخارج فيهم. فهو على حد تعبير الأصوليين: من باب الإشارة إلى الموضوع الخارجى، وليس تصريحه ﷺ بالقربى لأجل بيان الميزان والمقياس والملاك في استحقاقهم الخلافة. وواضح أنه كان لابد من الالتجاء إلى الله ورسوله لتعيين الشخص الذى له الجدارة والأهلية لقيادة الأمة؛ لأن الناس قاصرون عن إدراك حقائق الأمور، ونفسيات، وغرائز، وملكات بعضهم البعض، إدراكاً دقيقاً وحقيقياً، وعن إدراك عدم طرو تغير أو تبدل عليه فى المستقبل. ولقد عينه ﷺ بالفعل، ودل عليه بمختلف الدلالات، بالقول: تصريحاً، وتلويحاً، وكتابة، ونصاً، ووصفاً، وغير ذلك. . وبالفعل أيضاً، حيث أمره على المدينة، وعلى كل غزوة لا يكون هو ﷺ فيها، ولم يؤمر عليه أحداً، وغير ذلك. .

هذا هو رأى الشيعة، وهذا هو رأى أئمتهم فى هذا الأمر، وكلماتهم طافحة ومشحونة بما يدل على ذلك. ولا يبقى معه مجال لأى لبس أو توهم؛

فراجع كلام الإمام على في شرح النهج للمعتزلى ج 6 ص 12 ، وغيره مما قد يتعسر استقصاؤه .

ومما ذكرنا نستطيع أن نعرف أن ما ورد عن الإمام على عليه السلام ، أو عن غيره من الأئمة الطاهرين ، من قولهم : أنهم هم الذين عندهم ميراث رسول الله ﷺ ؛ فإنما يقصدون به الميراث الخاص ، الذى يختص الله به من يشاء من عباده ، أعنى : ميراث العلم ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا... ﴾ [فاطر] ، وقد اعترف أبو بكر نفسه لفاطمة الزهراء بأن الأنبياء يورثون العلم لأشخاص معينين من بعدهم . وعلى كل فلقد أنكر الإمام على عليه السلام مبدأ استحقاق الخلافة بالقرابة والصحابة أشد الإنكار ، فقد جاء فى نهج البلاغة قوله عليه السلام : «واعجباً!! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة؟!». هكذا فى نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، ولكن الظاهر هو أنها محرفة ، وأن الصحيح هو ما فى نسخة ابن أبى الحديد ، وهى هكذا : «واعجباً!! أن تكون الخلافة بالصحابة ، ولا تكون بالصحابة والقرابة!!» .

وأما ما يظهر منه أنهم يستدلون لاستحقاقهم الخلافة بالقربى من رسول الله ﷺ ، فإنما اقتضاه الحجاج مع الخصوم ؛ فهو من باب : «الزموهم بما الزموا به أنفسهم» . ويدل على هذا المعنى ويوضحه ما قاله الإمام على عليه السلام لأبى بكر ، عندما جيئ به لبياع ؛ فكان مما قاله : «واحتججتهم عليهم (أى على الأنصار) بالقرابة من النبى ﷺ . وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتهم به على الأنصار ، نحن أولى إلخ» . راجع : الإمامة والسياسة ج 1 ص 18 .

ويشير أيضاً عليه السلام - إلى هذا المعنى فى بعض خطبه الموجودة فى نهج البلاغة فمن أراد فليراجعه . . كما يشير إليه أيضاً ما نسب إليه عليه السلام من الشعر (على ما فى نهج البلاغة) وهو قوله⁽¹⁾ :

1 - جعفر مرتضى العاملى - المرجع السابق ص 56 .

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشiron غيب
وان كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب
ولكن أحمد أمين المصرى فى كتابه: ضحى الإسلام ج 3 ص 261،
وص 300، وص 222، وص 325. وكذلك سعد محمد حسن فى كتابه: المهدية
فى الإسلام ص 5 = والخضرى فى محاضراته ج 1 ص 166: إن هؤلاء ينسبون
إلى الشيعة القول: بأن منصب الخلافة يدور مدار القربى النسبية منه ﷺ
وحسب. رغم اعتراف أحمد أمين فى نفس الكتاب، وبالتحديد فى ص
208، 212: بأن الشيعة يحتجون بالنص فى خصوص الخليفة بعد الرسول.
بل والخضرى يعترف بذلك أيضاً حيث قال: «أما الانتخاب عند أهل
التنصيب على البيت العلوى، فإنه كان منظوراً فيه إلى الوراثة إلخ».

وهى نسبة غريبة حقاً - بعد هذا الاعتراف الصريح منهم، ومن غيرهم -
فإن عقيدة الشيعة - تبعاً لأئمتهم هى ما ذكرنا، أى ليس منصب الخلافة دائراً
مدار القربى النسبية منه ﷺ، وأدلة الشيعة تنطق وتصرح بأن القربى النسبية
وحدها لا توجب بأى حال من الأحوال استحقاق الخلافة، وإنما لا بد من
النص المعين لذلك الشخص الذى يمتلك الجدارة والأهلية والاستعداد الذاتى
لها.

إنهم يستدلون على خلافة الإمام على عليه السلام بالنصوص القرآنية، والنبوية
المتواترة عند جميع الفرق الإسلامية، ولا يستدلون بالقربى إلا من باب:
الزمومهم. أو من باب تكثير الأدلة، أو فى مقابل استدلال أبى بكر وعمر
بها، وإذا ما شذ واحد منهم، واستدل بذلك، معتقداً بخلاف ما قلناه عن
قصور نظر، وقلة معرفة، أو لفهمه - خطأ - ما ورد عنهم عليهم السلام، من
أن عندهم ميراث رسول الله ﷺ؛ فلا يجب، بل لا يجوز أن يحسب على
الشيعة، ومن ثم القول بأن ذلك هو قولهم، وأن تلك هى عقيدتهم.

ولعل أحمد أمين لم يراجع أدلة الشيعة!! أو أنه راجها، واشتبه عليه الأمر!! أو أنه. لا هذا. ولا ذاك. وإنما أراد التشنيع عليهم؛ فنسب إليهم ما ليس من مذهبهم!

ويدلنا على صحة هذا الاحتمال الأخير، اعترافه المشار إليه، بأن الشيعة يستدلون على إمامة علي عليه السلام بالنص، لا بالقربى!!.

وخلاصة القول هنا: إن القربى النسبية ليس هي الملاك في استحقاق الخلافة. ولم تكن دعوى أنها كذلك، لا من الأئمة، ولا من شيعتهم. وإنما كانت من قبل أبي بكر، وعمر، ثم الأمويين، فالعباسيين.

وإذا كان أهل السنة - تبعاً لأئمتهم - قد جعلوا كون الإمامة في قریش من عقائدهم. وإذا كان غير أهل البيت هم الذين ادعوا هذه الدعوى، وهللوا وكبروا لها. فمن الحق أن نقول:

«رمتى بدائها وانسلت» وأخيراً، فلقد كان من أبسط نتائج هذه العقيدة لدى أهل السنة، وقبولهم أن القربى النسبية تجعل لمدعيها الحق في الخلافة. أن سنحت الفرصة لأن يصل أشخاص إلى الحكم من أبرز مميزاتهم، وخصائصهم جهلهم بتعاليم الدين، وانسياقهم وراء شهواتهم، أينما كانت، وحيثما وجدت، جاعلين الحكم والسلطان وسيلة إليها، مسدلين على حماقاتهم هنا، وتفاهاتهم هناك ستاراً من القربى النسبية منه ﷺ وهو من هؤلاء وأمثالهم برئ وما لم يعد ذلك الستار يقوى على المنع من استكناه واقعهم، وحقيقة نواياهم وتصرفاتهم، كان لابد لهم من الالتجاء إلى أساليب أخرى، تبرر لهم واقعهم، وتحمي تصرفاتهم، وتؤمن لهم الاستمرار في الحكم، ولعل بيعة المأمون للإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد هي من تلك الأساليب.

وعندما ذهب داود بن علي إلى مكة، والياً عليها، من قبل أخيه السفاح، وأراد أن يخطب في مكة خطبته الأولى، طلب من سديف بن

ميمون أن يأذن له فى الكلام؛ فأذن له؛ فوقف؛ وقال من جملة ما قال:
«أتزعم الضلال: أن غير آل الرسول أولى بترائه؟! ولم؟! وبم؟! معاشر
الناس؟! ألهم الفضل بالصحابة، دون ذوى القرابة؟ الشركاء فى النسب،
والورثة للسلب» ويقول داود بن على فى نفس المناسبة، أعنى فى أول خطبة
له: «لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ، إلا على بن أبى طالب، وهذا
القائم فيكم» وأشار إلى السفاح. وبرواية أخرى فيه «أقسم بالله قسمًا برًّا، ما
قام هذا المقام أحد بعد رسول الله ﷺ وآله، أحق به من على بن أبى طالب،
وأمر المؤمنين هذا»⁽¹⁾.

قال المنصور فى خطبة له: «وأكرمنا من خلافته، ميراثنا من نبيه»
ولكنهم بعد المنصور - بل وحتى من زمن المنصور نفسه، قد غيروا سلسلة
الإرث هذه، وجعلوها عن طريق العباس، وولده عبدالله، ولكنهم أجازوا
بيعة على؛ لأن العباس نفسه كان قد أجازها. فكانت استدلالات الخلفاء
ابتداءً من المنصور ناظرة إلى الإرث عن هذا الطريق. فترى المنصور يبين فى
رسالة منه لمحمد بن عبد الله بن الحسن: أن الخلافة قد ورثها العباس فى
جملة ما ورثه من النبى ﷺ، وأنها فى ولده. وكان الرشيد يقول: «ورثنا
رسول الله، وبقيت فىنا خلافة الله» وقال الأمين عندما بويع له، بعد موت
أبيه الرشيد: «وأفضت خلافة، وميراث نبيه إلى أمير المؤمنين الرشيد» ومدح
البعض المأمون، وعرض بأخيه الذى غدر به، فقال فى جملة أبيات له:

إن تغدروا جهلاً بوارث أحمد ووصى كل مسد وموفق

ولكن ما هو الحق الشرعى الذى استند عليه محمد والعباسيون من بعده
كأساس للمطالبة بالخلافة؟ العباسيون يسوقون فى ذلك قصة لها طابع قصصى
يفسرون بها هذا الحق الشرعى لخلافتهم بتنازل الإمام أبى هاشم بن محمد

1 - البداية والنهاية 42/10 وشرح المنهج المعتزلى ج 7 ص 155.

الحنفية والذي سمي بابن الحنفية لأن أمه خولة بنت قيس بن جعفر الحنفى، كانت من عرب بنى حنيفة وهم فرع من قبيلة بكر بن وائل العدنانية، وكانت منازل بنى حنفية فى اليمامة. أما تسميتهم بالكيسانية فنسبه إلى أبى عمرو كيسان قائد حرس المختار بن عبيد الله الثقفى الذى ثار بالكوفة ودعا لمحمد بن الحنفية (المهدى) عام 66هـ الموافق 685م ثم تمكن الأمويون من قتل المختار عام 67هـ الموافق 686هـ. ولهذا سمي أتباع هذه الفرقة بالكيسانية والمختارية والهاشمية.

تقول هذه الرواية أن الإمام أبا هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب إمام الشيعة الكيسانية والملقب بالمهدى، زار الخليفة الأموى سليمان ابن عبد الملك، وأن سليمان لمس فيه ذكاء ونشاطاً وعلماً وفصاحة فتخوف منه لعلمه أن الشيعة هم الحزب المنافس لبنى أمية، ودس من تعقبه وسقاه لبناً مسموماً. وشعر أبو هاشم بالسّم يسرى فى بدنه فأدرك أنه ميت لا محالة، وكان بالقرب من بلدة الحميمة فخرج عليها، وهناك لقي على بن عبد الله بن العباس، فأخبره بأنه هالك لا محالة ولا عقب له، وأنه متنازل نه عن حقه فى الخلافة وسلم له زمام الدعوة الكيسانية⁽¹⁾.

قرر المجتمعون - على اختلاف آراء المؤرخين فى عدد الاجتماعات وأماكنها إذ أن منهم من أشار إلى عقد ذلك الاجتماع فى الأبواء بين مكة والمدينة، فى حين أشار البعض الآخر إلى أن الاجتماع قد تكرر فى كل من مكة والمدينة - بأن يكون محمد النفس الزكية هو الإمام المنتظر فيما إذا قدر لهم الإطاحة بالأمويين، وقد تم ذلك فيما يقال عام 127هـ الموافق 744م. هذا الاجتماع لا يخل، من واحد من اثنتين: الأولى: إما أن يكون صحيحاً ما قرروه فى اجتماعهم، وهو اختيار النفس الزكية إماماً لهم، لأنه فى نظر

1 - د. أحمد مختار العبادى - المرجع السابق ص 19.

الكل «مهدى آل البيت» وهذا فى حد ذاته يعنى اغتصاب العباسيين حق العلويين فى الخلافة، كما أنه فى نفس الوقت يدحض ادعاء العباسيين بقضية التنازل، لأن مسألة التنازل لو كانت حقيقة واقعة فلماذا يجتمعون وهم مؤمنون بأحقيتهم فى الخلافة - أقصد العباسيين - بعد تنازل العلويين عن حقوقهم لهم؟ الثانية: أما إذا كان العكس وهو عدم قبول العباسيين بترشيح محمد النفس الزكية للإمامة كما يقول البعض من أن المجتمعين لم ينتهوا إلى قرار حاسم حيال مبايعة واحد من الطرفين، فهذا بدوره يعنى الحق كل الحق فى مشاركة العلويين للعباسيين فى الحكم الذى استأثر به العباسيون بعد الإطاحة بالأمويين، كما يفند فى نفس الوقت ادعاء العباسيين بمسألة التنازل. ولهذا فإننا نجد بأن العباسيين يعلنون دولتهم من على منبر المسجد الجامع فى الكوفة دون أن يفكروا فى العلويين، أو أن يسندوا إليهم منصباً فى الدولة. وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن العباسيين عملوا كل ما فى وسعهم لمطاردة العلويين، واستئصال شأفتهم، خاصة فى عهد المنصور، ولعل لهم بعض العذر فى ذلك، نظراً لعدم رضى العلويين فى استحواذ العباسيين على السلطة دون مشاركتهم لهم. ويبدو أيضاً بأن أبا هاشم لم يكن غراً إلى هذا الحد، وذلك بإضاعة جهود من سبقه من العلويين فى هذا المجال ممن قدموا أنفسهم ثمناً لذلك ثم يقدم تلك الجهود بطبق من ذهب لواحد من بنى عمومته، لم يتعب ولم يسع فيه ساعة واحدة طيلة ما يقرب من ستين عاماً «أى منذ قيام الدولة الأموية حتى نهاية القرن الأول الهجرى». ثم إنه من ناحية أخرى، ألا يوجد من بين العلويين وشيعتهم من يمكن أن يسند إليه ذلك الأمر، وهو أمر الدعوة؟.

فى اعتقادنا أن هناك العديد ممن يمكن أن يسند إليهم أمر الدعوة من العلويين لأنه ليس من حق أبى هاشم أن يتنازل بتلك البساطة حتى ولو كان

هو الداعية، لأنه يدعو باسم العلويين وبهذا يمكن أن نقول: إن دوره في هذا عبارة عن شخص فوض من قبل العلويين (خاصة الفرع الحنفى) للقيام بهذا الأمر، أما أن يتنازل عن هذا الحق الذى يدعيه ويضيقه فى ساعات، وهو لا يملك ذلك الحق فهذا ما استبعدناه ثم إنه من ناحية ثالثة، لو أن أبا هاشم قد تنازل فعلا عن حقه فى الإمامة فهل يمثل أبو هاشم وجهة نظر سائر العلويين؟⁽¹⁾.

الواقع أيضاً يستبعد ذلك لأن أبا هاشم لو فرض قد تنازل للعباسيين فعلا عن هذا الحق، فهو لا يمثل سوى الفرع الحنفى، أما بقية الفروع من حسنية وحسنية فهو لا يمثلها، ولا يتكلم باسمها، لأن تلك الفروع كانت لها جهود جبارة فى مقاومة الأمويين أكثر بكثير مما نلمسه بالنسبة للفرع الحنفى فها هو الإمام الحسين بن على عليه السلام وما جرى له مع الأمويين ونهايته على أيديهم فى موقعة كربلاء الشهيرة، ثم حفيده الإمام زيد بن على بن الحسين وثورته وقلته هو الآخر على يد هشام بن عبد الملك، ثم الإمام يحيى بن زيد بن على بن الحسين، ونهايته كذلك على يد الخليفة الأموى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وأخيراً ذلك الاجتماع الذى ضم العلويين والعباسيين فى نهاية عهد الدولة الأموية، وتم فيه ترشيح محمد النفس الزكية للخلافة. وإذا نظرنا إلى الفرع الحنفى نجد أن محمداً بن الحنفية «والد أبى هاشم» قد بايع لعبد الملك بن مروان بعد أن قضى الأخير على ابن الزبير فى عام 73هـ الموافق 692م. هذا إذا استبعدنا موضوع ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى ودعوته لابن الحنفية، لأن ابن الحنفية لم يؤيده فى هذا الموضوع. ولهذا فإن هذا الفرع - نقصد الحنفى - لم يبذل من الجهد مثل ما بذله الفرعان الحسينى وأولا فى عهد الدولة الأموية، ثم الفرع الحسينى ثانياً فى نهاية عهد الدولة الأموية وأوائل

1 - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص 51.

الدولة العباسية ممثلاً في محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، ثم الحسين بن علي بن الحسن، وغيرهم. ولهذا فإن ادعاء العباسيين بهذا الحق - إن كان فعلاً قد حصل - فهو لا يعطيهم الحق في تنازل العلويين عمومًا عن حقهم في الإمامة. مسألة أخرى، هي: لو أننا افترضنا جدلاً بأن التنازل كان صحيحاً فهل يمكن أن يتنازل أبو هاشم عن الدعوة وأسرارها لمحمد بن علي بن عبدالله بن عباس في نهاية القرن الأول الهجري عام 98هـ الموافق 716م، كما يقول البعض من المؤرخين، مع وجود والده علي الذي تزعم تلك الدعوة ما يزيد عن ثمانية عشر عاماً حتى توفي عام 118هـ الموافق 736م؟ وهل يمكن أن يتنازل أبو هاشم لمحمد في الوقت الذي كان والده علي موجوداً؟. وهل كان محمد هذا هو المسؤول عن أمور الدعوة في حياة والده؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الوظيفة التي كان يزاولها والده علي؟. هل كان خامل الذكر؟ الحقائق التاريخية ترفض ذلك، فلقد ذكر عنه البعض بأنه كان ميالاً وطموحاً يسعى لنيل الخلافة⁽¹⁾.

وأكبر دليل على ذلك أنه عندما وفد إلى دمشق لمس منه الخليفة الوليد ذلك الطموح، فأساء معاملته، يقول البعض في هذا: وفد علي بن عبد الله ابن عباس إلى دمشق في خلافة عبد الملك ليسكن فيها، واشتهر بتقواه، ولكنه كان طموحاً يسعى لنيل الخلافة إلا أن الوليد أساء معاملته مما اضطره للاستقرار في الحميمة. ويقول آخر: «لما حانت منية أبي هاشم كان مقيماً بالحميمة عند بني عمه، فأدلى بنصيه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده، وأوصى أوليائه به، فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي، وحينما

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 53 وانظر: المقدسي/ كتاب البدء والتاريخ/ المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلني وهو لمظهر المقدسي ج 6 ص 57. الخضرى/ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية/ الدولة العباسية ص 135، حسن/ الدولة العباسية قيامها وسقوطها ص 20.

حضرت الوفاة عليا هذا فاوصى إلى ابنه محمد فيها. ويقول ثالث: «لقد كان علي العباسي أول شخصية عباسية تطمح لنيل الخلافة، لقد نادى أكثر من مرة بحق العباسيين، وكانت السلطة الأموية تنظر إليه بعين الشك والريبة والحذر، ولكن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان - بنظرته السياسية الرصينة - رأى بأنه من الأجدر عدم التعرض إليه لأن أى تصادم معه قد يؤدي إلى ذبوع شهرته وشعبيته بين الناس. وحينما جاء الخليفة الوليد إلى الحكم سجنه مرتين، وضربه بالسياط وأهانته في شوارع دمشق على مرأى من الناس، ثم نفاه إلى الشراة في جنوب الأردن، ولذلك اتخذ الحميمة مقراً له. وبعد وفاة علي العباسي عام 118هـ الموافق 736م أظهر ابنه محمد شخصية بارزة في البيت العباسي، وقد كانت علاقته بأبي هاشم طيبة وودية⁽¹⁾.

ومعنى هذا فإن الدكتور فاروق عمر يعترف بأن شخصية محمد لم تظهر إلا بعد وفاة والده في عام 118هـ الموافق 736م، أما الفترة بين عامي 98هـ الموافق 716م، 118هـ الموافق 736م فقد كان علي بن عبد الله هو الشخصية البارزة في ذلك الوقت، وهذا لايعنى أن محمداً لم يشارك أباه في تنظيم الدعوة السرية إلا أنه لم يكن هو المسؤول عنها دون غيره. ومما يؤيد هذا الرأي ما أشار إليه البعض إذ يقول: وقد صار علي بن عبد الله بن العباس حول عام 100هـ الموافق 718م وهو شيخ آل محمد قادراً على أن يتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد أو يشك في نواياه، وكان من الطبيعي أن ينظر آل البيت بعين الرضا لكل تنظيم يدعو إلى آل البيت، فاغتنم هذه الفرصة علي بن عبد الله بن عباس، وكانت فرصة ذهبية، فلما نجح بيته استأثر

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص54 وانظر: عمر: فاروق. العباسيون الأوائل ج1 ص40، بحوث في التاريخ العباسي ص70 المؤلف نفسه. محمد حسن، الشريف أحمد، العالم الإسلامي في العصر العباسي. ص ص 12 - 14.

بالأمر، مع أنه لم يدخل فيه إلا منذ وقت قريب. ويضيف قائلًا: وقد نظم الدعوة من البيت العباسي ثلاثة لم يقدر لهم أن ينالوا ثمرة غرسهم، وأولهم على بن عبدالله بن عباس، وكان يكنى بابنه محمد، وقد رأس الدعوة أكثر من عشرين عامًا حتى مات وقد قارب الثمانين، وهو الذى نظم الدعوة والنقباء فى كل من العراق وخراسان. ثم ولى الأمر بعد ذلك ابنه محمد، والراجح أنه كان أكثر مسالمة وإيثارة للعافية. ثم ولى أمر الدعوة إبراهيم بن محمد، وهو الذى وصل بها إلى الذروة، وكان هؤلاء الثلاثة يقيمون بالحميمة، ويتصلون بخراسان عن طريق دعاة العراق. أما الدكتور السيد عبدالعزيز سالم فيقول عن ذلك أيضًا:

والظاهر أن عليًا العباسي كان الرأس المدبر للدعوة فى الفترة من عام 99هـ الموافق 717م - عام 118هـ الموافق 726م كما أن البعض قد أشار أيضًا إلى أن أبا هاشم قد تنازل لعلى بن عبدالله بن عباس عن حقه فى الإمامة عندما أحس بأن سليمان بن عبد الملك قد دس له السم. وبالجملّة، فإنه إذا رضى الفرع الحنفى بهذا التنازل فإن بقية الفروع العلوية لم تتنازل، وها هى قد أشهرت السلاح فى وجه العباسيين فور قيام دولتهم. وبالرغم مما قيل حيال قضية التنازل فإن العباسيين ما فتئوا أن تنصلوا من ذلك ولم تعد لهم حاجة بموضوع وصية أبى هاشم لمحمد بن على أو أبيه على، لأنها تربطهم سياسيًا بالعلويين، وتظهر أن حقهم جاء عن طريق أبناء عمومتهم، أما من الناحية العقدية فإنها تفضح تلك الحركة السرية العائدة إلى الكيسانية والهاشمية المتطرفة كما يقول الدكتور فاروق عمر⁽¹⁾.

1 - عبد العزيز المصطفى - نفس المرجع ص 55 وانظر: دراسات فى تاريخ العرب، العصر العباسي الأول ص 24. الخلافة والدولة فى العصر العباسي ص 34، الشامي أحمد الدولة الإسلامية العصر العباسي الأول ص 16. بحوث فى التاريخ العباسي ص ص 64 - 65.

وعلى أساس هذه الوصية أو هذا التنازل، ورث محمد بن علي العباسي جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشعبة الكيسانية واستغلها لصالحه كصاحب حق في الخلافة. هذه هي الوصية التي يستند عليها العباسيون كأساس شرعي لخلافتهم. غير أن عدداً كبيراً من المؤرخين لا يقتنعون بصحة هذه الرواية للأسباب الآتية⁽¹⁾:

أولاً: إذا كان هذا التنازل قد حدث فعلاً لكان للعباسيين الحق في الإفصاح عنه، ولكننا نجد دعوتهم تلقى باسم آل البيت أو آل محمد. ولا شك أن الغرض من ذلك هو التمويه أو التعمية عن الشيعة بوجه خاص، وهذا دليل يهمل فكرة التنازل.

ثانياً: من الرسائل التي تبودلت في صدر الدولة العباسية بين الإمام العلوي محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب) وبين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، يتبين لنا أن العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر أيام الدولة الأموية، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الخلافة الأموية يكون خليفة المستقبل الإمام محمد النفس الزكية. وكان أبو جعفر المنصور حاضراً في هذا الاجتماع، فلو أن فكرة التنازل وقعت لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك أو أشار إليها في رسائله.

ثالثاً: العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر، حاولوا أن يحيطوا بخلافتهم بشيء من الشرعية، فطبقوا عليها قانون الوراثة في الشريعة الإسلامية على اعتبار أن الخلافة تركة بعد النبي ﷺ. فقالوا إنهم من نسل العباس عم النبي، بينما العلويون من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي، والعم في الميراث والعصبة مقدم على ابن البنت. ففي الرسائل التي تبودلت بين المنصور العباسي وبين محمد النفس الزكية، نجد كلاماً في هذا المعنى حينما يقول له المنصور: وأما

1 - د. أحمد مختار العبادي - المرجع السابق ص 20.

قولك أنكم بنو رسول الله ﷺ، فإن الله تعالى يقول في كتابه: «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم». ولكنكم بنو بته، وإنها لقربة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية، ولا يجوز لها الإمامة، فكيف تورث بها؟» وأشاع العباسيون هذه النظرية في البلاد ووجدوا من الشعراء والأدباء من يؤيد هذه الفكرة مثل قولهم: أنى يكون وليس ذاك بكائن. لبنى البنات وراثته الأعمام! فإذا كان التنازل قد وقع حقاً، فلم اتجه العباسيون إلى هذا الحل؟ الواقع أن العباسيين وجدوا حزينين متعارضين وهما: الأمويون والعلويون وكان الحزب العلوي أقرب الحزبين إليهم بحكم قرابتهم للرسول. ولهذا وجهوا نشاطهم السياسى نحو هذا الحزب الذى يتفق معهم. ثم جاءت وفاة أبى هاشم آخر إمام للشيعة الكيسانية إذ لم يكن له عقب بعده، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا فى الدعوة الشيعية الكيسانية ووضعوا تلك الرواية التى تقول بأن هاشم بن محمد بن الحنفية سلم زمام الدعوة الكيسانية للعباسيين قبل وفاته. وقد حرص العباسيون على إخفاء أطماعهم نحو الخلافة، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل تحت هذا الستار البراق المبهم «الرضى من آل محمد» يعنى لشخص معين من آل البيت يتفق عليه فيما بعد. كذلك سموا أنفسهم بالهاشميين وهى كلمة عامة قد تنسب للشيعة الكيسانية التى اندمجت فى فرق شيعية أخرى واتخذت اسم الهاشمية، وقد تنسب أيضاً للإمام أبى هاشم بن محمد بن الحنفية أو لهاشم بن عبد مناف جد الجميع علويين وعباسيين. فالدعوة العباسية بدأت شيعية فى الأصل ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية كما يبدو من سير الحوادث⁽¹⁾.

ولكن يبدو أن العباسيين لا يمكنهم التنصل عن قصة التنازل التى أعلنوها أكثر من مرة على الملأ من أن أباً هاشم قد تنازل، ويكفى دليلاً على

١ - د. أحمد مختار العبادى - نفس المرجع ص 21.

هذا ما أشار إليه المنصور فى إحدى رسائله المتبادلة بينه وبين محمد النفس الزكية مؤكداً بأن حق العلويين فى الإمامة قد انتهى وإلى غير رجعة، ذلك أنهم قد تنازلوا عنها، هذه واحدة. أما الأخرى فهى أن الدعوة منذ بدايتها هى «لرضا من آل محمد» وهى العبارة تشتمل على العباسيين والعلويين، كما أنها فى نفس الوقت قد تعنى العلويين أكثر من العباسيين فى نظر الكثير من الناس على أساس مطالبة العلويين بالإمامة مدة طويلة قبل العباسيين. ومما يزيد الشكوك فى مسألة التنازل تلك هو أن العباسيين عندما أسسوا دولتهم، وأجهزوا على كثير من خصومهم عدلوا عن هذا إلى مسألة أخرى أكثر أهمية، ولا تربطهم بالعلويين، تلك هى تمسكهم بحقهم فى الخلافة عن طريق جدهم العباس عم النبى ﷺ ووارثه كما يقولون. ومهما يكن من أمر فإنه مهما حاول العباسيون التنصل من ارتباطهم ببنى عموماتهم العلويين فالواقع يرفض هذا سواء تم ذلك قبل إعلان الدولة العباسية، أم بعد قيام دولتهم عندما حاول السفاح، ومن بعده المهدي استرضاءهم وكسبهم إلى جانبه، أو عندما أسند المأمون إلى الإمام على الرضا ولاية العهد معترفاً بأحقية العلويين بالمشاركة فى السلطة على الأقل، مهما كانت نوايا المأمون حيال تلك البيعة. ولهذا فإن العباسيين يعترفون بأحقية العلويين لأنهم فى بداية الدعوة قد استغلوا ذلك المسمى الذى يجمع الأسرتين، واستفادوا منه كثيراً فى ضم العديد من العناصر إلى جانبهم والتى كانت تشيع لآل البيت قصة تنازل أبى هاشم للعباسيين عن حق العلويين فى الإمامة، تلك التى قال بها العباسيون وأذاعوها على الملأ، وما ذلك إلا لتبرير قيام دولتهم من كل هذا فإننا لا نميل إلى رأى الذى قال به البعض من المؤرخين من أن أبا هاشم قد تنازل عن حق العلويين فى الإمامة للعباسيين، وإن حصل شئ من هذا فهو يختص بالفرع الحنفى، أما بقية العلويين من حسنيين وحسينيين فهم فى

حل من ذلك التنازل لأن ثوراتهم المتتالية التي قاموا بها إثر قيام الدولة العباسية تؤكد هذا وتوضحه، مع استبعادنا لفكرة التنازل جملة وتفصيلاً⁽¹⁾.

دعوى الأخذ بثار العلويين: وأما ادعاؤهم: أنهم خرجوا للأخذ بثار العلويين، واستمرارهم على ربط الثورة بأهل البيت، حتى بعد نجاح ثورتهم، وتسلمهم لأزمة الحكم والسلطان - وهذه هي الناحية الثانية من المرحلة الرابعة - فذلك أوضح من أن يخفى. وقد تقدم قول محمد بن علي لبكير بن ماهان: «وسنأخذ بثارهم» يعنى بثارات العلويين. وتقدم أيضاً قول داود بن علي: «وانما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا» ويقول السفاح، عندما أتى برأس مروان: «ما أبالي متى طرقتي الموت، فقد قتلت بالحسين، وبني أبيه من بني أمية مائتين، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم» نقلاً عن مختصر أخبار الخلفاء، هكذا. «وقد قتلت بالحسين ألفاً من بني أمية... إلى أن قال: وقتلنا سائر بني أمية بحسين، ومن قتل معه، وبعده من بني عمنا أبي طالب».

ويقول صالح بن علي لبنات مروان: «ألم يقتل هشام بن عبد الملك، زيد بن علي بن الحسين، وصلبه في كناسة الكوفة؟. وقتل امرأة زيد بالحيرة، علي يد يوسف بن عمرو الثقفي؟! ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد، وصلبه بخراسان؟! ألم يقتل الدعى عبيد الله بن زياد، مسلم بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة؟! ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين وبرواية ابن أبي الحديد، أنه قال لهم: «... إذن، لا نستبقى منكم أحداً؛ لأنكم قد قتلتم إبراهيم الإمام، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومسلم بن عقيل وقتلتم خير أهل الأرض حسيناً، وإخوته، وبنيه، وأهل بيته، وسقتم نساءه سبايا - كما يساق ذراري الروم - على الأقتاب إلى الشام...» ولا بأس بمراجعة ما قاله داود بن علي

1 - عبد العزيز اللعيلم - المرجع السابق ص 58.

عندما قتل ثمانين أمويًا مرة واحدة وكذلك فإنهم ما لقبوا أبا سلمة الحلال، أول وزير في الدولة العباسية بـ «وزير آل محمد»، وأبا مسلم الخراساني بـ «أمين، أو أمير آل محمد» إلا من أجل الحفاظ على ربط الدعوة بأهل البيت عليهم السلام، ولتبقى - من ثم - محتفظة بقوتها، وحيويتها. وأخيرًا، فلم يكن اتخاذهم السواد شعارًا إلا تعبيرًا عن الحزن والأسى لما نال أهل البيت في عهد بني أمية. هذا يصح بالنسبة للملابس السوداء. وأما كون الرايات سوداء؛ فيحتمل أن يكون لأجل ذلك، حسبما صرح به ابن خلدون ص 259، ويحتمل أن يكون لما ورد من أن راية الإمام على عليه السلام يوم صفين كانت سوداء، على ما نص عليه فإن فلوتن في هامش: ص 126 من كتابة السيادة العربية. أو لأن رايات النبي ﷺ في حروبه مع الكفار كانت سوداء؛ يقول الكميت مشيرًا إلى ذلك:

إلا فرفعوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدي

وفي صبح الأعشى ج 2 ص 370، نقلا عن القاضي الماوردي في كتابه: «الحاوي الكبير»: أن السبب في اختيارهم السواد هو أن النبي ﷺ قد عقد في يوم حنين ويوم الفتح لعمه العباس راية سوداء. . وفي صبح الأعشى أيضًا ج 3 ص 371 نقل عن أبي هلال العسكري في كتابه «الأوائل» أن سبب ذلك هو قتل مروان لإبراهيم الإمام، حيث لبس شيعة السواد حدادًا عليه؛ فلزمهم ذلك، وصار شعارًا لهم. . ونرجح أن حادثة قتل يحيى بن زيد، ولبس الخراسانيين السواد عليه سبعة أيام، هي التي شجعت العباسيين على اتخاذ السواد شعارًا لهم؛ إظهارًا للحزن والأسى لما نال أهل البيت في الدولة الأموية. ويذهب إلى هذا الرأي السيد عباس المكي في نزهة الجليس ج 1 ص 316. بل صرح البلاذري في أنساب الأشراف ج 3 ص 264 بما يدل على ذلك فراجع⁽¹⁾.

1 - جعفر مرتضى العاملي - المرجع السابق ص 62.

يتضح ، بما لا مجال معه للشك : أنهم كانوا يستغلون سمعة العلويين ، ودماءهم الزكية فى محاولاتهم للوصول إلى الحكم ، وتثيت أقدامهم فيه بل إن من الملاحظ أن كثيراً من الثورات التى قامت بعد ثورة بنى العباس ، كانت تحاول ذلك - بطريقة أو بأخرى - أى أنها كانت تظهر للناس ارتباطها بأهل البيت عليهم السلام ، وأنها تحظى بتأييدهم ، وموافقتهم ، وكثير منها كان يرفع شعار : «الرضا من آل محمد» . يتضح لنا بجلاء ، الأسلوب الذى انتهجه العباسيون ، والخطوة التى اتبعوها ، من أجل كسب ثقة الناس بهم ، وتأييدهم لهم ، وصرف أنظار الحكام عنهم . وأيضاً الطريقة التى اتبعوها فى أبعاد العلويين عن مجال السياسة ، وأن بيعتهم لهم ما كانت إلا خداعاً وتمويهاً ، من أجل تنفيذ خططهم ، وانجاح دعوتهم كما ظهر أن كون الدعوة - فى بادئ الأمر - باسم العلويين ، لم يكن أمراً عفويّاً ، وتلقائياً وإنما كان ضمن خطة دقيقة ، ومدروسة ، وضعت بعناية فائقة ، كما توضحه لنا النصوص المتقدمة . وظهر أيضاً : كيف أن العباسيين قد حرصوا كل الحرص على ربط الثورة بأهل البيت عليهم السلام ، وكانوا يعتمدون على هذا الربط كل الاعتماد ، ويصرون ، ويؤكدون عليه ، كلما سنحت لهم الفرصة ، وواتاهم الظرف ، حتى عندما وصلوا إلى الحكم ، وفازوا بالسلطان . وقد انقاد الناس لهم فى البداية ، واستقامت لهم الأمور ، ظناً منهم بحسن نيتهم ، وسلامة طويتهم ولكن ماذا كانت النتيجة بعد ذلك ، بالنسبة للناس عامة ، وبشكل خاص بالنسبة للعلويين ، الذين قامت الثورة باسمهم ونجحت بفضلهم؟! وماذا كان نصيبهم ، ومصيرهم ، من هذه الثورة ومعها؟!

نادى العباسيون فى الفترة الأخرى بأن حقهم فى الخلافة يرجع إلى وصية أبى هاشم ، وهذا يعنى أن العباسيين قد ورثوا حقهم فى الخلافة من الفرع الحنفى بصفة شرعية ، ولكنهم ما لبثوا أن تناسوا روابطهم بأبى هاشم

ومنظمتة السرية، وبدأوا يؤكدون بأن حقهم فى الخلافة إنما يرجع إلى العباس بن عبدالمطلب لذا فإن العباسيين قد أعلنوا قصة التنارل أولا، وبعد أن أمنوا جانب العلويين وقضوا على ثوراتهم المتمثلة بخروج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم نراهم يعدلون عن هذا الادعاء ويعلنون للملا بأن حقهم فى الخلافة يرجع إلى جدتهم العباس عن النبى ﷺ ووارثه كما يقولون. ولقد أكثر الكتاب المحدثون - والمعاصرون منهم بخاصة - من الحديث حول تأكيد أساس قيام الدولة العباسية على أنها القرابة من رسول الله ﷺ أو الوراثة أو الوصية، أو ما إلى ذلك مما هو منشور فى بطون الكتب والمؤلفات، كما أن العلويين أيضاً قد تشبثوا بقرابتهم من رسول الله ﷺ، وبهذا يولون وجوهم شطر المراسلات التى تمت بين محمد النفس الزكية وأبى جعفر المنصور. إذا فأساس قيام الدولة العباسية ليس فيه نص ولا وصية ولا قرابة ولا شىء من هذا. إنما الموضوع ببساطة هو أن العراك السياسى الذى نشب بين الأمويين والعلويين تمخض عنه قتلى وجرحى، ثم تخلف عن هذه كلوم «جروح» وثرات قاربت بين البيتين العلوى والعباسى، فتعاهدوا على العمل سوياً من أجل إسقاط الحكم الأموى. ثم كانت بوادر سقوط الدولة الأموية قد بدأت تلوح فى الأفق فى المشرق الإسلامى فى عهد مروان بن محمد حينما آل ملك بنى أمية إلى الاضطراب هنا انعقد مؤتمر مكة كما يقول الطبرى والأصفهانى وابن الطقطقى وابن الأثير وسيدءمير على وغيرهم، واتخذت قرارات معينة كان من أهمها إسناد الأمر بعد الأمويين إلى محمد بن عبدالله «النفس الزكية». حيث وقع عليه الاختيار من قبل المؤتمرين الذين كان من بينهم من العباسيين، إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور، نظراً لقناعة الجميع بأحقية الخلافة⁽¹⁾.

1 - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص76.

أحسن العباسيون اختيار الأنصار، وانتهاز الفرص، وتوقيت الحركة، وتم التمهيد للدعوة بحكمة وحذر وصبر اختلفت في سبيلها فئات مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة هي محاولة إسقاط الخلافة الأموية بأية وسيلة كانت، وقد انتهى أمر الدعوة بسقوط الأمويين، وإعلان أبي العباس السفاح خليفة من على منبر المسجد الجامع بالكوفة عام 132هـ الموافق 749م. لهذا نجح العباسيون في إقامة دولة تزعموها زمنًا يزيد عن خمسة قرون من عام 132هـ الموافق 749م - عام 656هـ الموافق 1258م. ولا شك بأن الأسلوب الذي انتهجه العباسيون في إقامة دولتهم يختلف تمامًا عن الأسلوب المتبع في الدولة الإسلامية سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو في عهد الدولة الأموية، لأن هذا قام أول ما قام على العلنية الكاملة، والوضوح التام، والابتعاد الكلى عن الغموض والإبهام والرمزية، كل هذه الخصائص التي قام عليها نظام الإسلام في الحكم والسياسة العامة للدولة لم يراع بدقة قيام الدولة العباسية، بل أكثر من هذا، وجدنا العلويين يعلنون خلع العباسيين في عهد المنصور، ويعتبرون العباسيين مغتصبين لحقهم الذي اتفقوا عليه في مؤتمر الحجاز في مكة، وقيل في كل من مكة والمدينة، أو الأبواء بينهما. وغنى عن البيان أن القدوة الحسنة في قيام الدول الإسلامية ونظامها وسلوك رؤسائها وحكوماتها فيها إنما هو رسول الله ﷺ، فكان الأجدد بخلفائه وبنى عمومته أن يترسموا سته في ذلك، وأن لا يخرجوا عنها مهما بلغ بهم الغرض والإنفعال. فهل صنع العباسيون ذلك سواء في وسائلهم لإسقاط الحكم الأموي؟ إن في أسلوبهم في أخذ البيعة لأنفسهم منذ أول خليفة منهم، بل وقبل ذلك إبان الدعوة السرية لا يدل على ذلك.

إن هذه الألوان من التوسل إلى إزاحة الآخرين عن الحكم والاستيلاء عليه لم تعرف قبل العباسيين. كما أن الطابع الذي اتصفت به الدولة العباسية

فى الدعوة إليها وقيامها وانفردت به عن سائر العصور الإسلامية السابقة عليها جعل حكمها للعالم الإسلامى يتخذ أسلوباً يتفق مع أسلوب الدعوة إليها وقيامها، وهذا بحد ذاته يعتبر من أهم ملامح الحكم العباسى إن لم يكن أخطرهما على الإطلاق، ولعله أيضاً كان من أهم الأسباب التى جعلت العناصر المشرقية وغيرها تتسلل ببساطة إلى الدولة العباسية، لأن تلك العناصر - أو بعضها على الأقل - تعتقد أن لها يداً فى نشر دعوتها، وأسلوب قيامها بل وبقائها فى الحكم أيضاً ضد المعارضين لها وهم جماهير من العرب وفى مقدمتهم العلويين والخوراج⁽¹⁾.

ومهما يكن من شىء فإن قيام الدولة فى بنى العباس واستقلالهم بالخلافة كان نذيراً بصراع جبار بين العلويين والعباسيين، كما أن التخلص من ابن مسلم الخراسانى قد أسهم بقدر كبير فى ثورات المشاركة وأشباعهم فى خراسان وغيرها، وكان ذلك من معاول الهدم والفناء فى جسم الدولة العباسية على المدى الطويل، عندما اضطرت إلى الاستعانة بالعديد من العناصر الأخرى الفارسية منها والتركى، وأهملت شأن العرب بعض الشىء. من كل هذا لم يكن هذا الحكم متقبلاً من بعض فئات المجتمع الإسلامى، والعربى منه بخاصة، والعلوى منه بشكل أخص، ذلك أن العلويين قد كان لهم دور بارز فى مناوأة الأمويين منذ أن قامت دولتهم، فأثاروا الكثير من المشاكل فى وجه الدولة الأموية، وقاموا بثورات عديدة طيلة الحكم الأموى، وكانوا أحد العوامل الرئيسية فى إضعاف الحكم الأموى، وبالتالي تقويض هذا الحكم، إذ عمل الهاشميون جميعاً وبكل ما يستطيعون فى محاولة للقضاء على الدولة الأموية، واتخذوا شعاراً هو «الرضا من آل محمد». والواقع أن بداية الصراع بين العلويين والعباسيين هو فى الحقيقة بداية قيام الدولة العباسية

١ - عبد العزيز اللعيلم - نفس المرجع ص 77.

ذلك أن العلويين والعباسيين كانوا متورين بصفة شخصية من الحكم الأموي لأسباب بسيطة تتلخص في اضطهاد الأفراد من العلويين، والتنافس على الحكم بين البيتين الهاشمي والأموي.

وعندما تفاقم التشيع في العصر الأموي كافحه الأمويون، وعملوا جاهدين على الإجهاز عليه باعتباره دعوة إلى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، ودونما مبرر معقول، وكان هذا من أسباب إيقاع الجفوة بين الهاشميين والأمويين، والطلالبيين منهم بوجه خاص، وكان كل ذلك دافعاً للبيت الهاشمي إلى أن يفكر جدياً في التخلص من الحكم الأموي. ففي أواخر خلافة مروان بن محمد أحس الهاشميون أن دعوتهم ضد الحكم الأموي قد نجحت، وأنهم قاربوا الانتهاء من الإجهاز على الأمويين، فانعقد مؤتمرهم الذي اتفق فيه الجميع على أن يسند الأمر إلى واحد من الهاشميين هو «النفس الزكية» ليكون الخليفة الأول منهم، وكان من بين الحضور إبراهيم الإمام، وعبد الله بن علي، وصالح بن علي، وأبو العباس عبد الله بن محمد، وأبو جعفر عبد الله بن محمد من الجانب العباسي، وجعفر الصادق وعبد الله المحض والنفس الزكية محمد بن عبد الله وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن من الجانب العلوي، وكان ذلك فيما يقال عام 127هـ الموافق سنة 744م. وفي عام 132هـ فوجئ الناس بأبي العباس السفاح خليفة وقيام حكم جديد، ويبادر الناس إلى بيعته، ولا يذكر شيء عن مؤتمر مكة، ولا عن بيعه النفس الزكية، بل أكثر من هذا لا يستدعي أحد من العلويين في ذلك الوقت ليكون إلى جانب السفاح. قد يقال: إن المسألة لا تزال في بدايتها، وأن العباسيين من أبناء علي بن عبد الله العباسي وأحفاده كانوا مشغولين بمكافحة الأمويين وشيعتهم، إذ ظلوا في صراع دموي طيلة عهد السفاح تقريباً، فلم يكن ثمة مجال لاستدعاء بعض العلويين، أو الاستعانة بهم في شيء، ولكن الذي

حدث فى الواقع يدل دلالة قاطعة على أنه كان ثمة تدبير لإبعاد العلويين مما اعتبره العلويون اغتصاباً لحقوق أقرها مؤتمر مكة والمدينة .

ويقول البعض فى هذا: كانت البيعة لأبى العباس مفاجأة غريبة دون شك للغلاة من العلويين، كما كانت موضع اشمئزاز ونفرة لدى آل على أنفسهم لأن الطامحين منهم اعتبروها خدعة ويشير البعض الآخر إلى أن العباسيين ما إن تسلموا السلطة حتى بدأوا ينظرون إلى العلويين نظرة شك باعتبارهم المنافسين لهم على الخلافة، ومصدر خطر على النظام الجديد. أما العلويون فقد نظروا إلى العباسيين كمغتصبين مبتزين للسلطة من أصحابها الشرعيين . وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة، حيث أصبح نزاعاً بين الهاشميين⁽¹⁾.

يكاد يجمع المؤرخون على تبرير خروج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم على المنصور بأنه المطالبة بحقوقهما وحق العلويين الذى اغتصبه العباسيون، وذلك بمقتضى قرارات المؤتمر الهاشمى، فهى كما ورد فى المراسلات بين النفس الزكية والمنصور، والتى نقلها بعض المؤرخين، يزعمون أنهم موصى إليهم بالخلافة، وأنهم بصفتهم من بنى على مقدمون على من سواهم، ولهذا فإنهم بخروجهم هذا إنما يطلبون حقاً مفروضاً إذا فلا مناص من أن يرد العباسيون ما سلبوه من العلويين وهو الخلافة فإن لم يفعلوا فلا بد من استعمال القوة لاستعادة ذلك الحق. غير أن الذى يقرأ رد المنصور يشهد نفيًا قاطعاً لحق العلويين، ويرى أنهم بتلك المطالبة إنما يتجنون على الحقيقة، ويتجنون على أنفسهم وعلى الأمة الإسلامية، إذ يعملون على إراقة الدماء فى سبيل وهم تصوره، أو خيال جسموه، أما الحقيقة فهى كما قال شاعرهم:

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 79 وانظر: مصطفى/ شاكرا: دولة بنى العباس .
ج 1 ص 214. فارق عمر: بحوث فى التاريخ العباسى ص 93.

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثه الأعمام

ولتترك لبعض المؤرخين الحديث عن العوامل التى دفعت بمحمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن إلى هذا الموقف المتشدد، وهو حديث إبان العهد الأموى أن اجتمع الهاشميون واتفقوا على العمل سويًا للإطاحة بالحكم الأموى لأسباب وعوامل ترجع إلى استشهاد واضطهاد كثير من العلويين، ثم قاموا جميعًا بضم الأعوان والأنصار، ويختارون الإمام المناسب الذى سوف يرضى عنه الجميع من العرب والعجم، ويكون على يديه الخير والبركة. إضافة إلى ظلم وجور الحكام الأمويين بما نجم عنه من قتل الإمام الحسين عليه السلام سبط الرسول محمد ﷺ وغيره من شيعتهم، وأن كثيرًا من رجالات الدول التى فتحت وضمت إلى الخلافة الإسلامية قد أبعادوا عن المناصب القيادية فى السياسة والإدارة، وسائر مرافق الدولة المهمة. وقد تزعم أبو مسلم الخراسانى أخيرًا الدعوة للرضا من آل محمد فى خراسان وما جاورها بعد أن مهد له الدعاة السابقون جميع السبل سواء فى خراسان أم فى الكوفة، فقد كانت الأمور غامضة والدعوة مبهمة قبل أبى مسلم، إذ استجاب الكثير من سكان خراسان وهم لا يعرفون من هو الرضا، وكان الدافع بالطبع هو الظلم والاضطهاد من الدولة الأموية التى لم تتح لهم الفرصة لتولى المناصب القيادية، وكانوا يرون بأن الدولة تنظر إليه على أنهم أقل مكانة من العرب، ولا يمكن بحال من الأحوال مساواتهم بهم. وعلى أية حال، فإن الدعاة نجحوا فى دعايتهم ضد الحكم الأموى، ولكن ليس من الحق أن يقال أن دعوتهم أو دعايتهم كانت لأنهم أصحاب حق مقدس، وأوصياء وورثة للنبي ﷺ، وكذلك عن موقف الدولة الأموية من الموالى، واعتبارهم طبقة أقل بكثير من العرب، وليس لهم حق مساواتهم بغيرهم من العرب كل هذا دفع بالهاشميين وفئات أخرى من الأمة الإسلامية خاصة المشاركة منهم إلى الوقوف صفًا واحدًا فى وجه الدولة الأموية.

وبعد أن نجح الدعاة فى محاولة لإسقاط الحكم الأموى بعد أن استفادوا من النزاع القبلى بين الحجازية واليمانية فى خراسان برزت نذر التدهور للأمويين، وأخطر الهاشميون بنجاح الموقف بما قام به أبو مسلم الخراسانى فى خراسان وفى مرو خاصة من السيطرة على الموقف رغم وجسود القوة والنفوذ فى أيدي الولاة الأمويين هناك نعم⁽¹⁾.

ويقول ابن الأثير: إن المنصور كان ممن بايعه النفس الزكية ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد أما الأصفهاني فيقول: بايع أبو جعفر للنفس الزكية مرتين، إحداهما فى المدينة المنورة، والأخرى فى مكة المكرمة فى المسجد الحرام، فلما بايعه قام معه حتى خرج من المسجد الحرام فأمسك له أبو جعفر بركاب دابته ثم قال له: يا أبا عبد الله أما إنه أفضى إليك هذا الأمر نسيت هذا الموقف ولم تعرفه لى ويقول فى موضع آخر: إن نقرأ من بنى هاشم اجتمعوا «بالإبواء» من طريق مكة فيهم إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وصالح بن على وعبد الله بن الحسن وابناه محمد وإبراهيم وغيرهم، فقال لهم صالح بن على: إنكم القوم الذين تمتد أعين الناس إليهم، فقد جمعكم الله فى هذا الموضع، فاجتمعوا على تبعية أحدكم، فقال أبو جعفر:

لأى شىء تخذعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى، يعنى النفس الزكية محمد بن عبد الله، قالوا: والله صدقت إنا لنعلم هذا، فبايعوا جميعاً محمداً وبايعه إبراهيم الإمام والسفاح والمنصور وسائر من حضر، فذلك الذى أغرى القوم لمحمد بالبيعة التى كانت فى أعناقهم كما يشير فى موضع ثالث إلى أن أبا

١ - عبد العزيز اللعيلم - نفس المرجع وانظر: تاريخ الرسل والملوك ج7 ص517، البلاذرى/ أنساب الأشراف (مخطوط ص608ب).

جعفر كان ينتظر النفس الزكية، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب دابته، ثم سوى ثيابه على السرج، ومضى محمد، فقبل له: «من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركاب دابته، وسويت عليه ثيابه؟ فقال: هذا محمد بن عبدالله، مهدينا آل البيت. أما الطبرى فقد أشار هو الآخر فى مناسبة أخرى حول هذا الموضوع قائلا: حينما قبض المنصور على عثمان بن خالد اليزيدى قال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج على أمير المؤمنين والمعين عليه؟ فقال عثمان: بايعت أنا وأنت رجلا بمكة، فوفيت ببيعتى، وغدرت ببيعتك، فأمر المنصور به فضربت عنقه. أما الأزدي فقد قال عن ذلك أيضاً: لما أدخل عثمان بن محمد بن خالد اليزيدى على المنصور، قال له: أين المال؟ قال: دفعته إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه، قال: ومن أمير المؤمنين؟ قال: محمد بن عبد الله، قال: بايعته؟ قال: نعم كما بايعته أنت، قال: يا ابن اللخناء، قال: ذلك من قامت عنه الإمام يقصد بذلك المنصور لأن أمه كانت أمة ولم تكن عربية، قال لله فأمر بضرب عنقه. ثم أتى المنصور بكل من: مطر الوراق ويشير الرجال، فقال المنصور لبشير: أنت القائل: إني لأجد فى قلبى حرّاً لا يذهب، إلا عدل أو حد سنان؟ قال: أنا ذاك، قال: والله لأذيقنك حد سنان يشيب رأسك، قال: إذا أصبر صبراً يذل سلطانك، قال: وتتراجل عند الموت قال: هو ما ترى وتسمع، قال: مدوا يده، فقبضها بشير، فقال له المنصور هذا خلاف ما يظهر من كلامك، قال: لا، ولكنى لا أعينك على معاصى الله، فمدوا يده فقطعها، ثم مدوا يده الأخرى فقطعها، قال: فما قطب ولا عبس ولا تحلحل. ثم قدم مطر الوراق، فقال المنصور: يا مطر، نسيت الحرمة وطول الصحبة؟ قال: نسيناها بنسيانك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتضييعك أمور المسلمين، قال: فتخرج على مع من لم تأنس منه رشداً؟، فهذا خلاف مذهبك، قال: لو خرج عليك الذر - وهو أضعف

الخلق - لخرجت معهم حتى أؤدى ما افترض الله على فيك، قال: يا ابن حسنة الزانية، قال: إنك تعلم أنها خير من سلامة سلامة: هي أم المنصور ولولا أنه قبيح بذي الشيب السفه لأعلمتك ما تكره ولا تطيق رده، قال: خذوه، قال: إن بعد موقفك هذا موقفاً، وإن بعد أخذتك هذه أخذة، فانظر لمن تكون العاقبة، فجزع المنصور من قوله جزعاً شديداً أظهر فيه ثم قتله⁽¹⁾.

وبالرغم مما قيل حول هذا الموضوع بالنسبة لنزول هؤلاء والخليفة إلى المنايزة، بالالفاظ التى لا تليق بمقام هؤلاء إلا أنها تعطينا صورة واضحة عن وجهة نظر هؤلاء تجاه خلافة آل العباس وموقفهم وحبهم المتشدد من العلويين من «آل البيت» أما ابن طباطبا فيقول فى معرض حديثه عن هذا الموضوع:

اجتمع بنو هاشم فى ذيل دولة بنى أمية، وتذكروا حالهم، وما هم عليه من الاضطهاد، وما قد آل إليه أمر بنى أمية من الاضطراب، وميل الناس إليها، ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة، واتفقوا على أن يدعوا الناس سرّاً، ثم قالوا: لا بد لنا من رئيس نبايعة، فاتفقوا على مبايعة محمد النفس الزكية، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم، فحضره من أعيان الطالبيين: الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، وابناه محمد وإبراهيم قتيل باخمري، وجماعة من الطالبيين. ومن أعيان العباسيين، السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس، فاتفق الجميع على مبايعة محمد النفس الزكية، إلا الإمام جعفر الصادق عليه السلام فإنه قال لأبيه عبد الله المحض: إن ابنك لا ينالها، يعنى الخلافة، ولن ينالها إلا صاحب القباء الأصفر، يعنى المنصور، ثم ضرب الدهر ضربه، انتقل الملك إلى بنى العباس أما سيد أمير على فقد أشار إلى ذلك قائلاً:

1 - عبد العزيز اللملم - نفس المرجع ص 83.

«لما رأى آل البيت أن الخلافة الأموية قد بدأت تتردى فى دركات التدهور والانحلال عقدوا اجتماعاً خطيراً فى المدينة لبحث مصير الإمبراطورية العربية، وكان من جملة الحاضرين المنصور نفسه ومعظم رجال البيت الهاشمى، وقد أجمع هؤلاء على مبايعة محمد النفس الزكية، وبهذا فإن المنصور قد عاهد محمداً على الطاعة والولاء.

كل هذه الأنباء التى تواترت فى عدد من كتب التاريخ تؤيد حقيقة هذه البيعة التى تمت فى مؤتمر مكة والمدينة لمحمد النفس الزكية، وأقر بها العديد من العباسيين، ومن بينهم أبو جعفر نفسه الذى كان له موقف مميز من النفس الزكية وأخيه إبراهيم بعد أن تولى الخلافة.

فإذا كان الأمر كذلك فالمنصور قد نكث العهد الذى قطعه على نفسه وهو المبايعة للنفس الزكية قبل أن تقوم للعباسيين دولة وهذه المعلومات للتدليل على صحة عقد ذلك الاجتماع وتفنيد الآراء التى أنكرت وجود مثل ذلك الاجتماع وقبل هزيمة مروان بن محمد وقتله على أيدي بنى العباس.

جئى بأبى العباس السفاح، وجلس على أريكة الخلافة العباسية فى الكوفة التى أعلن فيها قيام الخلافة العباسية، والتى كانت من قبل عاصمة للخلافة الإسلامية فى عهد الإمام على بن أبى طالب عليه السلام إلا أن صخب المعركة وعنّف المقاومة التى استعرت بشكل جنونى بين شيعة الأمويين ومعظمهم من العرب، وشيعة الحكم الجديد وهو العباسيون جعلوا العلويين يأخذون حذرهم، ويستعدون للموقف من جديد، فقد وضع أمام أعينهم كيف لم يفكر العباسيون فى القرار الذى أجمعوا عليه، ومن ثم فقد أعرض العلويون عن العباسيين وأشاحوا بوجوههم عن البيعة لهم، فلم يعرف أن النفس الزكية أو أخاه إبراهيم - على الأقل - قد بايعا للسفاح ولا لأبى جعفر. ويشير البعض إلى أن الحلف العباسى العلوى الذى كان قائماً زمن بنى أمية انفرط

بمجرد استلام العباسيين الخلافة، فقد أحس العلويون مرارة الخيبة وذاقوا طعم الخذلان. ولذلك لجأوا إلى الثورة والمعارضة، وقد رافق العمل العسكرى ودعمه جدل نظرى مهمته أحقية العلويين من آل البيت بالخلافة دون بنى العباس ولقد رد العباسيون التحية بأحسن منها، وحاولوا دون حقهم فى الخلافة عسكرياً ونظرياً، وفى أحقية العباس فى الخلافة ووراثه رسول الله ﷺ دون «آل البيت»، ويبدو ذلك فى مراسلات المنصور والنفس الزكية⁽¹⁾.

أما سيد أمير على فقد تهكم على الوضع الذى انتهت إليه تلك الأمور إذ يقول:

«وهكذا ارتقى العباسيون إلى السلطة على أكتاف العلويين، الذين جوزوا فيما بعد جزاء سنمار، ذلك أن الطمع فى السلطة الدنيوى هو أسوأ أنواع الطمع، فقد جلب على الإنسانية من الكوارث ما هو أنكى وأشد مما جلبته أية نزوة من نزوات النفس البشرية، ثم إن صاحب الطمع لا يتورع عن التذرع بأية وسيلة للوصول إلى مأربه، فهو يتذرع بالفضيلة والريضة على حد سواء ليدارى بالأولى نيته، ويحقق بالثانية غايته ويقول آخر: لقد شعر العباسيون بأنهم حديثو عهد بدولة، وأنهم فى حاجة إلى الشدة والقسوة لتدعيم ملكهم، فقسوا على العلويين بأكثر مما قسا الأمويون، ثم كانوا أعرف بالعلويين وأساليهم يوم أن خالطوهم وحالفوهم للعمل ضد الأمويين، فكانوا أقدر على تتبعهم، ومعرفة مكائدهم، ومنازلتهم بمثل أساليبهم، وانكشف الأمر عن معسكرين آخرين كلاهما من بنى هاشم، العلويون والعباسيون، الأولون يدلون بعلى بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة، والآخرين يدون بجدهم العباس عن النبى ﷺ، وبهذا احتدم القتال بينهم سرّاً

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 85 وانظر: حمادة / محمد ماهر/ الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسى الأول ص 13.

وجهرًا، وعادت المسألة سيرتها الأولى بل أشد، ورأوا أن نار الأمويين كانت جنة إذا قيست بنار العباسيين ولكن ياترى هل رضى العلويون، وطابت نفوسهم لما حدث؟ وهل اطمأنوا لحظة واحدة إلى الوضع الجديد الذى استقرت عليه الأمور؟ الواقع يستبعد هذا، فالدعوة لم تكن فى مفهوم العلويين إلا أنها لواحد منهم، وكثير من أنصار الدعوة السرية كانوا يتفقون مع العلويين فى هذا المفهوم، ولعل موقف أبى سلمة الخلال الإيجابى من تولية العلويين، ومحاولة المبايعة لهم يقرب هذا المفهوم.

من هنا أدرك العلويون بأن العباسيين قد خدعوه، واستأثروا بالحكم دونهم، فهل سكت العلويون على هذا، وتركوا للعباسيين التصرف فى شئون الدولة الجديدة، وذلك بترك الحبل لهم على الغارب؟ لقد أثبتت الأيام عكس ذلك إذ رفض زعماء العلويين ذلك جملة وتفصيلا واستمر هذا الرفض فترة طويلة من حكم الدولة العباسية، ولعل ما أشار إليه مؤرخ معاصر حول هذا الموضوع يعطى تلك الدلالة إذ يقول⁽¹⁾:

وهذا نظر الشيعة إلى العباسيين نظرتهم إلى مغتصبين، وسلوا السيوف لقتالهم وكما حدث فى أحيان كثيرة خلال التاريخ الإسلامى خسر الشيعة المعركة، ولكنهم لم يخسروا الحرب، وظلت النقمة الشيعية دملا مقيحًا فى جسم السياسة العباسية ويقول آخر: وقد ظل العلويون يقدمون العباسيين سرًا وجهرًا، وظل أتباعهم يزدادون، والعباسيون يرصدونهم جميعًا، فمن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة زج فى السجون أو قتل.

1 - عبد العزيز اللميلم - نفس المرجع ص 87 وانظر: روح الإسلام ج2 ص 189. أمين/ أحمد: ضحى الإسلام ج3 ص 281.

خراسان والدعوة الشيعية العباسية،

لاشك بأن الدعوة للرضا من آل محمد هي فى الواقع دعوة يغلب عليها الغموض والتعمية، ولعل الدافع إلى اللجوء إلى تسميتها بهذا الاسم إنما قصد به أن يعتقد العلويون بأن تلك الدعوة إنما هي باسمهم ومن أجلهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، هو كسب مزيد من الأعوان والأتباع الذين يدينون بالولاء للعلويين سواء من العرب أو من غيرهم، وذلك للانضمام إلى تلك الدعوة. ومن ناحية ثالثة، هو صرف أنظار الأمويين عن العباسيين، والاعتقاد بأن من قام بهذا الأمر إنما هم العلويون، أما ما يحدث بعد ذلك - أى بعد إسقاط الدولة الأموية إن قدر لهم ذلك - فأمر تقرره الظروف، ويكون للحيلة والحذر والذكاء الدور الأكبر فى تحقيق النصر، والاستحواذ على السلطة، وهذا هو ما أثبتته الأيام اللاحقة بعدما تمكن العباسيون من إقامة دولتهم. ويحسن أن أورد نصاً أشار إليه صاحب كتاب «منتخبات التواريخ لدمشق» إذ يقول فى معرض حديثه عن الدعوة⁽¹⁾:

«لم تكن الدعوة فى مبدئها مقصوداً بها بنو العباس بخصوصهم، وإنما كانت معمة، وعلى وجه عمومى للأصلح من بنى هاشم، لتذهب كل نفس مذهبها، وتتبع هواها فى اختيار من توده، واصطفاء من تشيع له، والأمر دائر بين أبناء الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، وأبناء العباس بن عبد المطلب، والكل راج لها، والأمة على وجه عمومى مبتهجة بملكة أحدهما، ما عدا أقواماً قليلى العدد تغالوا فى التعصب والتشيع لأحد الفريقين، وأكثرهم غلواً شيعة آل على بالعراق، وهذا المسلك الذى سلكه أهل الدعوة من التعمية، وعدم تعيين المدعو له من المسالك العريقة فى الدهاء، والتبصر بعواقب الأمور، ومن المنازع المؤثرة فى استجلاب الكافة، لأن الإبهام يحمل الجميع

1 - عبد العزيز الميلم ص 59 انظر روح المذهب 301/3.

على تعلق كل نفس بما تريد وذهابها إلى مشتتهاها، حتى إذا استحكم النفور في قلوب الناس، وشموا ملك الدولة الأموية، واستثقلوا ظلها، واستويأوا مرعاها، بسبب أعمال خلفائها العاجزين، وبسبب ما يلقيه أولئك الدعاة في قلوب العامة من موجبات التنفير والشقاق في عين المدعو له، والنفوس متعطشة إلى الجديد، فتجمع القلوب عليه، وإن شذ أحد فبحيث لا ينفع ولا يضر.

عند نهاية الأسرة الأموية كانت النفوس مضطربة. ويلزم لفهم هذه الحالة بصفة عامة دراسة تفصيلية دقيقة. ويحتمل أن حالة البلاد كانت كما صورها أحد المعاصرين كالآتي: فالكوفة شيعية علوية، وبلاد الشام مروانية وهي لا تتفق مع الهاشمية، أما النفوس المطمئنة فلا توجد إلا في خراسان، حيث الصدور السليمة والقلوب الفارغة التي لم تقسمها الأهواء والتي كانت تشعر بالظلم وتنتظر الخلاص. فمنذ عهد عمر بن عبد العزيز، عندما ظهرت مشكلة الدخول في الإسلام والجزية بشكل شائك، بدأت ولايات المشرق الإسلامي في الخروج عن بلاد الشام. والحقيقة أن عصيان أهل البلاد يعود إلى السياسة الأموية - وقد أشرنا إلى ذلك - التي لا تعرف، كما كان الحال بالنسبة للسياسة العباسية، فكرة الدولة الإسلامية بل تهدف إلى سيادة الأمة العربية، عن طريق الجهاد والغنائم ولقد نتج عن ذلك تضارب بين السياسة المالية والسياسة الدينية. وتساءل الولاة هل تؤخذ الجزية ممن أسلم من أهل البلاد أم لا تؤخذ وكان من سياسة عمر بن عبد العزيز عدم أخذ الجزية ممن أسلم، ونجح عماله في نشر الإسلام. في مثل هذه الظروف كانت الحركة المعادية للدولة الأموية لها فرص كبيرة للنجاح. ومع أن الطبري يقول أن الدعوة الشيعية بدأت في خراسان أيام عمر بن عبد العزيز إلا أن الحارث سميج لم يرفع الراية السوداء إلا في عام 116هـ / 734م. وذلك باسم العودة

إلى كتاب الله وسنة رسوله والوعد برعاية أهل الذمة، وألا تؤخذ الجزية من المسلمين، وألا يضر أحدا من الناس. وكان مثل هذا البرنامج جديراً بأن يجمع حوله المسلمين الجدد خاصة وكذلك غير المسلمين⁽¹⁾.

وفي أول الأمر لم تتصف الحركة بعد أوتها للأمويين بل لقد قبل الحارث اقتراح والي خراسان «عاصم بن عبدالله الهلالي» بأن يرسل مبعوثين إلى الخليفة هشام يطلبان منه اتباع السنن التي كان يعمل لها، وأن يكتفيا بذلك إذا أجيب مطلبهما. وكان رد الخليفة على ذلك هو عزل عاصم، وعودة أسد بن عبدالله واليا من جديد (من عام 117 - 121هـ / 735 - 738م). وعقب عودة أسد مباشرة أمر بقتل الدعاة العباسيين وحارب الحارث من جديد. وبعد أسد استمر نصر بن سيار (من عام 121 - 131هـ / 738 - 748م) في الحكم بنفس النشاط (اشترك نصر في حملة قتيبة عام 86هـ / 705م)، وكان مسما يسمى «شيخ المضرية» أي عرب الحجاز. وأعادت انتصارات نصر فيما وراء النهر للعرب ذكرى قتيبة، كما نجح في أول الأمر في حل المشاكل الداخلية. فعمل على تحويل الضرائب (الجزية) من المسلمين إلى غير المسلمين ورغم ما يقوله الطبري من أن خراسان بلغت الذروة في الرخاء، على عهد نصر، فإن هذا أمر غير محتمل. فلم يستطع نصر إيقاف العداء بين الحزبين العربيين المتنازعين من الحجازية واليمينية. إذ لما كان نصر حجازيا على عكس من سبقه وهو أسد اليمنى، فإنه يتخذ جانب الحجازية أول الأمر ويعين منهم العمال، ولو أنه عاد وحاول أخيراً إرضاء اليمينية كذلك. ورغم هذا فإنه لم يستطع منع قيام ثورة يمنية (عام 126هـ / 744م) قام بها جديع بن علي الكرمانى الذى كان قد حكم خراسان لفترة قصيرة عقب موت أسد، ولكن هذه الثورة كانت أقل خطورة من ثورة الحارث (ابن سريج). وفي نفس العام

1 - د. سعد زغلول - تاريخ الدولة العباسية ص 33.

(126هـ / 744م) حصل نصر على عفو من الخليفة عن الحارث واتباعه وطلب منه العودة إلى خراسان، وكان حيثثذ فيما وراء النهر متحالفا مع الترك. وعاد الحارث إلى خراسان (مرو) ووقف موقف الحكم بين نصر والكرمانى، ولكنه عاد ورفع الراية السوداء من جديد. واضطر الحارث إلى مقاتلة الكرمانى فى أول الأمر ولكنه قتل فى ربيع عام 128هـ / 746م. وكان من الممكن لنصر الانتصار على كل أعداء الأمويين وخاصة بعد التخلص من منافسه الخطير، إذ أن داعية العباسيين «أبومسلم» لم يكن خطيراً فى ذلك الحين⁽¹⁾.

لقد كان العباسيون موفقين غاية التوفيق حين اتخذوا من خراسان التى كانت تقع فى الجانب الشرقى للدولة الأموية، مركزاً رئيسياً لدعوتهم. هذا الاختيار الدقيق لذلك الإقليم بالذات كان الضمان الأكيد لنجاح دعوتهم، ومن ثم قيام دولتهم وظهورها على المسرح الدولى آنذاك. فخراسان كانت ملأى بالموالى المظلومين من البيت الأموى، والمعادين له، والعاملين على التخلص منه، ومن نظام الحكم الأموى ذلك النظام الذى فى ظله وتحت سلطانه وسيطرته فرق فى المعاملة بين المسلمين من العرب وبين المسلمين من غيرهم - وبخاصة المشاركة - وبات واضحاً تعصب الأمويين للجنس العربى دون غيره من بقية الأجناس الأخرى التى اعتنقت الإسلام، ودخلت فيه. لهذه الأسباب كانت خراسان بالذات أنسب المواقع لبدء الهجوم على الدولة الأموية.

ومن ناحية أخرى كان بعد خراسان عن مركز الخلافة الأموية فى دمشق عاملاً هاماً من العوامل التى جاءت سيطرة وإحساس الخليفة الأموى بما يدور بها ضعيفة جداً، ومما يؤكد ذلك ويوضحه أن أبا مسلم الخراسانى حين

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 34.

استولى على «مرو» عاصمة خراسان واستنجد واليها من قبل بالخليفة الأموي مروان الثاني، ولكن جاءت استجابة الخليفة الأموي لوالى خراسان متأخرة، وذلك بعد أن كان أبو مسلم قد سيطر على الإقليم كله سيطرة تامة وكاملة وبعد أن كان سيف العباسيين قد قوى وتمكن من فرض سيطرته على الإقليم. ومن خراسان كانت الانطلاقة الأولى لبداية قيام الدولة العباسية ونفوذ بنى العباس⁽¹⁾.

اتخذت الدعوة في كل من الكوفة وخراسان مقراً لها ذلك أن الكوفة قد عرفت بولائها التام لآل البيت، إذ كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام الخليفة الرابع الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، كما أراد لها الأئمة أن تكون حلقة الاتصال فيما بينهم وبين خراسان، كما كانت في نفس الوقت مكان التقاء لكل القادمين من خراسان من الدعاة ومن الحميمة ممن يحملون الأوامر والتعليمات من الإمام أما خراسان، فقد اختيرت مقراً للدعوة لعدة اعتبارات، لعل من أهمها:

- 1 - بعدها عن مركز السلطة في الشام.
- 2 - موقعها الاستراتيجى المهم.
- 3 - كثرة الأنصار والأعوان لآل البيت.
- 4 - وجود عدد كبير من الناقمين من الفرس والأتراك على الدولة الأموية.
- 5 - النزاع القبلى الذى كان على أشده في تلك الفترة بين الحجازيين واليمنيين، والذى استفاد منه الدعاة، وبخاصة أبو مسلم الخراسانى الذى استفاد بشكل كبير من ذلك الصراع.

1 - د. نايف السهيل - السياسة الخارجية للدولة العباسية ج 1.

6 - وربما يعود اختيار الأئمة لخراسان أيضاً هو إدراكهم للحالة التي يعيشها الإقليم في ذلك الوقت، إذ يقول محمد بن علي في وصيته لاتباعه حين اختلف الرأي حول المكان المناسب للدعوة⁽¹⁾:

«أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول: كن عبدالله المقتول، ولا تكن عبدالله القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان، وطاعة بنى مروان، عداوة لنا راسخة، وجهلا متراكماً. ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وصدوراً سليمة وقلوباً فارغة، لم تنقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم تشغلها ديانة، ولم يتقدم فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب، ولا فيهم كتحارب الأتباع بالسادات، وكتحالف القبائل، وعصبية العشائر، ولم يزالوا يمتهنون ويدلون ويظلمون ويكظمون، ويتمنون الفرج، ويؤملون الدول، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب، وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة وبعد فكأنى أتفاءل إلى الشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا، ومصايح الخلق وإذا كان موقع خراسان الجغرافى له أثره الكبير فى نجاح دعوة العباسيين وقيامهم فإن موقع خراسان الجغرافى كذلك كان له أثره فى صبغ أناسها بصفات تجعلها أقدر على القتال وأقوى من غيرهم صبراً فى ميدان الوغى، وأشدّهم تدمراً وأسرعهم غضباً وحنقاً كل هذه الصفات التى أحسن العباسيون استغلالها أفضل استغلال بما يحقق لهم آمالهم المرجوة وطموحاتهم التى واجهوا من أجلها صعوبات جمة ومشاكل متعددة لا حصر لها.

1 - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص 60.

نجاح العباسيين فى الاستيلاء مع مقاليد الحكم

كان أمراً طبيعياً؛ إذا ما أخذت الحالة الاجتماعية، والظروف والملابسات آنثذ بنظر الاعتبار؛ فإن الأمة كانت مهياة نفسياً لقبول التغيير، أى تغيير. بل كانت تراه أمراً ضرورياً، لابد منه، ولا غنى عنه؛ إذا كانت تريد لنفسها الحياة الفاضلة، والعيش الكريم ولهذا، فليس من الغريب أن تقول: إنه كان بإمكان أية ثورة أن تنجح، لم أنها تهيأت لها نفس الظروف، وسارت على نفس الخط، واتبعت نفس الأساليب، التى اتبعها العباسيون فى دعوتهم، وثورتهم. ونستطيع أن نتبين أساليب العباسيين تلك فى ثلاثة عوامل الأول: «كانوا يصورون أنفسهم على أنهم ما جاءوا إلا لينقذوا الأمة مع شرور بى أمية، وظلمهم، وعسفهم، الذى لم يكن يقف عند حد من الحدود. وكانت دعوتهم تتخذ اتجاه التبشير بالخلاص، وأنهم سوف يقيمون حكماً مبدؤه العدل، والمساواة، والأمن والسلام. وقد كانت وعودهم هذه كسائر الوعود الانتخابية، التى ألفناها من سياسة العصر الحديث. بل لقد كانت الأمانى التى خلقتها الدعوة العباسية فى الجماهير مسؤولة إلى حد كبير عن ردود الفعل العنيفة، التى حدثت ضد الحكم العباسى بعد ذلك؛ حيث كان حكمهم قائماً على الطغيان المتعطش إلى سفك الدماء...».

العامل الثانى: إنهم لم يعتمدوا كثيراً على العرب، الذين كانوا يعانون من الانقسامات الداخلية الحادة، وإنما استعانوا بغير العرب، الذين كانوا فى عهد بنى أمية محتقرين، ومنبوذين، ومضطهدين، ومحرومين من أسط الحقوق المشروعة، التى منحهم إياها الإسلام حتى لقد أمر الحجاج أن لا يؤم الناس فى الكوفة إلا عربياً وقال لرجل من أهل الكوفة: لا يصلح للقضاء إلا عربى كما طرد غير العرب من البصرة، والبلاد المجاورة لها، واجتمعوا يندبون: وامحمداً وأحمداً. ولا يعرفون أين يذهبون؟! ولا عجب أن نرى

أهل البصرة يلحقون بهم، ويشتركون معهم فى نعى ما نزل بهم من حيف وظلم بل لقد قالوا: «لا يقطع الصلاة إلا: حمار، أو كلب، أو مولى..» وقد أراد معاوية أن يقتل شطراً من الموالى، عندما رآهم كثروا، فنهاء الأحنف عن ذلك وتزوج جل من الموالى بتاً من أعراب بنى سليم، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة، وواليتها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه ذلك، فأرسل الوالى إلى المولى، ففرق بينه وبين زوجته، وضربه مائتى سوط، وحلق رأسه، وحاجبه، ولحيته.. فقال محمد بن بشير فى جملة أبيات له:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الخلافة من بعيد

ولم تفشل ثورة المختار، إلا لأنه استعان فيها بغير العرب، فتفرق العرب عنه لذلك.

ويقول أبو الفرج الأصفهاني: «.. كان العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية، إذا جاء العربى من السوق، ومعه شيء، ورأى مولى، دفعه إليه، فلا يمتنع». بل كان لا يلى الحكم أحد من أبناء المولدين، الذين ولدوا من أمهات أعجميات.

وأخيراً فإن البعض يقول: إن قتل الحسين كان: «الكبيرة، التى هونت على الأمويين أن يقاوموا اندفاع المشرقين إلى الدخول فى الإسلام..»

وبعد هذا.. فإن من الطبيعى أن يبذل الموالى أرواحهم، ودماءهم وكل غالٍ ونفيس فى سبيل التخلص من حكم يعاملهم هذه المعاملة، وله فيهم هذه النظرة؛ فاعتماد الدعوة العباسية على هؤلاء كان متظراً ومتوقفاً، كما أن اندفاع هؤلاء فى نصرة الدعوة العباسية كان متوقفاً، ومتظراً أيضاً.

العامل الثالث: أنهم - أعنى العباسيين - قد حاولوا فى بادئ الأمر أن

يربطوا دعوتهم وثورتهم بأهل البيت عليهم السلام بالذات وذلك لمالها من الأهمية البالغة، بالنظر لما تركته من آثار بارزة على مدى التاريخ، ولأنها كانت الناحية التي اعتمد العباسيون عليها اعتماداً كلياً، وتعتبر السبب الرئيسى فى وصول العباسيين إلى السلطة، وحصولهم على مقاليد الحكم.

وكما هو معروف، كانت الدعوة العباسية شيعية الأصل. والحقيقة أن الدعوة الشيعية التى قامت باسم آل البيت، والتى أظهرت العلويين بمظهر الورثة الطبيعيين لخلافة النبى وجدت فى خراسان أرضاً صالحة لبذر بذورها. وكان عرب الفتوح، الذين توغلوا فى خراسان والتى تشمل فى الحقيقة كل الهضاب والمرتفعات حتى بلاد ما وراء النهر، معزولين فى هذا المشرق البعيد كما تميزوا بصفات خاصة. ولم يكن المتزوجون منهم قد تخطوا الجبال التى تحدها خراسان بل كان غير المتزوجين منهم هم الذين أتوا إلى هناك فى جماعات وتزوجوا من نساء من أهل البلاد. ويقدر بعض المؤرخين عددهم بمائتى ألف إبان عهد الثورة، وذلك بما فيهم النساء والأطفال، هذا هو أقصى عدد ممكن، كما يقول «فلهوزن» وكان الاندماج كاملاً بين السكان حتى لا يمكن التمييز فى كتب التاريخ إلا بصعوبة بين العرب المصبوغين بالصبغة الخراسانية وبين أهل البلاد الداخلين فى الإسلام وهما الذين عرفوا بالموالى والذين كانوا يحتفظون بذكرىات حضارتهم القديمة. هؤلاء كانوا يحسون بمساواتهم مثل العرب، فسيعملون فعلاً فى القرن التالى على إثبات تفوقهم الفكرى فى كل علوم العرب. ومنذ العصر الأموى كانوا يحاربون فى صفوف الجيش الإسلامى للدفاع، ضد الترك، عن بلادهم وكان الجميع يعيش فى وئام من الفاتحين العرب إلى الوطنيين الذين أسلموا إلى المزدكيين. وعلى عهد زياد بن أبيه والحجاج بدأ نفى أو تهجير العناصر العلوية التى كانت تسبب الاضطراب فى العراق إلى خراسان، وفى نفس الوقت أوقفت هجرة أهل الشام الذين لم يكونوا يشعرون بالاطمئنان هناك. ووجد العلويون - كما قلنا -

فى الأقاليم المشرقية مكانًا صالحًا لنشر أفكارهم: فالموالى من المشرق الإسلامى كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة إلى حاكم مطلق له الصفات ما سمح له من بالتحكم فى توزيع الأرزاق والذى تنتشر السعادة أو التعاسة بإرادته بين كل رعيته، كما ينتشر بها الخصب على الأرض أو الجذب. وكانت العلاقات المستمرة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة، وهما مركزا الاضطراب العلوى من جهة أخرى، سببًا فى أن يعتنق كل أهل إيران للآراء المعادية «للدولة العربية» التى كان الأمويون يحاولون تنظيمها، والتى رغم تحولها إلى ملكية وراثية فإنها ظلت محتفظة بطابعها العربى أو البدوى. هكذا شعر أهل المشرق الإسلامى أنهم أكثر تعلقًا بالمذهب العلوى أحفاد رسول الله محمد ﷺ (1).

كل هذا يفسر النجاح الذى صادفته الدعوة العلوية منذ بدء تنظيمها بالعراق وإرسال دعائها إلى خراسان. ومنذ سنة 100هـ/ 718م كان الدعاة من الشيعة يظهرن بخراسان ما بين الحين والحين بانتظام، حسب أوامر الكوفة، دون أن يعرف لحساب من يعملون! وحسبما يقوله المؤرخون العباسيون ولدت الحركة الشيعية العباسية بين حاشية أحد أبناء الإمام على ؑ، هو محمد بن الحنفية. ويرى بعض الباحثين المحدثين أن محمدًا هذا - كما الأمر بالنسبة لأبنائه - لم يكن سوى اسم يمثل مذهبًا، هو مذهب استمرار روح النبى ﷺ فى سلالة، والذى يعرف باسم الكيسانية. وإن مسألة اختيار أحد أبناء الإمام على ؑ من غير سلالة فاطمة، أى من بين أبنائه من امرأة أخرى كالحنفية لم يكن سوى مرحلة انتقال موافقة بالنسبة لادعاءات بنى العباس عم النبى ﷺ فى الخلافة حتى ليشك فلهوزن فى أنها كانت تدبيرًا ماهرًا من جانب العباسيين. وتقول هذه الرواية العباسية أن ابن محمد بن الحنفية وهو أبو

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 35.

هاشم، عهد في عام 98هـ / 717م بكل حقوقه في الخلافة إلى أحد أحفاد العباس. أما عن الشيعة، فقالوا أن أبا هاشم أوصى إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب الذي نادى به الشيعة، وهو يومئذ غلام صغير، إماماً في الكوفة على أيام مروان بن محمد. وقالوا أن روح النبي ﷺ انتقلت إليه. وبعد انهزامه سار إلى فارس، فأقام بأصفهان ثم اصطخر حيث نشر سلطانه على عربستان وفارس وكرمان ثم إنه فر إلى مرو حيث قتله أبو مسلم وحتى عام 130هـ / 747م كانت شخصية رئيس الجماعة الإسلامية الذي يدعى له (الإمام) مبهمة فدعاة العباسيين كانوا يقبلون أية مساعدة مهما كانت غريبة. فلقد نشر أحد دعاة الشيعة، وهو «الخداس» في خراسان حركة تدعو إلى إحياء المذاهب القديمة عن شيوعية النساء، وتوزيع الأرض، وهي الأفكار التي عملت لفترة ما على انتشار - مذاهب مزدك، والتي ستظهر لمرات عديدة في أرض إيران وبعد وفاة هذا المسلم الغريب الشأن عام 118هـ / 736م رأى محمد بن علي أنه من الضروري تكفيره⁽¹⁾.

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن محمداً بن علي بن عبد الله بن العباس هو العباسي الحقيقي الذي سعى لنيل الخلافة. ومن مقره «بالحميمة» أخذ ينظم الدعوة أو الدعاية تنظيمًا سرّيًا دقيقًا ويرسل الدعاة والنقباء العمال إلى الجهات الملائمة لهذه الدعوة وأهمها خراسان وهي البلاد التي تشمل كل الهضبة في المشرق الإسلامي حتى بلاد ما وراء النهر. لأن كل العناصر المعارضة للأمويين والساخطة على سياستهم قد تجمعت في هذا الإقليم بالذات. وما يدل على الاهتمام الإمام محمد بخراسان كمسرح لهذه الدعوة الجديدة وانبعث الدعاة إلى خراسان متكررين في زى أصحاب المصالح المشروعة كالتجار والباعة وأصحاب الخوانيت أو كمعلمين ومتصوفة.. إلخ.

1 - د. سعد رغلول - نفس المرجع ص 37.

وكانوا يدعون الناس فى ستر وكتمان، ولكل داعية اثنى عشر نقيباً، لكل نقيب سبعون عاملاً، والعمال يشرفون على الخلايا السرية التى تهندس بين الجماهير فى جميع الأمصار.

وكان هؤلاء الرجال فى العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف وقوة كى يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب. وكانت دعوتهم تنصب على الثورة وقلب الدولة الأموية متخذين فى ذلك الشعارات الجذابة التى تستهوى نفوس الموالى كمناداة بالمساواة التى ينص عليها الإسلام، والتنبيه على أن هذه البلد هى بلدهم قبل أن تكون للعرب مثل قول القائد قحطبة بن شبيب «يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لأبائكم» وقد حرص العباسيون على إخفاء أطماعهم فى الخلافة عن الناس، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل لشخص من البيت النبوى يعين فيما بعد، الرضى من آل محمد وعلى اعتبار أن أهل البيت هم أحق الناس بالحكم. وكان الفرس يميلون لهم لأن الإمام الحسين عليه السلام تزوج منهم بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، وكان الدعاة يبلغون أخبارهم إلى القائم بالكوفة، وهذا بدوره يبلغها إلى الإمام محمد بالحيمية. ويرجع اهتمام العباسيين بمدينة الكوفة كمركز لدعوتهم ومقر لكبير دعائهم، إلى مركزها المهم فى المواصلات. وكان الدعاة فى بعض الأحيان يكتشف أمرهم فيعذبون أو يقتلون ولاسيما فى ولاية أسد بن عبد الله القسرى الذى لقى دعاة العباسيين على يديه محنة كبرى ولم تتقدم دعوتهم إلا بعد وفاته سنة 120هـ الموافق 737م وتنبغى الإشارة هنا إلى شخصية عظيمة كان لها دور كبير فى خدمة الدعوة العباسية، وهى شخصية بكير بن ماهان داعى العباسيين بالكوفة. فلقد استطاع هذا الرجل بفضل ثرائه وغناه أن ينفق على الدعوة ويدعم أركانها. فيروى الطبرى أن بكيراً بن ماهان أعطى الإمام محمد العباسى أربعة قضبان

من فضة وآخر من ذهب كما سلمه كل ماله فأصبحت له معه صلة وثيقة .
وفى عام 125هـ الموافق 742م توفى الإمام محمد بن على بالحميمة وخلفه ابنه
إبراهيم كما توفى بكير بن ماهان بالكوفة وخلفه صهره أبو سلمة الخلال،
الذى لقب فيما بعد بوزير آل محمد⁽¹⁾ .

سرية الدعوة:

يعد محمد بن على بن عبدالله بن العباس أول الساعين من العباسيين
للوصول إلى الخلافة، فقد بدأ بتنظيم الدعوة تنظيمًا سرّيًا دقيقًا، وذلك
بإرسال النقباء والدعاة والعمال، بزي التجار وأصحاب المصالح على أن يدعو
الناس فى ستر وكتمان، إلى الجهات البعيدة التى يكثُر فيها أعداء الدولة
الأموية، والحاقدون على الأمويين بسبب سياسة التمايز بين من هو عربى
ومن هو أعجمى . فكانت خراسان هى الأرض الملائمة لزرع الدعوة العباسية .
جعل محمد بن على العباسى للدعوة مجلسًا يشرف عليها ويتكون من الدعاة
ولكل داعية اثنا عشر نقيبًا، ولكل نقيب سبعون عاملًا ويشرف هؤلاء العمال
على الخلايا السرية التى تنتشر بين الناس ثم يجتمع فيهم محمد بن على فى
موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون الأوامر، استجاب إلى العباسيين فى
خراسان أناس كثيرون وقد ساعد على ذلك، أن أهل خراسان أسلموا قبل
غيرهم فى أعداد كبيرة، وأظهروا حماسًا للدين الجديد بالاشتراك مع العرب
فى الجهاد لقتال الترك . لكن العرب لم يحسنوا معاملتهم ولم يسؤوا بينهم
وبين أنفسهم فى العطاء بل كانوا أحيانًا يجعلونهم يغزون دون عطاء ولا
رزق، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز وقرر لهم، لذلك كان محمد بن على
العباسى يوصى دعائه بالخراسانيين ويقول لهم: فإن هناك العدد الكثير والجلد
الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء ولم تتوزعها

1 - د . أحمد مختار العبادى - المرجع السابق ص 23 .

النحل، ولم يقدم عليهم فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة، ويبدو أن بنى أمية كانوا يخافون من حدوث انقلاب فى خراسان. فكانوا يرون أنهم يقدرّون أن يرتقوا أى فتق إلا من خراسان غير أن محمداً بن على مات قبل أن ينال غرضه من دعوته فى عام 124هـ / 742م. فعهد بالإمامة إلى ولده إبراهيم الذى عرف بالإمام. فاستمر الأخير فى الدعوة بحماس شديد، إذا أرسل إلى خراسان بكير بن ماهان ليعلن وفاة محمد وولايته. ولما مات بكير فى سنة 127هـ / 745م، عين الإمام إبراهيم مكانه أبا سلمة الخلال، الذى كان رقيق واعتق، وجعل له سيطرة تامة على الدعوة فعرف (الخلال): بورير آل محمد وكان كثير التنقل بين خراسان و«الحميمة» مركز الإمام ثم أحسن إبراهيم اختياراً بتعيينه قائداً شاباً لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، هو عبدالرحمن ابن مسلم، كنى بأبى مسلم بناء على طلب إبراهيم وقد جعل له سلطة تامة على الدعوة بخراسان عام 128هـ / 746م، وأمر بقية الدعاة بطاعته. وقد زوده بنصائح فى سبيل نصرة آل البيت بأن يفرق بين طوائف العرب، باستمالة اليمانية ومعاداة الحجازية وحتى يقتل بخراسان من يتكلم العربية⁽¹⁾.

ولذا فقد اختار خراسان، فأرسل دعاته إليها، وأوصاهم بوصيته المشهورة، التى يقسم فيها البلاد والأمصار: هذا علوى، وذاك عثمانى، وذلك غلب عليه أبو بكر وعمر، والآخر سفيانى وأمرهم - أعنى الدعاة بالتحاشى عن الفاطميين، لكنه ظل هو شخصياً، ومن معه من العباسيين، الذين استنوا بسنته، وساروا من بعده بسيرته - ظلوا - يتظاهرون للعلويين بأنهم معهم، وأن دعوتهم لهم. ولم يكن إلا القليلون يعرفون بأنه: كان يريد الأمر للعباسيين. وقد أعطى دعاته شعارات مبهمّة، لا تعين أحداً، وصالحة للانطباق على كل

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 22.

فريق، كشعار: «الرضا من آل محمد»، و«أهل البيت»، ونحو ذلك ولقد بذل محمد بن علي جهداً جباراً في إنجاح الدعوة، وكانت أكثر نشاطاته في حياة والده، علي بن عبدالله، الذي يبدو أنه لم يكن له في هذا الأمر دور يذكر وكان قد بدأ نشاطاته، حسب ما بأيدينا من الدلائل التاريخية من عام 100هـ الموافق 718م. أي بعد وفاة أبي هاشم بستين. إذ في: سنة 100هـ الموافق 718م. وجه محمد بن علي من أرض «الشراة» ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس، وأبا عكرمة السراج، وهو أبو محمد الصادق، وحيان العطار إلى خراسان. وفيها أيضاً جعل اثني عشر نقيباً، وأمر دعائه بالدعوة إليه، وإلى أهل بيته، وفي عام 102هـ الموافق 720م. وجه ميسرة رسله إلى خراسان، وظهر أمر الدعوة بها وبلغ ذلك سعيد خدينة، عامل خراسان؛ فأرسل، وأتى بهم، واستنطقهم، ثم أخذ منهم ضماناً وأطلقهم وفي عام 104هـ الموافق 722م. دخل أبو محمد الصادق، وعدة من أصحابه، من أهل خراسان إلى محمد بن علي؛ فأراهم السفاح في خرقة، وكان قد ولد قبل خمسة عشر يوماً، وقال لهم: «والله، ليتمن هذا الأمر، حتى تدركوا ثاركم من عدوكم» وفي عام 105هـ الموافق 723م. دخل بكير بن ماهان في دعوة بني هاشم، وفيها مات ميسرة؛ فجعل محمد بن علي بكيراً هذا مكانه في العراق، وفي عام 108هـ الموافق 726م. وجه بكير بن ماهان عدة من الدعاة إلى خراسان، فظفر بهم عامل خراسان؛ فقتلهم، ونجا منهم عمارة؛ فكان هو الذي أخبر محمد بن علي بذلك وفي عام 113هـ الموافق 731م. صار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان؛ فأخذ الجنيد بن عبد الرحمن رجلاً منهم؛ فقتله، قال: «من أصيب منهم قدمه هدر» وفي عام 117هـ الموافق 735م. أخذ عامل خراسان أسد بن عبدالله وجوه دعاة بني العباس، وفيهم النقباء، ومنهم سليمان بن كثير؛ فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم، وحبس آخرين وفي

عام 118هـ الموافق 736م، وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد - وهو خدّاش -
واليّاً على شيعة بنى العباس؛ فنزل «مرواً»، ودعا إلى محمد بن على؛ ثم
غلا وفي عام 120هـ الموافق 737م. وجهت شيعة بنى العباس سليمان بن كثير
إلى محمد بن على فى أمر خدّاش وفى عام 124هـ الموافق 741م. قدم جماعة
من شيعة بنى العباس الكوفة يريدون مكة. وفيها أيضاً اشترى بكير بن ماهان
أبا مسلم⁽¹⁾.

وقد تزعم أمر الدعوة فى كل من الكوفة وخراسان مجموعة من
الدعاة، وهم: دعاة الكوفة: لقد نظم أمر الدعوة فى الكوفة ثلاث هم على
التوالى:

1- ميسرة العبدى: كان مولى لعلى بن عبدالله بن عباس، وقد قام بأمر
الدعوة فى الكوفة منذ عام 102هـ الموافق 720م واستمر بها إلى أن توفى فى
عام 105هـ الموافق 723م.

2- بكير بن ماهان: استمر فى رئاسة الدعوة فى الكوفة حوالى اثنين
وعشرين عاماً تخللها رئاسته للدعوة فى خراسان أيضاً فى بعض الأحيان
خاصة عندما يتأزم الموقف فى خراسان مثل ما حصل من داعية خراسان
خدّاش عندما انحرف عن مسار الدعوة، إذ أرسل الإمام بكيراً لإعادة الأمور
إلى وضعها الطبيعى، ولإقناع الناس هناك بكذب ما يدعيه خدّاش. ويعتبر
بكير بن ماهان أهم دعاة الكوفة نظراً لطول المدة التى مكثها فى رئاسة الدعوة
من ناحية، وإخلاصه لها، وتفانيه فى خدمتها من ناحية ثانية، ذلك أنه لم
يدخر وسعاً فى سبيل إنجاحها، إذ دفع ما يملك من جهد ومال لهذه الدعوة،
إذ يقال بأنه كان يملك ذهب حصل عليها من إرث فى بلاد السند فى
باكستان، كل تلك الأموال صرفها فى سبيل الدعوة، مما يدل على حرصه

1 - الطبرى - ج 5 ص 316 - 512.

الشديد على إنجازها. وقد استمر في رئاسة الدعوة من عام 105 هـ الموافق 723م - عام 127هـ الموافق 74م وهي السنة التي توفي فيها.

3 - أبو سلمة الخلال: هو آخر الدعاة في الكوفة إذ قاد الدعوة في العراق في السنوات الخمس الأخيرة التي سبقت قيام الدولة العباسية، وقد بذل هذا الرجل جهوداً ضخمة، وأموالاً طائلة في سبيل نجاح الدعوة فالثورة بالدولة. يقول عنه الذهبي: «كان أبوسلمة من مياسير الكوفة، أنفق أموالاً في إقامة دولة بنى العباس لقد كان أبوسلمة من أكبر الدعاة للدعوة، وأعظم السعاة في استتباب الأمر. لقد قدم هذا الرجل خدمات جليلة للدعوة، أمضى في خدمتها ثلاثين عاماً كانت حافلة بالنضال والكفاح الفرق بين بكير بن ماهان وأبي سلمة الخلال هو أن المدة التي مكثها بكير وهي: اثنان وعشرون عاماً كلها قضاها في رئاسة الدعوة في حين لم يكن أبوسلمة رئيساً للدعوة سوى خمس سنوات، كان آخرها السنوات الخمس الأخيرة التي تزعم فيها أمر الدعوة للرضا من آل محمد في الكوفة منذ وفاة بكير عام 127هـ الموافق 744م إلى عام 132هـ الموافق 749م عندما أعلنت الدولة العباسية، فأصبح وزير آل محمد، إلا أنه اتهم في نهاية الأمر بالتواطؤ مع العلويين حيث قتل على يد أبي مسلم الخراساني بأمر من أبي العباس السفاح.

دعاة خراسان: أما ما يتعلق بدعاة خراسان فيحسن أن أورد أبرزهم وهم:

1 - عكرمة السراج: مولى لابن عباس، ويعتبر أول الدعاة، وقد كان اتصاله بالبيت العباسي إما بحكم الولاء، وإما بحكم مكانته في الدعوة، ويروى أنه زار بنى العباس في «الحميمة»، ثم سافر إلى خراسان ونشر علم ابن عباس، ويقال بأنه هو الذي اختار النقباء، وأنه اختار أيضاً بكير بن ماهان⁽¹⁾.

1 - محمود/ حسن، الشريف/ العالم الإسلامي في العصر العباسي ص16.

2 - حرب بن عثمان : هو مولى بن قيس بن ثعلبة ، وكان ممن اشتهروا بالحماسة للدعوة إذ اتخذ من «بلخ» و«مرو» مركزاً له ، وقد انتهى أمره ، بأن قتله الوالى الأموى على خراسان عندما انكشف أمره .

3 - كثير الكوفى : قدم من الكوفة ونزل فى «بلخ» مركز الدعوة هناك ، وبالرغم من أنه كان أمياً إلا أنه كان لبقاً نشيطاً فى مجال الدعوة ، وقد تعرض للحبس من قبل أسد القسرى إلا أنه أطلق سراحه .

4 - خداهش : اسمه عمار بن يزيد ، وقيل عمارة ، اتخذ من «مرو» مستقراً له ، وقد اتهم بالزيغ والمروق عن الدين ، وأنه لم يخلص للدعوة لأنه كما يقال : كان نصرانياً ثم أعلن إسلامه ، وقد انتهى أمر ذلك الرجل بأن قبض عليه والى خراسان أسد بن عبد الله القسرى فقطع لسانه ، وسمل عينيه ، ثم قتله بعد ذلك . وقد أدت هذه الفتنة التى أثارها خداهش فى خراسان إلى حذر الأئمة إذ تركوا مكاتبه الدعاة فى خراسان إلى حين خوفاً من افتضاح أمرهم . ونتيجة لخوف محمد بن على من فتنة خداهش هذا فقد أرسل إلى خراسان أشهر دعائه فى الكوفة آنذاك وهو «بكير بن ماسهان» ليؤكد لهم كذب ادعاء خداهش . وبالرغم من ذلك كله ، فإن أهل خراسان لن يصدقوا بكيراً عندما قال لهم بأنه موفداً من الإمام ، بل طلبوا منه ما يثبت ادعاءه هذا بعلامة يصدقونه بها ، فعاد إلى الإمام ثانية وجاءهم بالعلامة المطلوبة ، وهى عبارة عن عصا مدببة ، وبهذا تمكن من إقناعهم ، وإعادتهم إلى الطاعة مرة أخرى .

5 - سليمان بن كثير الخزاعى : يعتبر سليمان بن كثير أحد النقباء البارزين فى ذلك الوقت ، أرسله الإمام محمد بن على إلى خراسان للقيام بالدعوة ، ولبث فى خراسان فترة رئيساً للدعوة ، وكان صاحب استقامة ورأى ، وقد أشاد أبو جعفر «عبد الله بن محمد» (المنصور فيما بعد) بأثر ذلك

الرجل فى الدعوة وقال عنه : « هو أحد فتياننا » . وبالرغم من أن إبراهيم الإمام قد أوفد غيره لرئاسة الدعوة ، وهو أبو مسلم الخراسانى ، إلا أن منزلته لدى الإمام بقيت على ما هى عليه ، نلمس ذلك عندما أوصى إبراهيم الإمام أبا مسلم ، حينما بعثه إلى خراسان قائلاً له : ولا تخالف هذا الشيخ ، « أى سليمان بن كثير » ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى ولكن هل التزم أبو مسلم بتلك الوصية ؟ الواقع غير هذا ، فقد دب الخلاف بين الرجلين سليمان بن كثير وأبى مسلم خاصة بعد أن لجأ أبو مسلم إلى العنف والشدة فى خراسان ، وانتهى الأمر باتهامه من قبل أبى مسلم وقتله على يده . ولعل قتل أبى مسلم لهذا الرجل كان واحداً من الأسباب التى دفعت بالمنصور إلى التفكير جدياً فى القضاء على أبى مسلم ، ذلك أن أبا مسلم قد تجاوز حدوده فى نظر أبى جعفر خاصة عندما قتل أبو مسلم سليمان بن كثير دون أخذ رأى أحد من العباسيين بالرغم من وجود أبى جعفر هناك⁽¹⁾ .

6- أبو مسلم الخراسانى : اتصل بالإمام إبراهيم شاب من نوابغ الشبان لم يتجاوز سنه الواحد والعشرين عاماً اسمه عبد الرحمن وكنيته أبو مسلم الخراسانى لا نعرف شيئاً كثيراً عنه . ويصفه ابن خلكان بأنه كان قصير القامة ، أسمر اللون ، جميل الوجه ، أحور العين ، عريض الجبهة ، وافر اللحية ، خافض الصوت ، فصيحاً بالعربية ، لم ير ضاحكاً أو مازحاً فى وقته ، ولا يكاد يقطب فى شىء من أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور ، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً . تلقى أبو مسلم أصول الدعوة بالكوفة ، فاسترعى انتباه رجال الحزب العباسى ، فأخذوه وقدموه لإمامهم إبراهيم الذى لمس فيه ذكاء خارقاً وإرادة حديدية فأيقن أنه الشخصية

1 - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص 65 .

التي يمكن أن يعول عليها في هذا الأمر، لهذا ولاه رئيساً للدعاة في خراسان وأوصى شيوخ الدعوة بطاعته هناك⁽¹⁾.

استرعى انتباه شيعة العباسيين حيث أرسلوه إلى إبراهيم الإمام الذي ضمه إلى أسرته، وعلمه لنفسه، وجعله من خاصته، وتبناه، وسماه عبدالرحمن، وقد توسم فيه الإمام علامات الذكاء والنجابة، ويبدو أن الإمام قد أعدّه لذلك اليوم حيث بعث به إلى هناك، وأوصاه بالجد في الدعوة، والتعاون مع سليمان بن كثير عندما قال له: - إنك رجل منا أهل البيت هذه العبارة التي قالها الإمام لأبي مسلم تدل على ثقته التامة بهذا الرجل، بل إنها رفعت من منزلة أبي مسلم أمام العديد من العرب والخراسانيين على حد سواء. لقد كان أبو مسلم على معرفة بأحوال ذلك الإقليم حيث قيل بأنه زاره عدة مرات، نزل أبو مسلم في «بلخ» عند أبي النجم عمران بن إسماعيل في خراسان فاتصف بالدهاء والحزم، وكان يدير الأمور بحكمة ودهاء، إذ أحرز نجاحاً كبيراً في نشر الدعوة أولاً، ثم استفاد من ذلك الصراع القبلي بين اليمانية والحجازية هناك، إذ اتخذ موقف الحياد من هذه القبائل المتصارعة أول الأمر، ثم انحاز إلى اليمانية بعد ذلك دون أن يفقد علاقته مع الحجازية، وبالتالي استخدام أسلوب الشدة والقسوة بعد ما سنحت له الفرصة. لقد تزعم أبو مسلم الدعوة في خراسان آخر الأمر، وكانت الأمور غامضة والدعوة مبهمّة، فاستجاب الكثير من الخراسانيين عرباً ومشاركة، وهم لا يعرفون من هو الرضا من آل محمد، ولا يعرفون أيضاً ما هي الدولة التي ستخلف دولة الأمويين، وكان الدافع إلى ذلك هو الحقد والكراهية للدولة الأموية. نعم لقد أخذ أبو مسلم البيعة على الناس في خراسان بعبارات غريبة وعجيبة كذلك، إذ لم يشهد العالم الإسلامي حدوثها في بيعة ما منذ بيعة

1 - د. أحمد مختار العبادي - المرجع السابق ص 24.

السنيفة إلى ذلك الوقت الذي نتحدث عنه، إذ أخذ تلك البيعة على عرب خراسان وعجمها وجميع مواطنيها على كتاب الله وسنة نبيه، والطلاق والعناق والمشي إلى بيت الله الحرام، وما إلى ذلك من عبارات مستحدثة. وكان المبايع له شخص مجهول الاسم والمكان أشير إليه بكلمة «الرضا من آل محمد». وهنا يتساءل المرء عن سر هذا الإلغاز، وحكمة هذا الغموض فلا يصل إلى بيان مقنع يكشف عن الحقيقة في هذا، حتى لقد قضى أبو مسلم نجه دون أن يخلف شيئاً يفسر تلك الأمور البالغة التعقيد والسرية التامة. ولم يقتصر أمر البيعة بهذا الأسلوب على أبي مسلم بل سرى ذلك بالنسبة للعديد من الدعاة الذين قاموا بهذا الأمر سواء في خراسان أو في غيرها يقول البعض في هذا⁽¹⁾:

«ويظهر أن المناذاة بوصية أبي هاشم للعباسيين إنما كانت ضرورة سياسية ملحة حتمتها الظروف التي مرت بها الدعوة العباسية، ولهذا فإن السر في نجاح الدعوة العباسية هو أنها ظهرت بواجهات مختلفة، ورفعت شعارات متنوعة من أجل أن تجذب أكبر عدد ممكن من المعارضة للحكم الأموي، وقد غير العباسيون نظرتهم بعد نجاح الثورة، وبنوا حقهم على دعوى أن العباس عم الرسول ووارثه.

وبالرغم من ظهور هذه الدعوة في نهاية القرن الأول الهجري فإن بني أمية لم يكن لديهم علم بمن تدعو له الشيعة في شخصه، الذين كانوا حتى ذلك الوقت يدعون للرضا من آل محمد ولا يعلم الحقيقة في تلك الدعوة سوى الدعاة والنقباء، أما غالبية العامة من الناس فقد كان اعتقادهم بأن الدعوة لواحد من البيت العلوي. وقد استمر هذا الغموض حتى وقع كتاب في يد الخليفة الأموي مروان بن محمد من إبراهيم الإمام كان قد بعث به إلى

١ - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص 66.

أبى مسلم، وفيه سب لمروان بن محمد، يقول المسعودي عن ذلك: قبض رجال مروان على رجل يحمل كتاباً من أبى مسلم إلى إبراهيم الإمام يخبره فيه خبره، وما آل إليه أمره، فلما تأمل مروان كتاب أبى مسلم قال للرسول: لا ترع، كم دفع لك صاحبه؟ قال:- كذا وكذا، قال: هذه عشرات آلاف درهم لك، وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً، وامض بهذا الكتاب إلى إبراهيم، ولا تعلمه بشيء مما جرى، وخذ جوابه فائتني به، ففعل الرسول ذلك، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبى مسلم بخطة يأمره فيها بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه، وغير ذلك من أمره ونهيه كما يتضمن هذا الخطاب أيضاً أمراً لأبى مسلم بأن يقضى على نصر بن سيار، عندها بعث مروان كتاباً إلى عامله على دمشق «الوليد بن معاوية بن عبد الملك» يأمره بالكتابة إلى عامل البلقاء للقبض على إبراهيم الإمام فى مقره «بالحميمة»، وشد وثاقه وإرساله إلى الخليفة. فبعث عامل دمشق إلى نائب البلقاء يطلب منه تنفيذ أوامر الخليفة، فذهب إلى المسجد ووجد إبراهيم جالساً فقبض عليه وقيده وأرسله إلى دمشق ومنها إلى مروان. ولما شعر إبراهيم بما يدبر له نعى نفسه إلى أهله، وأوصى بأن يكون الخليفة من بعده أبو العباس «عبد الله بن محمد» وأمره بالمسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبى العباس⁽¹⁾.

ولم تأخذ الدعاية العباسية شكلها الكبير إلا بعد وفاة محمد بن على عام (25هـ / 743م) إذ عهد ابنه إبراهيم الإمام بإدارة هذه الدعاية إلى أبى مسلم، وهو من المشرق الإسلامى من غير شك، الذى سير الأحداث التى أدت إلى الثورة ويقول الطبرى أن أبا مسلم كان شاباً حدثاً عمره 19 سنة عندما اختارة الإمام، ولهذا السبب رفضه أتباع الدعوة أول الأمر. وكانت وصية إبراهيم الإمام له: النظر فى هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين

١ - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 67 وانظر: مروج الذهب ج3 ص 258 - 259.

أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وإنهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه. وإن استطعت لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار وتتهمه فاقتله. هذا كما يفهم من النصوص أن السجون في العراق كانت مكاناً طيباً لإعداد الثورات.

قام أبو مسلم بأمر الدعوة في خراسان عام 129هـ الموافق 746م، فضم إليه الموالي من المشرق الإسلامي وهم الأغلبية، ثم أخذ يستميل القبائل اليمنية مستغلاً الخصومات القبلية التي بينها وبين الحجازية. وكان والي خراسان نصر ابن سيار حجازياً، وقد حاول أن يجمع كلمة العرب ضد المشرق الإسلامي كما حاول تسوية الخلاف مع اليمنية فكتب إليهم يحضهم على ترك العصبية واستعان في ذلك بملكته الشعرية إذ أخذ ينظم شعراً في هذا المعنى ويذيعه بين القبائل مثل قوله:

من كان يسألني عن أصل دينهم فإن دينهم أن تهلك العرب

غير أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام دسائس أبي مسلم فرفض اليمنية الصلح واشترط زعيمهم الكرمانى عزل نصر بن سيار من ولاية خراسان. ولما قويت شوكة أبي مسلم، جاهر بالدعوة علناً وأشعل النيران على قمم الجبال لجمع الأنصار، كما اتخذ هو وأصحابه اللون الأسود شعاراً في ملابسهم وألويتهم ولذا عرفوا بالمسودة. والمعروف أن العباسيين اتخذوا اللون الأسود شعاراً لهم حزناً على الشهداء من آل بيت النبي ﷺ الذين قتلهم الأمويون. غير أن هناك فريقاً من المؤرخين يرون أنه ليس هناك ثمة علاقة بين سواد الألوية ومسألة الحزن والحداد. ويدللون على ذلك بأن بعض الذين ثاروا على الدولة الأموية قبل ذلك مثل أبي حمزة الخارجي وأبي

الحارث بن سريج، اتخذوا اللواء الأسود شعاراً لهم. وفي ذلك يقول الشاعر
الكميت موجهًا كلامه إلى الحارث بن سريج:

ولا فارفعوا الرايات سودا على أهل الضلالة والتعديف

كان هناك علاقة بين سواد الألوية وبين محاربه الضلال والخروج عن
مبادئ الإسلام. يضاف إلى ذلك ما ترويه المصادر من أنه كانت للرسول راية
تدعى العقاب من صوف أسود مربعة رسم فيها هلال أبيض، وإنه كان
يحملها في حروبه مع الكفار. فلعل العباسيين أرادوا أن يتمثلوا عهد الرسول
في كفاحهم مع بني أمية هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن شعار الأمويين كان
البياض سواء في دمشق شرقاً أو في قرطبة غرباً⁽¹⁾.

يجب ألا يغيب عن الذهن أن أبا مسلم لا يدين بالنجاح لمهارته فقط في
الاستفادة من أخطاء أعدائه، ولكنه دين به بصفة خاصة عجزهم عن الاتحاد
فأثناء الصراع بين نصر والكرمانى انضم أبو مسلم إلى الكرمانى. ولولا ما هو
معروف عن فردية العرب، لكان من المتوقع وجود حزبين متصارعين فقط:
الموالى من المشرق الإسلامى الذين يريدون الاستيلاء على السلطة، والعرب
المتحدون ضد هذا الخطر. وهكذا كانت الصراعات القبلية بين العرب هي
السبب في نجاح أبى مسلم. وخلف خطوط المقاتلة كانت هناك شبكة للدعاية
قد أعدت حسب المبادئ التى عرفت بها جماعات العلويين والفاطميين
والإسماعيليين والحشاشين: أى الجماعات السرية التى قالت بأن الأئمة
يحيطون بالعلوم الإلهية، وإن السلف منهم يعهد إلى الخلف بالأسرار، ويعلم
التأويل والباطن. وإن الإمام ينفرد وحده بتأويل القرآن⁽²⁾.

1 - أحمد مختار العبادى - المرجع السابق ص 26.

2 - د. سعد رغلول - المرجع السابق ص 37.

وجعل محمد بن علي أتباعه السبعين (70) الأوائل ينتخبون 12 نقيباً أي رئيساً، كان عليهم إعداد البلاد للثورة. وهؤلاء النقباء السبعون كانوا يمثلون الكثير من قبائل العرب، فقد كان منهم من خزاعة: سليمان بن كثير ومالك ابن الهيثم، وزباد بن صالح، وطلحة بن رزيق، وعمرو بن أعين. ومن طيء قحطبة بن صالح بن شيب. ومن تميم: موسى بن كعب ولاهز بن قريظ. ومن بكر بن وائل: أبو داود بن إبراهيم الشيباني. إلخ. وبصبر وجلد لا يعرفون الكلل قام هؤلاء بتمهيد البلاد للثورة الرائعة. والملاحظ أن بعض هؤلاء الدعاة كان يميل إلى العلويين بصفة خاصة، ويظهر أن هذا هو الذي دعا العباسيين إلى عدم الكشف عن حقيقة الدعوة، إذ دعواه: «الرضا من آل محمد».

علانية الدعوة: انضم إلى الدعوة العباسية بقيادة أبي مسلم في ليلة واحدة أهل ستين قرية من نواحي مرو، وبناء على أمر الإمام إبراهيم أظهر أبو مسلم الدعوة علانية في شهر رمضان عام 129هـ / 747م على أن تكون الطاعة لبني العباس. فعقد اللواء والراية اللذين بعث بهما الإمام، ويدعى الأول الظل والثاني السحاب، ومعناهما: أن خلفاء العباسيين يظللون الأرض إلى آخر الدهر، وكان يتلو: (إن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير). واتخذ أبو مسلم السواد شعاراً له، فعرف جيشه بـ «المسودة» نسبة إلى شعار العباسيين الأسود، حزنًا على الشهداء من بني هاشم، ونعيًا على بني أمية في قتلهم. كذلك أمر بأن توقد النار وتضاء المشاعل الكبيرة على قمم الجبال. فأخذ ينضم إليه عدد كبير من الموالين كما ذكرنا سابقاً⁽¹⁾.

قرر أبو مسلم في عام (129هـ / 747م) بناء على تعليمات الكوفة أن يحدد مسلكه ويبدأ بالعمل الإيجابي. وتقول الرواية إن شخصاً من خراسان

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 23 - وانظر: الكامل في التاريخ 295/4.

أتى إلى إبراهيم الإمام وكان يختلف منه إلى خراسان ويعود إليه . وعندما وصل إلى قومن كتب إليه إبراهيم الإمام : «إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابي . . . » ، فانصرف أبو مسلم إلى خراسان، ونزل قرية من قرى «مرو» يقال لها «فنين» على أبي الحكم عيسى بن أعين النقيب وذلك في شهر شعبان . ومن مركز قيادته في «مرو» أخذ أبو مسلم يوزع النقباء على مختلف الأقاليم ويأمره بإعلان الثورة . فوجه أبا داود النقيب إلى طخارستان فما دون «بلخ» ، فأمره بإظهار الدعوة في شهر رمضان، ووجه نصر بن صبيح إلى «مرو الزود» ، ووجه أبا عاصم عبد الرحمن بن سليم إلى «الطالقان» ، ووجه الجهم بن عطية إلى العلاء بن حريث «بخوارزم» بإظهار الدعوة في رمضان . ومع أن أبا مسلم حدد للدعاة وقت إظهار الدعوة بالنسبة للجميع في الشهر التالي إلا أنه ترك لهم حرية التصرف . وذلك أن من أعجله العدو منهم دون الوقت بالأذى والمكروه فقد حل لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف، وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد ذلك تحول أبو مسلم من عند أبي الحكم النقيب ونزل «حصن سيقذنج» و«رمه» وسد دروب القرية حتى لا يؤخذ على غرة . وهناك أظهر أمره، فأثاه في ليلة واحدة أهل ستين قرية، كما تقول النصوص، وذكر اسم الخليفة العباسي من أعلى المنبر، لأول مرة قبل صلاة الجمعة . وكان هناك علمان أسودان أتى بهما من الكوفة وعلقهما أسفل المنبر . وكان الإمام قد أرسلهما إليه : اللواء الأول كان يسمى الظل ، وعلق على رمح طوله 14 ذراعا والراية الثانية كانت تسمى السحاب ، وعلقت على رمح طولها 13 ذراعا . وكان أبو مسلم يتلو وهو يعقد اللواءين : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج] ، وربما كانت هذه الآية مكتوبة على اللواء . وتأول أبو مسلم الظل والسحاب، فقال : إن السحاب يطبق الأرض وأن

الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي إلى آخر الدهر. وكذلك لبس أبو مسلم السواد هو وأتباعه. وإلى جانب اتخاذ لون خاص نجد أن أبا مسلم يغير في بعض الشعائر الدينية. إذ لما حضر عيد الفطر أمر أحد النقباء أن يصلي بالشيعية (الأتباع)، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير آذان ولا إقامة. وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالأذان والإقامة.

وأعلن الاتباع يمين الولاء والطاعة. وكانت البيعة: «أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام، وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طعاماً حتى يتبدئكم به ولا تكلم». هكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبيلة «خزاعة»، ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج إلى «المآخوان» وخندق بها (وجعل للخندق بايين). وهناك عاد إلى نشاطه، ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم بالنسبة للعرب إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بتزاعاتهم القديمة فلم يستمر اتحادهم طويلاً ضده بل إن عرب اليمنية تحالفوا جزئياً معه، إذ أرسل إلى ابن الكرماني واجتذبه إلى جانبه. وهكذا من ناحية العرب أما من الناحية الأخرى فإن أنصار أبي مسلم من المشاركة الذين أقسموا على كتاب الله وسنة رسوله، على الإخلاص لمن يتم له إجماع المسلمين من أهل البيت «فكانوا خاضعين تماماً له كما كان الجند مطيعين لقوادهم أحسن الطاعة. وبفضل مجهوداته كانت طبقة الأعيان من أهل البلاد من ملاك الأراضي المعروفين في خراسان بالدهاقين (جمع دهقان) وبالمرازبة (جمع مرزيان) قد دخلوا في الإسلام. هذا والظاهر أنه حرص في دعايته على ألا يهمل العقائد الشعبية في المشرق الإسلامي. وفي ذلك تقول النصوص: «كان أعداء أبي مسلم يرجفون عليهم بعبادة الأوثان واستحلال

الدماء والأموال والفروج . وأما أنه قبل فكرة تناسخ الأرواح ، وما أضفاه عليه أتباعه من صفات قدسية ، وهذا ما قال به أحد أتباعه وهو هاشم «المقنع»⁽¹⁾ .

لما قوى أبو مسلم بمن اجتمع إليه ، بدأ بإذكاء نار الخلاف بين نصر بن سيار - وإلى الدولة الأموية «بمرو» - و«الكرمانى» - زعيم قبيلة ربيعة اليمنية - الذى رفض الصلح بينهما وصمم على عزل نصر مما جعل هذا الأخير يطلب المساعدة من الخليفة الأموى بدمشق مروان بن محمد ضد الكرمانى قبل أن يستفحل أمر الخراسانى فى تلك البلاد ويصعب قتاله . لكن انشغال الخليفة بمقاومة الخوارج أخره فى إجابة الطلب وكتب إليه وإلى نصر ، يقول له : «أضبط ثغرك بجندك ، واهتم هو - الخليفة مروان - بالقضاء على رأس الدعوة الإمام إبراهيم «بالحميمة» ، فأرسل إليه من أوثقه وزج به فى السجن ، ثم أمر به أن يخنق أو تلف رأسه فى داخل جراب ولما لم يجد نصر بن سيار فائدة من محاولة الصلح مع الكرمانى ، بعث إلى الأخير أبى الحارث بن سريج فقتله غدراً . تجاه هذا الأمر ، انضم ابنا الكرمانى إلى أبى مسلم الخراسانى عندما تمكن من هذا من دخول «مرو» فى ربيع الآخر عام 130هـ / 748م ، واعترفا له بالإمارة لكنه ما لبث أن قتلها خوفاً من أن تتفق اليمانية مع نصر . وقتل ستمائه من العرب بينهم عبد الله بن معاوية الذى كان قد استولى على فارس ، وهرب إلى خراسان وبها أبو مسلم حينما علم بدعوته للرضا من آل محمد طمعاً فيها . كذلك قتل أبو مسلم الخوارج التى اجتمعت على قتله ، فلما رأى نصر ما فعله الخراسانى من قتل لبيعة واليمانية والفرس ، خرج هارباً إلى نيسابور ثم هرب إلى «الرى» بعد أن لحقت به جيوش الخراسانى بقيادة الداعية قحطبة ، حيث توفى هناك فى عام 131هـ / 748م . فدانت بذلك

1 - د . سعد زغلول - المرجع السابق ص 40 .

سائر خراسان إلى أبي مسلم وسك العملة بها، باسم: أمين آل محمد، وعين عليها العمال⁽¹⁾.

نتج عن هذا الموقف - انقسام العرب وتماسك الحزب الجديد - أن تمكن أبو مسلم من الاستيلاء على «مرو» وهي عاصمة خراسان المنطقة الخصبة في وادي المرغاب وهناك تفصيلات عن دخولها بالاتفاق مع ابن الكرماني. وهرب نصر (هو وامراته المرزبانة ولكنه تركها في الطريق) وسار إلى سرخس، ومنها إلى «طوس» ثم إلى نيسابور. ومن «مرو» أدار أبو مسلم الصراع ضد نصر. وهكذا بدأت الحرب التي انتهت بالقضاء على دولة الأمويين. ويقال أن الحركة انتهت في كثير من الأحيان بمذابح راح ضحيتها العرب (انظر الطبري) ولكن مهما يكن من شيء فإن عناصر عربية مهمة شاركت في تلك الحرب، فلم يدر أبو مسلم أول الهجمات بنفسه بل قام بها قحطبة بن صالح وهو من قبيلة طيء اليمنية وكان في عام 100هـ/ 718م يعد من الاثنى عشر نقيباً للحزب العباسي في خراسان، والذي كان قد عين قائداً لمكة. وعند عودته إلى خراسان هزم تميم بن نصر بن سيار في «طوس». وذلك بعد أن دعاه وأتباعه إلى كتاب الله وإلى الرضا من آل محمد فلم يجيبوه (سياسة)، وكان أتباع الشيباني الحروي من الخارج قد لحقوا بابن نصر هناك. وقتل تميم ابن نصر في المعركة واستبيح عسكره. وهرب نصر من «نيسابور» إلى «جرجان»، وتمكن بذلك أبو مسلم من دخول نيسابور في شوال عام 130 الموافق يونية عام 748م. وعندما استغاث نصر بوالى العراق يزيد بن هبيرة أرسل هذا إليه جيشاً «بجرجان»، ولكن قحطبة خرج لملاقاته وهزمه في ذى الحجة عام 130هـ الموافق أغسطس عام 748م، بعد أن فتح «جرجان» وأوقع بأهلها الذين حاولوا الثورة فقتل منهم ما يزيد على 30 ألفاً وبسبب

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 24.

تردد بن هبيرة، مات نصر وهو يفر أمام قحطبة مات مريضاً قرب الرى، وكان يحمل حملاً وأخذت «الرى» بعد موته وصادر أبو مسلم أملاك أهلها لأنهم كانوا سفيانية، كما يقول النص. وأحاط الحسن بن قحطبة ببقية الجيوش الشامية في «نهاوند». وعندما خرج جيش شامى كبير لتخليصها وعلى رأسه عامر المرى والى «كرمان» وداود بن يزيد بن هبيرة (فى شعبان عام 131هـ الموافق مارس عام 749م) هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب أصفهان. وتقول النصوص: أمر قحطبة بمصحف فنصب على رمح ونادى بأهل الشام إنا ندعوكم إلى ما فى هذا المصحف فثتموه وأفحشوه فى القول: وأنه هزم ابن ابن هبيرة وأصابوا عسكره وأخذوا منه مالا نعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل. وما رأى عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ما فى هذا العسكر، كأنه مدينة. كان فيه من البرابط والطناير والمزامير والخمر ما لا يحصى. واستراح قحطبة بعض الوقت «بأصفهان» ثم قدم على ابنه الحسن «بنهاوند». وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون «بنهاوند» دون أن يفكروا فى مصير إخوانهم بخراسان، وهؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة. وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية. خرج قحطبة من «نهاوند» وتوجه إلى العراق، واضطر فى أول الأمر إلى الانسحاب أما والى الإقليم يزيد ابن هبيرة الذى خرج للقاءه وراء دجلة، ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة - وخرج يزيد بن هبيرة لمطاردته، وتمكن من مفاجأته فى ذى الحجة عام 131هـ الموافق أغسطس عام 749م فى معسكره قرب الأنبار، واضطر قحطبة إلى الانسحاب إلى واسط. وأثناء قتال الليل هذا وقع قحطبة فى النهر (الفرات) ومات غرقاً ولكن ابنه الحسن الذى كان قد أظهر كفاءة ممتازة فى القيادة، رأس الجند دون صعوبة، واستولى جيشه على الكوفة بعد هزيمة ابن هبيرة. والظاهر أن الكوفة أخذت بسهولة إذ كان محمد بن خالد بن عبدالله القسرى

قد خرج فيها على الأمويين الذين انسحبوا منها، وأعلن انضمامه إلى العباسيين وكتب بذلك إلى قحطبة⁽¹⁾.

بعد ذلك دخل الداعية قحطبة «نيسابور» ثم «الري»، ثم استولى على «أصفهان» وقتل عامل الخليفة مروان بن محمد بها. ثم حارب في «نهاوند» و«فارس». وأخيراً هزم يزيد بن هبيرة - عامل الأمويين على العراق - وسلم عامل الكوفة المدينة إلى العباسيين⁽²⁾.

هذه المدينة كانت مركز الدعاية الثورية للعباسيين منذ مدة. وقام أبو سلمة الخلال - وزير آل محمد - الذي كان يعمل على إثارة الناس عن طريق دعايته وبياتصال وثيق مع أبي مسلم، قام بإزاحة النقاب عن وجهه وإدارة الأمور إدارة مباشرة باسم أهل البيت. وقبل ذلك بقليل كان رئيس البيت الهاشمي «إبراهيم بن محمد» قد قبض عليه في «الحميمة» بأمر الخليفة مروان بن محمد وأرسله إلى حران. الظاهر أنه قتل، ولا يعرف كيف كانت نهايته. فيقال: مات في وباء حل بحران، ويقال اسمه مروان، ويقال: هدم عليه الدار التي يقيم فيها. وكان إبراهيم قد نصح أتباعه قبل ذلك بالهرب إلى الكوفة وطلب لديهم بيعة أخيه أبي العباس الذي أوصى إليه. وخرج أبو العباس من الحميمة وسار إلى الكوفة هو وأخوه أبو جعفر وعد من أعمامه وبنو عمومته (كانوا 14 رجلاً) فوصلوها في ربيع عام 132 هـ الموافق أكتوبر عام 749 م. ولم يرد الوزير أبو سلمة الذي لم يكن قد بايع شخصياً إلا إبراهيم، لم يرد أن يخضع لهم دون قيد أو شرط، وحاول أن يفصلهم عن العباسيين في خراسان. فكتب أمر وصولهم أولاً والظاهر أنه اتصل بالعلويين، ولكن هؤلاء لم يكن لديهم من يقدموه ليأخذ على عاتقه إدارة الأمور. وقام

1 - د. سعد رغلول - المرجع السابق 42.

2 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 25.

أحد أتباع أبي مسلم بن قديم عدد من الزعماء والقواد الخراسانيين - دون علم أبي سلمة - لأبي العباس وبايعه هؤلاء القواد بالخلافة، وأقسموا له يمين الولاء والطاعة، كما عزوه في موت أخيه إبراهيم، واضطر أبو سلمة إلى عدم المقاومة.

خرج أبو العباس في يوم الجمعة 12 من ربيع الأول/ 28 أكتوبر (تشرين أول) عام 749م، إلى دار الإمارة، ومنها سار إلى المسجد الجامع بالكوفة حيث أخذ البيعة للأسرة الجديدة. وبعد الخطبة والصلاة للجمعة صعد المنبر وخطب خطبة «العرش» وفيها تكلم عن حقوق أسرته وبرنامجه كما أشاد بأهل خراسان، وتملكته الحمى وهو يخطب واضطر أن يقطع أول خطبة له من فوق المنبر، ولكن عمه داود تكلم نيابة عنه. وفي خطبته حاول أن يثبت عن طريق تأويل القرآن أن عائلته هي الأحق بالخلافة من العلويين ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب]. وعندما صعد عمه داود المنبر طلب الدعاء بالعافية لأمير المؤمنين وقال «ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد»، وأشار بيده إلى أبي العباس، ثم قال: «اعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بحاجة منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم». هذا عن أحقية الأسرة في الحكم، أما عن الحكم نفسه فإن أبا العباس أعلن حلول العدل والصلاح وزوال عهد الجور والفساد. كما أنه أعلن زيادة أعطيات الجند (هدف سياسي). ويقال أن أبا العباس قال في خطبته استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيع» وأن هذه الصفة لصقت به وبعد الخطبة ترك أبو العباس أخاه أبا جعفر في المسجد يأخذ البيعة على الناس. وهذه المسألة محل بحث، إذ يقال أن هذا اللقب ألصق به خطأ وأنه إنما أعطى لعمه عبد الله بن علي بطل مذبحة «أبي فطرس». قال بذلك صاحب أخبار مجموعة «لما كان من أمر

مروان بن محمد رحمة الله ما كان وانصرم أمر بني أمية بالمشرق وتغلب على ملكهم بنو العباس وقتل مروان في عام 132هـ فسير برأسه إلى السفاح ثم سار به أبي العباس ببغداد، وهو معسكر بها، وتتبع السفاح بني أمية حيث كان يقتل ويمثل.. وهناك إشارة لابن الأثير إلى ذلك إذ ينسب مذبحة أبي فطرس إلى العباس قاتلاً «ويقال أن هذه الحادثة كانت من السفاح». وكتب في ذلك الأستاذ عبد الحميد العبادي في مجلة الثقافة أو الرسالة؟⁽¹⁾.

نهاية مروان بن محمد:

وكانت الجيوش العباسية التي تعمل في أعالي دجلة تحت قيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي الذي عينه قحطبة، ولكن بعد «مقوط الكوفة أعفى هذا القائد من القيادة التي أعطيت إلى عبد الله بن علي بن عباس. وسار مروان بن محمد على رأس جيش قوى لملاقاة الخراسانيين الذين تلقوا الإمدادات من أبي سلمة ومن أبي العباس، والتقى بهم على الضفة اليسرى لنهر الزاب، ودام القتال والمناوشات بين الطرفين مدة 9 (تسعة) أيام أحرز مروان خلالها بعض الانتصارات المحلية، لكن انتهى الأمر باضطراب جيشه إذ كانت كل عصبية تريد أن تتقدم العصبية الأخرى. وأعقب ذلك هزيمته نتيجة خطأ إستراتيجي إذ عقد جسراً على النهر وعبره رغم معارضة وزرائه في ذلك، إذ ترتب على هذا الخطأ أن انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل في يوم 11 جمادى الثاني عام 132هـ الموافق 26 يناير عام 750م. وكتب يومئذ عبد الله بن علي إلى السفاح بالفتح فصلى ركعتين شكراً لله وأمر لمن شهد الواقعة بـ500 دينار، ورفع رزقهم إلى 80 ديناراً. وبعد هزيمة الزاب فر مروان إلى الموصل، ولكنه استقبل استقبالا سيئاً فسار إلى «حران» وأقام بها بعض الوقت أكثر من 20 يوماً. وتبعه عبد الله بن علي بأمر

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 43.

أبى العباس فلما أقبل عليه مضى مروان إلى حمص، وبدأت مدن الشام تخلع طاعتها بالنسبة للأمويين وتسقط بين أيدي العباسيين مدينة بعد مدينة، مثل: «قنسرين» و«حمص» و«بعلبك». ولم تدافع إلا دمشق بعض الوقت، فدخلت عنوة في 5 من رمضان عام 132 هـ الموافق 17 من فبراير عام 750م، بعد أن حوصرت وضيق عليها ولكن مروان بن محمد لما دخل مصر عن طريق «الفرما»، لحقته الجنود الخراسانية كما قاتلته اليمانية من أنصار العباسيين الموجودين هناك. في قرية «بوصير» بـ«الأشمونين» قطعت رأس مروان وهو نائم في ذي الحجة عام 132 هـ / 750م. بعد أن تعب من المطاردة. فلما حملت الرأس إلى أبى العباس (الخليفة الأول) خر ساجداً، وأعلن عن قيام الدولة العباسية بعدما بويع بالخلافة من قبل القواد.

وهناك رواية أخرى تقول: وتابع العباسيون مطاردة مروان، إذ تبعه صالح بن على من أبى فطرس إلى العريش إلى النيل ثم واصل سيره إلى الصعيد. وفي بلدة بوصير (بالفيوم) حاول مروان الاختفاء في إحدى الكنائس، ولكن عرف مكانه ونازلته خيل صالح، فقتل في 27 من ذي الحجة عام 132 هـ. واحتز رأسه وأرسل إلى صالح الذي مثل به (قطع لسانه) وسيره إلى أبى العباس وكان بالكوفة.

استسلام واسط ونهاية ابن هبيرة:

بالقضاء على مروان لم يبق للأمويين من قوة ولا حول إلا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها أمام ابن قحطبة إلى واسط، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات دجلة ودافعت المدينة عن نفسها ما يقرب من العام (11 شهراً). بدل القتال بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة انتهت بانهزام أهل الشام والتجائسهم إلى المدينة وتحصنهم بها، فأصبح القتال رمياً وتراشقاً من بعيد. ورغم الانقسامات بين عرب

الحجار وعرب اليمن فى صفوف ابن هبيرة بعد أن كاتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة، فإن هذا الأخير لم يدخل فى مفاوضات مع العباسيين إلا عندما علم بموت مروان. وفى هذه الأثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة لواسط قد انتقلت - حسب سياسة الخليفة الجديد التى ترمى إلى وضع مقاليد الأمور وخاصة العسكرية منها بين أيدي أفراد أسرته - من يدى الحسن بن قحطبة إلى أبى جعفر أخى الخليفة إذ كتب السفاح إلى الحسن بن قحطبة: العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخى حاضراً فاسمع له وأطع. بعد أن علم المحاصرون بقتل مروان طلبوا الصلح وطالت المفاوضات بين الطرفين (أكثر من 40 يوماً)، وانتهت بتأمين المحاصرين. ومضى السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها عند تنفيذها (أبو مسلم لم يوافق على نصوصها) فقتل أفراد الحامية المستسلمة، وانتهى الأمر باغتيال ابن هبيرة نفسه. وباستسلام واسط ثم القضاء على القوات الأموية النظامية وسار العباسيون فى سياسة استئصال الأمويين، واستعمال القسوة ضد أفراد الأسرة المنكوبة (شعار أبو مسلم منذ البداية: «اجعل سوطك السيف وسجنتك القبر»، وهم فى ذلك لا يتورعون عن الغدر والخيانة⁽¹⁾).

فر مروان إلى مصر عن طريق دمشق التى ترك فيها عاملاً من قبله عليها ليقا تل العباسيين ويؤخر زحفهم - فلحق به عبد الله بن على الذى استولى على المدينة بعد حصار أيام، فقتل بها ألوفاً كثيرة من الجند والأمراء كما نبش قبور الأمويين فيها ثم تابع تعقبه لمروان، فما أن وصل إلى فلسطين حتى نادى بالأمان فى بنى أمية، فاستأمن له أكثر من سبعين رجلاً أدخلوا فى سرادق عقد لهم مع بنى هاشم الذين كانوا يجلسون على الكراسى وبنى أمية على الوسائد التى ثنيت لهم. مع أنهم كانوا أثناء دولتهم يجلسون مع الخلفاء على

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 47.

السريير ويجلس بنو هاشم على الكرسي، فأمر عبدالله بن علي بقتلهم، فلما قتلوا دعا بالغداء، وأمر ببسط فبسطت عليهم، وجلس فوقهم يأكل وهم يضطربون تحته. فلما انتهى من الأكل، قال: ما أعلمني أكلت قط هنا ولا أطيب لنفسي منها. ثم جروهم من أرجلهم وألقوهم في بئر حفرت لهم خصيصاً. أما من لم يستأمن منهم، فقد هرب إلى أقاصي المغرب وحتى الحبشة أو إلى الأندلس وبذلك أصبح اسم عبدالله مرهوباً فسماه أبو قتيبة بالسفاح⁽¹⁾.

ومن أهم المذابح تلك التي غدر فيها عبدالله بن علي، عم الخليفة، بعدد عظيم من أمراء البيت الأموي (حوالي 90 رجلاً) والتي تسمى بمذبحة أبي فطرس، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام. ويقال أنه بعد أن قتلهم غيلة أمر بالبسط (الأنطاع) ففرشت على جثثهم فأكل عليها وهو يسمع أنين بعضهم (ربما سمي هذا الرجل بالسفاح من أجل ذلك؟) وتصيد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين وفي العراق. وبعد مطاردة الأحياء طورد الأموات. وبذلك انتهكت قبور الخلفاء فنبشت بدمشق بأمر عبد الله بن علي أيضاً، ونثر تراب جثثهم في الهواء، ولم يستثن إلا قبر عمر بن عبد العزيز، بل ومثل ببعضها، هشام ضرب بالسياط وصلب وحرق. ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام «عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب إلى أسبانيا حيث أنشأ دولة أموية جديدة أحيت مجدهم القديم. واستضيفت أموالهم وهدمت قصورهم وخربت خزانات المياه والصهاريج التي بنوها حتى لا يبقى لذكرهم أثر. حدث كل هذا وأهل الشام الذين كانوا يكرهون مروان يقفون موقف المتفرج على مصرع الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شيء. هذا، ولو أنهم أفاقوا من ذهولهم بعد قليل وقاموا برد فعل لم يكن بعيد

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 26.

الصدى . إذ نقضوا وخلعوا (بيضوا - عكس الذين يسودون) فى عدد من المدن مثل «البثنية» و«حوران» و«قنسرين» و«دمشق» . أهم هذه الثورات كانت ثورة قنسرين ، إذ قامت الحجازية بها ونادت بأبى محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية (خليفة) . ولكن تمكن عبدالله بن على من تشتيت شملهم فى أواخر عام 133 هـ (أو 134) الموافق يوليه 751 (أو فى عام 752) ، وأمن أهل المدينة فعادوا لطاعته ، وسقط أبو محمد بين أيدي العباسيين وهو يفر إلى الحجاز . ولم يشأ أتباعه أن يعتقدوا فى موته بل انتظروا عودته كمهدى جديد يعيد المجد للشام فادعوا أنه السفينانى (المنتظر مثل القحطانى المنتظر والمهدى المنتظر) . ولما يأسوا من عودته جعلوا منه المبشر بالمسيح الدجال المعروف فى علوم نهاية العالم الإسلامية ، وفى البقية الباقية من المذاهب الأموية التى تضع آمالها السياسية فى المذهب الدينى الذى يقول تتغلغل روح الله فى كل العناصر الطبيعية ، ومثل اليزيدية من «الأزاد» فى منطقة الموصل والذين يعيشون حتى أيامنا هذه فى سفوح جبال سنجر ويمتدون شمالا حتى القوقاز⁽¹⁾ .

1 - د . سعد زغلول - المرجع السابق ص 49 .

الفصل
الثاني

حكم أسرة آل العباس

مميزات الدولة الجديدة:

(1) الناحية الدينية: قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية عام 132هـ الموافق 749م وامتد حكمها خمسة قرون إلى أن سقطت أخيراً على أيدي المغول بزعامة هولاكو حفيد جنكيزخان عام 656هـ الموافق 1258م. وعلى الرغم من أن الأسرة العباسية الحاكمة كانت أسرة عربية هاشمية، إلا إنها اعتمدت في بادئ الأمر على الموالى الفرس، ولهذا لم يعد للجنس العربى تلك المكانة المرموقة التى كانت له أيام الدولة العريية. كذلك يلاحظ أن الخليفة الأموى كان أشبه بشيخ قبيلة يستمد سلطانه من القوى المادية ومن رضى رؤساء القبائل العربية. أما الخليفة العباسى فقد اتسمت سلطته بالقداسة وصار سلطانه مستمداً من الله سبحانه وتعالى. فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين يقول فى أحد خطبه:

«أيها الناس، إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأييده وحارسه على أمواله. اعمل فيه بمشيئته وإرادته، فاسألوا الله أن يوفقنى إلى الرشاد.

فنظام الخلافة قد تغير فى عهد العباسيين وأصبحت الخلافة تشبه نظرية الحق الإلهى فى الحكم التى كانت سائدة بين الفرس قديماً أيام الساسانيين والتى سادت أوروبا فى بداية العصور الحديثة باسم Dt vine right of Rule ولقد اندمجت هذه النظرية فى نفوس المسلمين حتى صارت عقيدة يؤمنون بها. والفضل فى ذلك يرجع إلى الدعاية التى قام بها العباسيون لهذه الفكرة لدرجة أنهم استخدموا فى سبيل تدعيمها وترويجها أحاديث نبوية لم تثبت صحتها تبرر لهم هذا الحق إلى يوم القيامة. ولعل هذا هو السر فى بقاء

الخلافة العباسية مدة طويلة وفي تمتعها بمركز الزعامة الروحية فى العالم الإسلامى حتى بعد زوالها من بغداد . يروى السيوطى فى كتبه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين أنه حينما سقطت الخلافة العباسية ، وزالت من بغداد على أيدى المغول «خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله واتخذوها أدلة على ما سيحدث فى العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة» . رأء هذه المكانة المقدسة التى تمتعت بها الخلافة العباسية فى العالم الإسلامى ، حرصت مصر على إحيائها من جديد فى القاهرة ، وقد تم لها ما أرادت عام 1261م فى عهد السلطان الظاهر بيبرس . واستمرت الخلافة العباسية قائمة بالقاهرة إلى أن احتل الأتراك العثمانيون مصر عام 1517م فقصوا على الخلافة واستأثر السلطان العثمانى بالسلطتين الزمنية والروحية معاً⁽¹⁾ .

(2) من الناحية السياسية: خلط العباسيين:

نلاحظ أن العباسيين قد خلطوا السياسة بالدين وهم فى هذه الناحية يختلفون عن الأمويين ، الذى اتهموا بالخروج عن الدين الإسلامى والاهتمام بالمصالح الدنيوية لدرجة أن الثورات التى قامت فى عهدهم اتخذت صبغة دينية اعتصمت بالأماكن المقدسة مما أوقع الأمويين فى الحرج واضطروهم إلى ضرب الكعبة والاعتداء على أهالى مكة والمدينة لإخماد تلك الثورات مما أساء إلى سمعتهم الدينية .

أما الخلفاء العباسيين فعلى العكس من ذلك ؛ أقاموا سياسة ممزوجة بالدين وأعلنوا أنهم يريدون إحياء السنة وإقامة العدل وإرجاع الخلافة الحق بدلا من الملك الذى أقامه الأمويون . فأحاطوا أنفسهم بهالة من الدين وجذبوا

1 - أحمد مختار العبادى - المرجع السابق ص31 أنظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص309 .

الفقهاء والعلماء حولهم، وتلقبوا بالأئمة، وارتدوا بردة الرسول ﷺ كرمز
لسلطتهم الدينية وذلك فى المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدىن، وفى
ذلك يقول البحترى فى مدح الخليفة المتوكل العباس:

ووقفت فى برد النبى مذكراً لله تنذر تارة وتبشر

والبردة رداء من الصوف يسدل على الكتفين، واستعمله العرب قبل
الإسلام وبعده. ويروى أن الرسول ﷺ كانت له بردة من هذا النوع وأنه
ألقاها يوماً على كتفى الشاعر كعب بن زهير تعبيراً عن تقديره لشعره. ويقال
إن معاوية بن أبى سفيان اشتراها من ولد كعب ثم حفظت بعد ذلك فى
خزانة الخلفاء أيام العباسيين. ولما استولى هولاءكو على بغداد حاول حرقها
ولكنها أنقذت من برائنه وهى الآن محفوظة بمدينة القسطنطينية يلاحظ فى هذا
الصدد أن قصيدة الشاعر الصوفى شرف الدين محمد البوصيرى (ت 1294م)
المعروفة بالبردة، اسمها فى الأصل هو «الكواكب الدرية فى مدح خير
البرية». أما سبب تسميتها بالبردة فيرجع إلى أن البوصيرى مرض يوماً مرضاً
عضالاً فجاءه الرسول فى المنام وألقى ببردته على كتفيه فشفى على الأثر ولم
تلبث هذه المعجزة أن ذاعت واشتهرت حتى صار اسم البردة منذ ذلك الوقت
عنواناً لهذا القصيدة. وقد ترجمت هذه القصيدة إلى الفارسية والتركية وكتبت
حولها الشروح الكثيرة ونهج على منوالها عدد من الشعراء نذكر منهم أحمد
شوقى فى قصيدته المعروفة «نهج البردة».

كذلك استغل العباسيون فكرة المهدوية والعصمة أو المهدى المنتظر التى
كانت أمل الغد عند جماهير الشعب المتعبة التى تنتظر المخلص الذى يخلصها
مما هى فيه إلى حياة أفضل. ولهذا راجت هذه العقيدة بين جماهير الناس،
وصارت بمثابة الشعار الدينى والسياسى الذى يرفعه كل ناظم على ظلم بنى
أمية أو ظلم بنى العباس بعد ذلك. ولقد استغلها الشيعة وغالوا فى

استعمالها، واستغلها الحارث بن سريج فى ثورته على الأمويين ولقب نفسه بالمهدى. كذلك عمل بها الأمويون أيضاً وأوجدوا مهدياً اسمه السفيانى وهو الذى سيعيد ملك بنى أمية وكان من الطبيعى أن يستغلها العباسيون أيضاً بعد توليهم الحكم لقطف ثمار الثورة على الأمويين دون شركائهم وأبناء عمومتهم العلويين. فاصطنعوا الأحاديث النبوية الموضوعة لتثبيت دعواهم بأن المهدى منهم، وأن يخرج وأصحابه من خراسان حاملين الرايات السود، مما ينطبق على الأحداث التاريخية التى توالى من قبل. كذلك استغل المنصور ثانى الخلفاء العباسيين هذه العقيدة حينما لقب ابنه وولى عهده بالمهدى. من كل ما تقدم نرى أن العباسيين قد استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسى وفى ذلك يقول ابن طباطبا فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية: «إن هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة. لكى يزيد الخلفاء العباسيون فى مهابتهم وقداستهم اتبعوا بعض عادات الأكاسرة الفرس مثل الاحتجاب عن الرغبة والظهور فى وسط ستار كثيف من الأتباع ونشأت نتيجة لذلك وظيفة الحجابة، فلم يعد الخليفة يرى كما كان الحال من قبل إلا بعد برنامج محكم دقيق عند مقابلته. كذلك وجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل الانحناءات وتقبيل الأرض أو ذيل الثوب وهذه كلها تقاليد فارسية لأن السلام عند العرب كان يسط اليد أو ضربها. وإلى جانب الحجابة وجد الخليفة أيضاً بلاط يموج بالخدم والحشم والجوارى بحيث أصبح هذا البلاط نظاماً من نظم الدولة التى تؤثر فى سياستها⁽¹⁾.

1 - د. أحمد مختار العبادى - المرجع السابق ص33 وانظر: (أحمد أمين: المهدى والمهدوية ص12 (سلسلة اقرأ)، أحمد على: ثورة الزنج وقائدها على بن محمد ص32 - 33.
- د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - الدولة العباسية ص7.

الوزارة:

كذلك استحدث العباسيون خطة الوزارة باختصاصاتها المعروفة، وهو نظام فارسي قديم وليس من مستحدثات الإسلام. ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو من كلمة Wi - chir الفارسية أى الرئيس الذى يحكم، أم هو عربى من الوزر (بسكون الزاى) وهو الثقل والعبء، أو من الوزر (بفتح الزاى) وهو الملجأ أو المعتصم، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ إليه فى الأمور المهمة. ومهما يكن من شىء فقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى سورة طه ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ٢٩ هرون أخى ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي﴾ ٣١ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾، كذلك عرفه العرب أيام الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية من حيث إن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين أو أصحاب رأى فيما يحتاجون إليه من أمور. فهؤلاء كانوا يقومون بعمل الوزير إلا أنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادراً. ثم جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، ومتأثرة بنظمهم وتقاليدهم. فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة، من أهمها الإشراف على الشؤون المالية، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية، فى مختلف الأقاليم والأمصار. وقد حفظت لنا المراجع الإسلامية عدداً من قوائم الخراج التى كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية مثل قائمة الجهشيارى (ت 331هـ الموافق 942م) فى كتابه الوزراء والكتاب، وهى تمثل الخراج فى عصر الرشيد (170 - 193هـ الموافق 808م)، وقائمة ابن خلدون فى مقدمته، وهى منسوبة إلى عصر المأمون (189 - 218هـ الموافق 833م) وقائمة ابن خرداذبة فى كتابه المسالك والممالك، وهى تمثل خراج الدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى. وقائمة قدامة بن جعفر (337هـ الموافق 948م) فى كتابه الخراج

وصنعة الكتابة وهى تمثل الخراج الكلى للدولة العباسية. فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج فى الدولة (الدخل)، كما كان هو المشرف أيضاً على ديوان النفقات (المنصرف). وقدرة الوزير تظهر حينما يحدث عجز فى الميزانية بين الدخل والمنصرف، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافى الأمر وسد العجز. وإلى جانب هذه النواحي المالية والاقتصادية، كان الوزير أيضاً هو المختص بفن الإنشاء، وذلك - كما يقول الماوردى فى الأحكام السلطانية - كى يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه - ولهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة، لأنه هو الذى يتولى بنفسه الإشراف على ديوان الرسائل الذى سُمى فيما بعد بديوان الإنشاء. كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء، وأن يكون دارساً كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم... إلخ هذا وكان للوزير العباسى لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة. وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين أصبحت لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية، طابع جديد لم يوجد من قبل. يقول ابن خلدون فى تحديد اختصاصات الوزير العباسى⁽¹⁾:

«فلما جاءت دولة بنى العباس، واستفحل الملك، وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد، وتعين مرتبته فى الدولة، وعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر فى ديوان الحساب، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند، فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه. ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان

1 - د. أحمد مختار العبادى - نفس المرجع ص 35 نشر دى خويه De Goeje نبدأ من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مع كتاب المسالك والممالك لابن خردادبه (ليدن 1889) راجع كذلك (محمد ضياء الدين الرئيس: الخراج فى الدولة الإسلامية ص 422 - 435).

اللسان قد فسد عند الجمهور . . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة، ولم يخرج عنده من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التى هى القيام على الباب، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك» .

ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية كأسرة البرامكة، وبنى سهل، وبنى الفرات وبنى الجراح، وبنى خاقان وبنى وهب . . إلخ . وحينما ضعفت نفوذ الخلفاء العباسيين، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة إلى الوزارة، وهنا أخذت الوزارة معنى آخر، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ، أصبحت وزارة تفويض، أى بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة بينما بقى هو كالمحجور عليه ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بنى بويه الفرس، أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير، وطمعوا فى ألقاب الإمارة والسلطنة، فاتخذوا لقب أمير الأمراء ثم جاء من بعدهم الأتراك السلاجقة، فاتخذوا لقب سلطان، وصار بيدهم - كما حدث للبويهيين من قبل - الأمور السياسية والحربية معاً . أما لقب وزير، فقد ظل باقياً، إلا أن مكانته فى الدولة انحطت بعد أن زالت عند جميع اختصاصاته، وصار عمله محدوداً ككاتب للخليفة أو كاتم لأسراره .

الناحية البحرية:

نلاحظ أن الدولة الأموية بحكم وجودها فى الشام، وقربها من البحر الأبيض المتوسط كانت سياستها متجهة نحو هذا البحر فأنشأت أسطولا بحرياً قوياً سيطر على مياهه وشل حركة الأسطول البيزنطى فيه، كما استطاعت أن تمتد سواحلها غرباً حتى شملت بلاد المغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط .

فالدولة الأموية تعتبر دولة من دول البحر المتوسط. أما الدولة العباسية فإنها ابتعدت عن البحر واتجهت نحو المشرق الذي هو سر نجاحها، واتخذت بغداد عاصمة لها بدلا من دمشق. وقد نتج عن ذلك أن ضعف نفوذها في المغرب الإسلامي مما أدى إلى استقلال تلك الأقاليم الغربية عن نفوذها. فاستقلت الأندلس على يد صقر قریش عبد الرحمن الداخل الأموي. كما استقل المغرب الأقصى على يد الأدارسة العلويين. أما المغرب الأوسط فقد استقل به بنو رستم الخوارج الإباضية. وقد اكتفى العباسيون بإقامة دولة حاجزة Buffer state موالية لهم في المغرب الأدنى وهي دولة الأغالبة، لتكون درعا واقيا لدولتهم من أخطار الشيعة والخوارج في المغرب. على أن نفوذ العباسيين وإن كان قد ضعف في المغرب، إلا أن قد قوى في المشرق، فابن الأثير في كتابه الكامل يشير في حوادث عام 134هـ الموافق 751م إلى أن جيوش أبي مسلم الخراساني، استطاعت أن تهزم الجيوش الصينية التي أخذت تتدخل في بلاد تركستان. وقد عادت الجيوش العباسية محملة بالغنائم من متاع الصين كالأواني الخزفية المنقوشة والديباج المزخرف، ويبدو أن هذا هو أول ذكر للاحتكاك الحربي بين المسلمين والصين في المراجع الإسلامية، كذلك يلاحظ أن الحضارة الإسلامية قد أخذت تسود منذ ذلك الوقت بلاد أواسط آسيا بدلا من الحضارة الصينية⁽¹⁾. هذا، وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة عصور:

العصر العباسي الأول أو دور النفوذ الفارسي

(132 - 232هـ / 750 - 847م).

العصر العباسي الثاني أو دور النفوذ التركي

(232 - 334هـ / 847 - 945م).

1 - أحمد مختار العبادي - نفس المرجع ص 38.

العصر العباسي الثالث أو دور نفوذ البويهيين الفرس

(334 - 447 هـ / 945 - 1055 م).

العصر العباسي الرابع أو دور النفوذ السلجوقي التركي

(447 - 656 هـ / 1055 - 1258 م).

ويلاحظ أن هذا التقسيم وضعه المؤرخون لمجرد تسهيل دراسة تاريخ هذه الدولة، لأن التاريخ - كما هو معروف - تيار مستمر غير منقطع.

خلفاء العصر العباسي الأول: 132 - 232 هـ الموافق 749 - 846 م؛

عبد المطلب - العباس - عبدالله - علي - داود والي الحجاز - عبدالله والي الشام - الإمام محمد - صالح والي مصر - سليمان والي البصرة - إسماعيل والي الأهواز - موسى - عيسى - الإمام إبراهيم.

- 1 - أبو العباس عبد الله 132 - 136 هـ الموافق 749 - 753 م.
- 2 - أبو جعفر المنصور 136 - 158 هـ الموافق 753 - 774 م.
- 3 - محمد المهدي 158 - 169 هـ الموافق 774 - 785 م.
- 4 - موسى الهادي 169 - 170 هـ الموافق 785 - 786 م.
- 5 - هارون الرشيد 170 - 193 هـ الموافق 786 - 808 م.
- 6 - محمد الأمين 193 - 198 هـ الموافق 808 - 813 م.
- 7 - عبدالله المأمون 198 - 218 هـ الموافق 813 - 833 م.
- 8 - أبو إسحاق محمد المعتصم بالله 218 - 227 هـ الموافق 833 - 841 م.
- 9 - أبو جعفر هارون الواثق بالله 227 - 232 هـ الموافق 841 - 846 م.



قائمة بأسماء خلفاء العصر العباسي الثاني والثالث

- 10 - المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد
232 - 247 هـ الموافق 847 - 861 م.
- 11 - المنتصر بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم
247 - 248 هـ الموافق 861 - 862 م.
- 12 - المستعين بالله أحمد بن المعتصم
248 - 252 هـ الموافق 862 - 866 م.
- 13 - المعتز بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم
252 - 255 هـ الموافق 866 - 868 م.
- 14 - المهتدي بالله محمد بن الواثق بن المعتصم
255 - 256 هـ الموافق 868 - 869 م.
- 15 - المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بن المعتصم
256 - 279 هـ الموافق 869 - 892 م.
- 16 - المعتضد بالله أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل
279 - 289 هـ الموافق 892 - 901 م.
- 17 - المكتفي بالله على بن المعتضد بن الموفق
289 - 295 هـ الموافق 901 - 907 م.
- 18 - المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بن الموفق
295 - 320 هـ الموافق 907 - 932 م.

خلع المقتدر أباه وبويع بالخلافة عبدالله المعتز، فمكث يوماً واحداً في الخلافة ثم استظهر المقتدر عليه، فأخذه وقتله. ولذلك لم يعد عبدالله بن المعتز في الخلفاء لقصر الزمان - المدة - الذي تولى فيه.

19 - القاهر بالله محمد بن المعتضد بن الموفق

320 - 322 هـ الموافق 932 - 934 م.

20 - الراضى بالله محمد بن المقتدر بن المعتضد

322 - 329 هـ الموافق 934 - 942 م.

21 - المتقى بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد

329 - 333 هـ الموافق 941 - 945 م.

22 - المستكفى بالله عبد الله بن المكتفى بن المعتضد

333 - 334 هـ الموافق 945 - 946 م.

23 - المطيع لله الفضل بن المقتدر بن المعتضد

334 - 363 هـ الموافق 946 - 973 م.

24 - الطائع لله عبد الكريم بن المطيع بن المقتدر

363 - 381 هـ الموافق 973 - 991 م.

25 - القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر

381 - 422 هـ الموافق 991 - 1030 م.

26 - القائم بأمر الله عبد الله بن القادر

422 - 467 هـ الموافق 1030 - 1074 م.

- 27 - المقتدى بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله
467 - 487 هـ الموافق 1075 - 1094 م .
- 28 - المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدى
487 - 552 هـ الموافق 1094 - 1118 م .
- 29 - المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر
552 - 529 هـ الموافق 1118 - 1135 م .
- 30 - الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد
529 - 530 هـ الموافق 1135 - 1136 م .
- 31 - المقتفى لأمر الله أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله
532 - 555 هـ الموافق 1138 - 1160 م .
- 32 - المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى
555 - 566 هـ الموافق 1160 - 1170 م .
- 33 - المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسين بن المستنجد
566 - 575 هـ الموافق 1170 - 1179 م .
- 34 - الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله
575 - 622 هـ الموافق 1179 - 1225 م .
- 35 - الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله
622 - 623 هـ الموافق 1225 - 1226 م .

- 36 - المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله
623 - 640 هـ الموافق 1226 - 1242 م .
- 37 - المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله
640 - 656 هـ الموافق 1242 - 1258 م .

نهب المغول لبغداد

وانتقال الخلافة للقاهرة 659 - 923 هـ الموافق 1261 - 1517

- 38 - المستنصر 659 هـ الموافق 1261 م .
- 39 - الحاكم الأول 660 هـ الموافق 1261 م .
- 40 - المستكفي الأول 701 هـ الموافق 1302 م .
- 41 - الواثق الأول 704 هـ الموافق 1340 م .
- 42 - الحاكم الثاني 741 هـ الموافق 1341 م .
- 43 - المعتضد الأول 753 هـ الموافق 1352 م .
- 44 - المتوكل الأول للمرة الأولى 763 هـ الموافق 1362 م .
- 45 - المعتصم للمرة الأولى 779 هـ الموافق 1377 م .
- 46 - المتوكل الأول للمرة الثانية 779 هـ الموافق 1377 م .
- 47 - الواثق الثاني 785 هـ الموافق 1383 م .
- 48 - المعتصم للمرة الثانية 788 هـ الموافق 1386 م .
- 49 - المتوكل الأول للمرة الثالثة 791 هـ الموافق 1389 م .
- 50 - المستعين 808 هـ الموافق 1406 م .

- 51 - المعتضد الثاني 816هـ الموافق 1414م .
- 52 - المستكفي الثاني 845هـ الموافق 1441م .
- 53 - القائم 855هـ الموافق 1451م .
- 54 - المستنجد 859هـ الموافق 1455م .
- 55 - المتوكل الثاني 884هـ الموافق 1479م .
- 56 - المستمسك للمرة الأولى 903هـ الموافق 1497م .
- 57 - المتوكل الثالث للمرة الأولى 914هـ الموافق 1508م .
- 58 - المستمسك للمرة الثانية 922هـ الموافق 1516م .
- 59 - المتوكل الثالث للمرة الثانية (حتى الفتح العثماني لمصر) 923هـ الموافق 1517م .

قامت الأسرة الخلافية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفة، وكان أول خلفائها أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس «السفاح». والعباس جد الأسرة التي تنسب إليه، وهو عم النبي ﷺ كما نعرف، وكان يكبر النبي بسنة أو ستين، وكان تاجراً غنياً على عكس أخويه: أبي طالب وعبدالله والظاهر أنه كان موفقاً في رحلاته التجارية حتى أنه كان يظهر بمظهر الأمير، كما كان له شرف السقاية. والروايات تصوره كمعارض للنبي ﷺ طالما كان النبي ﷺ بمكة ولكنه لم يكن يبغض النبي ﷺ، بل ومن المحتمل أنه بعد موت أبي طالب أصبح حامياً لابن أخيه النبي ﷺ. ورغم أنه قاتل في صفوف أهل مكة يوم بدر وأسر إلا أنه يقال أن المكين أرغموه على الانضمام إلى جانبهم. ورغم أنه عاد بعد أن افتدى إلى مكة، فيقال أن النبي ألح عليه بذلك. والحقيقة أن تصرفاته في مكة كانت في مصلحة المسلمين. إذ

حمى المناصرين لهم وتجنس لحسابهم. وبعد فتح مكة ترك النبي ﷺ له السقاية، كما أن العباس ساعد النبي ﷺ مساعدة قوية بأمواله. وهناك أساطير عباسية نظمت في صالحه منها أنه كان يجلب المطر بصلاته للاستسقاء. والعباسيون من سلالة ابنه عبد الله الذي ولد قبل الهجرة ببضع سنوات. وحسب رواية البخاري أسلم عبدالله هو وأمه قبل أبيه العباس. بدأ عبدالله يتميز أيام عثمان الذي عهد إليه بإمارة الحج سنة مقتله 35هـ/ 655م، وبعد ذلك أخذ جانب على الذي استعمله كسفير له، كما ولاه البصرة. وانضم إلى معاوية بعد أن أخذ من بيت مال البصرة 3 ملايين درهم، وبايع يزيدا بعد موت معاوية عندما وجد الأغلبية يبايعونه وأخيراً مات بالطائف عام 67هـ الموافق 686م⁽¹⁾.

شهرة عبد الله لا تعود إلى نشاطه السياسى، ولكن إلى ما اشتهر به من التبحر فى العلوم الدينية والدينية من فقه إلى تفسير للقرآن حتى أطلق عليه اسم حبر الأمة كما سمي «البحر». وهناك روايات مطلولة عن علمه واهتمام النبي ﷺ به. وإلى جانب درايته للحديث عرف بكثير من الآراء الجريئة، إذ تنسب إليه الأساطير مثل اشتراك إبليس فى مناقشات القرشيين وغيرها والتي ربما نسبت إليه زيفا فيما بعد، وكذلك الاقتباسات المأخوذة من علوم اليهود، المعروفة بالإسرائيليات. وعلى ابن عبد الله هو الذى ذهب إلى دمشق أيام عبد الملك والذى انتقل بعد موت الوليد إلى «الخميمة» عن طريق الحج الشامى حيث مات وهو مسن جدا عام 118هـ/ 736م. وفى حياته كان ابنه محمد قد طالب بالإمامة بين الشيعة وأورث ابنه إبراهيم الحق بالمطالبة بها، كما رأينا سابقا، ثم صار الأمر لأبى العباس. وتقول الروايات أن أبا جعفر كان أسن من أخيه أبى العباس ولكنه تنازل عن حقوقه. وحتى ذلك الوقت كان مروان محمد يدافع عن كيانه الخلفى، كما أن ابن هبيرة لم يكن قد استسلم، وكان

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 45.

لابد للعباسيين من القضاء عليهما. وكان الخليفة لا يشعر بقوته تمامًا في الكوفة، في ذلك الحين، فإنه انتقل إلى معسكر الخراسانيين «بحمام أعين» مع أبي سلمة، وأقام بينهما سترا وحاجبا (بمعنى بدء النظم في الدولة الجديدة بالوزير والحاجب). ولكنه انفصل بعد فترة قليلة عن أبي سلمة وذهب إلى الخيرة فنزل «الهاشمية». وبعد قليل تخلص من أبي سلمة بيدي رجل من أتباع أبي مسلم⁽¹⁾.

نقل الخلفاء العباسيون العظام المركز الإسلامى السياسى نحو المشرق الإسلامى كما يعتبر خطوة مهمة بالنسبة للتغيرات الحضارية فى تاريخ العالم الإسلامى، ويعتبر انتصار العباسيين من حيث المبدأ من الأمور ذات الصبغة الدينية، فالاضطهاد الذى لا يعرف الرحمة والذى قاموا به كان ثأراً لمقتل حفدة النبى ﷺ، وسيعرف الإسلام عصراً من عصور النهضة على عهد هؤلاء الخلفاء الذين يتسبون إلى السلالة الهاشمية. وإلا أن ارتقاء العباسيين لعرش الخلافة سيأتى بشيء أهم من انتصار مبدأ الأحقية فى العرش وهو الأمر الذى كان مبهماً على كل حال فالخلافة التى كانت قد خرجت من جزيرة العرب لن تعود إليها، إذ ستنتقل إلى الأمصار من الشام إلى العراق ومن العراق إلى مصر، كما أن سيادة الإسلام لن تضع من أهل الشام فقط بل من أيدي العرب جميعاً. والحقيقة أن العراق يظهر على نفس المسافة مثل الشام وذلك بالنسبة لمكة. ولكن بينما كان الشام يكون جزء من قلب العالم العربى كان العراق طرفاً من أطرافه، هذا إلى جانب أن العراق لم يصبح مركزاً للدولة فحسب وإنما خراسان، لأن المشاركة هم الذين تحملوا عبء الصراع، وأن العرب هم الذين انهزموا. وبذلك انتهت الدولة العربية التى أنشأها معاوية وقاومها خلفاؤه. وأخلص أبناء المشرق الإسلامى لأمر

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 45.

العباسيين وتلقوا المكافأة جزاء لذلك، إذ وقع على عاتقهم إدارة الدولة التي عاونوا في إقامتها. ولم تستخدم الدولة هؤلاء في الجيش فقط وديوان الجند بل وجد العباسيون بين أبناء المشرق الإسلامى أحسن العمال لحكومتهم. ولا شك فى أنه كان قد حدث شىء مثل هذا عندما بدأ فى إقامة الدولة الأموية. فالشاميون من أهل الذمة الذين كانوا يمدون الدواوين بالموظفين على أيام خلفاء الأمويين، كانوا رعايا من الدرجة الثانية حتى أنهم كانوا يستخدمون اللغة اليونانية فى دواوينهم فهم لم يكونوا بأكثر من معاونين للخلفاء. أما سكان المشرق الإسلامى هنا فقد أراقوا دماؤهم من أجل انتصار العباسيين كما أنهم أقبلوا بشغف على تعلم اللغة العربية⁽¹⁾.

فكانوا شركاء فعلا فى ممارسة مهما الحكم. وعند هذا الطريق عملتا لتقاليد الفارسية، وكذلك ما كان قد تبقى فى البلاد من تراث الساسانيين على أن تجعل من الخلافة العباسية وريثة للملوك آل ساسان ومن الدولة العربية ما يسميه الأوروبيون بملكية شرقية. هذا ولو أن أبناء المشرق الإسلامى لن يحلوا محل العرب فى كل شىء إذ سيظل بعض العرب يحتلون مراكز مهمة بين القواد والموظفين وكان لهم فى القبائ الحجازية واليمانية سند قوى. كذلك احتفظت اللغة العربية بمكانتها التى لا تنزع بصفتها اللغة الرسمية للدولة الجديدة كما صارت لغة الثقافة والدين والعلم والتجارة. عمرت الدولة الجديدة خمسة قرون انتهت بسقوط العاصمة بغداد بين أيدي تار هولاكو عام 656هـ/ 1258م. والقرن الأول منها هو عصر الخلفاء العظام (إلى عهد المعتصم 833 - 842م ثامن الخلفاء وربما حتى خلافة المتوكل 847م وهو العاشر). هذا ولو أن بعض المؤرخين (مولار) يحدد فترة عظمة العباسيين بعهد المنصور والبرامكة فقط (أى الرشيد 786 - 809م) إلا أن هذا يعتبر تحديدا

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 50.

ضيقتنا. وبعد الخلفاء العظام أتت خلفاؤهم ممن هم أقل منهم حظًا، وتلى هؤلاء أشباح من الخلفاء الذين كانوا يظهرون على مسرح الأحداث خلال جزء من القرن الـ10 والـ11. تميز عصر هؤلاء بالحروب والدسائس والحفلات والتبذير والثورات غير المنقطعة، والاغتيالات الحسنة والتدبير، كما عرف ذلك العصر البؤس المملوكى والشعبى⁽¹⁾.

أبو العباس السفاح 132 - 136هـ الموافق 750 - 754م:

أول هؤلاء الحكام، كما رأينا هو أبو العباس عبد الله الذى لم يتمتع إلا بملك قصير الأجل 132 - 136هـ / 750 - 754م، والذى لا يعرف فى التاريخ إلا بلقب «السفاح» ومن الطبيعى ألا يشتهر أول العباسيين إلا بهذا الاسم والخلافة العباسية كانت فى مبدأ أمرها: فالبلاد مضطربة والنفوس ثائرة، والهدوء لم يستقر بعد، وهناك عظماء الرجال ممن مهدوا لقيام الأسرة الجديدة من كبار الدعاة والقواد، وعلى عاتق هؤلاء كانت تقع معظم المسئوليات، وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى اعتلاء السفاح العرش. وعرف السفاح هذا الموقف - وربما كان ذلك بمساعدة أخيه أبى جعفر - وعمل منذ البداية على إقامة التوازن بين الأسرة المالكة وكبار أتباعها وموظفيها من مدنيين وعسكريين، فرسم سياسة اشراك أفراد الأسرة فى الحكم والإدارة والقيادة، وذلك عندما عهد إلى إخوته وأعمامه وأبناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم، كما رسم سياسة التخلص من كبار الأتباع ممن يخشى باسمهم أو يستشعر خطرهم. بدأت هذه السياسة بجعل أخيه أبى جعفر قائد الجيش ثم الحسن بن قحطبة ثم العهد إلى عمه عبد الله بن على بقيادة الجيش الذى هزم مروان بن محمد على نهر الزاب ثم العهد إلى عمه صالح بن على بمتابعة مروان فى فراره نحو مصر والقضاء عليه فى الفيوم. ومن ذلك الوقت

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص51.

بدأ شروعه فى التخلص من أبى مسلم (أمير آل محمد) كما سبق أن التخلص من أبى سلمة الخلال (وزير آل محمد)⁽¹⁾.

ولد أبو العباس عام (100هـ = 718م) تقريباً وبويع فى «الكوفة» فى شهر ربيع الأول عام 132هـ = 749م). واستمر فى الحكم أربع سنوات استطاع خلالها توطيد أركان الخلافة العباسية، والقضاء على كل مقاومة ظهرت فى عهده. مما لا شك فيه أن هناك بعض التجاوزات التى حدثت فى إقليم «الشام» على يد والى العباسى «عبدالله بن على»، عم الخليفة «أبى العباس»؛ حيث تعقب الأمويين فى كل مكان وقتل كثيراً منهم، مما دفع بعضهم إلى الفرار إلى مناطق بعيدة، كما فعل «عبدالرحمن بن معاوية» - صقر قريش - الذى فر إلى «المغرب» ومنها إلى «الأندلس»؛ حيث أسس دولة الأموية هناك عام (138هـ = 755م)، كما حاول بعضهم الآخرين التخفى وطلب العفو. ومن ناحية أخرى، لم يقف أنصار الأمويين وأعوانهم مكتوفى الأيدي أمام انتصارات العباسيين، وما ارتكبه بعض ولايتهم من مذابح تجاه البيت الأموى، فقاموا بعدة ثورات فى أماكن متفرقة، إحداها بالبلقاء و«حوران» عام (132هـ = 749م)، وأخرى فى «قنسرين»، وثالثة فى «دمشق»، لكن قوات العباسيين استطاعت الانتصار عليها والسيطرة على الموقف. واجهت «الدولة العباسية» قبيل إعلانها وفى بداية قيامها انحراف بعض المسئولين فيها، ولم تكن الظروف السياسية التى صاحبت قيام «الدولة العباسية» تسمح بالتخلص من هؤلاء، فلما بويع «أبو العباس» بالخلافة وبدأت الدولة تأخذ طريقها إلى الاستقرار، وكان أول من عوقب «أبا سلمة الخلال» بسبب عدم حمسه كثيراً لانتقال أفراد البيت العباسى من «الحميمة» إلى «الكوفة»، ولم يأذن لهم بدخول «الكوفة» إلا بعد فترة، وحاول نقل

1 - د. سعد زغلول - الدولة العباسية - ص 52.

الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي إلا أنه فشل في ذلك، كما حاول قتل «أبي العباس» وفشل في ذلك أيضاً، فلما استقرت أمور الدولة استقر رأى أفراد البيت العباسي على أخذ رأى «أبي مسلم الخراساني»، الذي وافق على التخلص منه، فتم اغتياله وأعلنت القيادة العباسية أن جماعة من أعداء الدولة هم الذين نفذوا هذه المؤامرة. كما قام «أبو مسلم الخراساني» والى إقليم «خراسان» بالتخلص من أحد كبار الدعاة وهو «سليمان بن كثير»، الذي كان يعرف بنقيب النقباء، عقب اتهامه بالاتصال بأحد أبناء البيت العلوي وتحريضه على الثورة ضد البيت العباسي. وتوفي الخليفة العباسي الأول «أبو العباس» بالأنبار في (13 من ذي الحجة عام 136هـ = 9 يونيو 745م)، وعمره نحو ست وثلاثين سنة.

أبو جعفر المنصور (136 - 158هـ = 753 - 775م):

هو «عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الهاشمي»، وكنيته «أبو جعفر» ولد عام (95هـ = 714م) في قرية «الحميمة» بالشام، وتربى وسط كبار الرجال من «بنى هاشم»، فنشأ فصيحاً عالماً بسير الملوك والأمراء، ودرس النحو والتاريخ والأدب شعراً ونثراً وغير ذلك، كما كان كثير الأسفار. ولما تولى أخوه «أبو العباس» الخلافة استعان به في محاربة أعدائه وتصريف أمور الدولة، وكان يتوب عنه في الحج، كما أوصى «أبو العباس» قبيل وفاته مباشرة بولاية العهد لأخيه «أبي جعفر» الذي كان غائباً في موسم الحج، فلما توفي «أبو العباس» قام ابن أخيه «عيسى بن موسى» بأخذ البيعة لأبي جعفر من «بنى هاشم» وغيرهم، وأرسل إلى عمه «أبي جعفر» بوفاء أخيه ومبايعته بالخلافة. ولما وصل «أبو جعفر» إلى «الأنبار» استكمل أخذ البيعة من القادة والروساء، ثم خطب فيهم مبيناً سياسته في إدارة الدولة في النقاط الآتية:

1 - رهنه فى منصب الخلافة؁ وأنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يرغب فيه .

2 - تعهنه بتنفيذ ما ورد فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

3 - تعهنه بإقرار العدل ورفع الظلم عن الناس؁ وإرجاع الحقوق إلى أصحابها .

يعد «أبو جعفر المنصور» المؤسس الحقيقى للدولة العباسية؁ وقد واجه بحزم واقتدار العديد من المشاكل والثورات حتى نجح فى السيطرة عليها والقضاء على القائمين بها؁ منها: ثورة عمه «عبدالله بن على»؁ وتمرد «أبى مسلم الخراسانى»؁ وثورة «محمد النفس الزكية» وثورات الفرس؁ وحركات الخوارج . توفى «المنصور» فى 6 من ذى الحجة عام 158هـ الموافق 7 من أكتوبر 775م؁ وهو فى طريقه إلى الحج . بعد أن كان قد عهد لابنه المهدي - الذى كان قد كبر - بولاية العهد بدلا من عيسى بن موسى الذى كان السفاح قد عينه . ولم يتم تنازل عيسى عن حقوقه إلا بعد ضغط شديد استعمل فيه المنصور أساليب شاذة حتى اضطر عيسى أن يحل الناس من البيعة له عام 147هـ / 764م . وأصبح يلى المهدي فى ولاية العهد بعد أن أرغم على التنازل؁ وحلف على ذلك فقال: ها أنا أشهدك أن نسائى طوالق ومماليكى وما أملك فى سبيل الله تصرف ذلك فىمن رأيت يا أمير المؤمنين «ولقد تنذر الناس بذلك؁ فقالوا: ذلك الذى كان غدا فأصبح بعد غد» . وعن شخصية المنصور وتقديرها فىمكن تلخيص ذلك فى أنه كان دائم النشاط مهتما بمنصبه كصاحب الأمر؁ يزاول مهنة الحكم بذكاء ومقدرة؁ وكان غادر مخادع؁ عنيف بخيل؁ ناكرا للجميل . مات المنصور بالقرب من مكة واختلف بتأيينه وأخذ البيعة (بيعة الخاصة) للمهدي هناك . وتوجد تفاصيل لها دلالتها: منها أن ابن المهدي وهو موسى الهادي فيما بعد؁ هو الذى أخذ البيعة . ومعنى هذا تأييد فكرة

الوراثة من الأب إلى الابن، إذ كان من الحاضرين وقتئذ بعض عمومته (القاسم بن المنصور) بل وولى العهد التالى عيسى بن موسى الذى لم يكن راضياً عن تنازله عن ولاية العهد، والذى كان متردداً فى البيعة، ثم أنه طلب من أحد العلويين (وهو الحسن بن زيد) أن يكون أول المبايعين، وهذا احتياط أيضاً لإعطاء البيعة صفة أكثر شرعية وقانونية⁽¹⁾.

وقد أشار «ابن الأثير» فى كتابه «الكامل فى التاريخ» إلى:

أن «المنصور» كان يجعل نهاره لتصرف أمور الدولة، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته، فإذا صلى العشاء جلس ينظر فيما ورد إليه من رسائل البلاد، حتى يمضى ثلث الليل الأول فينام، ثم يقوم فى الثلث الأخير فيتوضأ ويصلى حتى يطلع الفجر، فيصلى بالناس، ثم يجلس فى ديوانه لتصرف أمور البلاد وهكذا يقضى وقته.

الخلافة الثالث: محمد المهدي (158 - 169 هـ = 775 - 185 م):

هو «محمد بن عبد الله بن محمد» ولد «بالحميمة» عام (126 هـ = 743 م)، وقد هباه والده «المنصور» وأعدده ليكون جديراً بمنصب الخلافة من بعده، فنشأ على ثقافة عربية واسعة، ودراية بفنون الحرب وأساليب الإدارة. وقد أوصى «المنصور» ابنه وولى عهده «محمدًا» وصية جامعة، قبيل وفاته تضمنت:

- 1 - التمسك بأن تظل «بغداد» عاصمة للخلافة.
- 2 - الاهتمام بأهل بيته وحاشيته وأهل «خراسان» لدورهم فى قيام الدولة.

3 - تقوى الله وإبعاد النساء عن السياسة.

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع السابق.

4 - تجنب إهدار دماء المسلمين ، ومعاقبة المفسدين والملحدين وتبعهم .

5 - الاستعداد المستمر بالقوة والسلاح ، وأن يباشر الأمور بنفسه .

وصل خبر وفاة المنصور إلى المهدي ببغداد يوم 14 ذى الحجة كما أرسلت إليه إشارات الملك من البردة والقضيب وخاتم الخلافة ، وتمت له بيعة أهل بغداد (بيعة العامة) . وبذلك ورث المهدي تلك الإمبراطورية العظيمة بمزاياها ومشاكلها : فمشكلة وراثته العرش كما رأيناها على عهد المنصور ستظل قائمة : فعيسى بن موسى مازال ولي العهد التالى ، كما أن العلويين لم يرجعوا عن المطالبة بأحققتهم العرش رغم خضوعهم للأمر الواقع والخوارج يثيرون الاضطراب ما بين الحين والحين وفى جهات متفرقة ، هذا واستمرت الحركات المذهبية الثورية تظهر فى خراسان مما سيكون له تأثير كبير على عهد المهدي .

تسلم محمد المهدي الخلافة العباسية بعد وفاة والده المنصور وقد مل الناس سياسة الأخير المبالغة فى الاقتصاد والتقتير إلى جانب الحروب المتواصلة فى الداخل والخارج . فجاءت سياسة المهدي لتلبى رغبة الناس بالاستمتاع بقدر من الترفيه والراحة والتغيير ، إذ كان سخياً كريماً فرق الأموال التى اكتنزها أبوه - على الناس ، فأحسوا بالمال يجرى بين أيديهم ، الأمر الذى جعلهم يقارنون بين الوضع الذى كانوا عليه فى عهد المنصور ، وبين ما صاروا عليه فى عهد المهدي . وعرف عن المهدي حبه لحديث النساء حتى صار للجواري نفوذ كبير فى شؤون الدولة ، وخير مثل على ذلك محاربة المغربية خيزران التى تزوجها المهدي وأنجب منها موسى الهادي وهارون الرشيد ، والتى كان قصرها مقصداً لذوى الحاجات فى الدولة . وأحب المهدي الاستماع إلى الغناء ، وحضور جلسات الغناء التى أجزل فيها العطاء للمغنين والسماح لأصحابه بشرب النبيذ فى حضرته ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك أن يوقفهم

عند حد معين، فاندفعوا في تلك الحياة لا يورثون على شيء، مما أعطى الحياة الاجتماعية - وخاصة في بغداد - طابعاً جديداً وثمة ظاهرة جديدة ظهرت في انطواء القبائل العربية على نفسها وضعف نفوذها، أمام تيار الموالى وضغطهم، فأخذت العادات وأساليب الحياة الشرقية تزحف على المجتمع لتحل محل عادات العرب وأساليبهم في الحياة⁽¹⁾.

اختلفت سياسة «المهدى» عن سبقه، فاتسم عهده بالاستقرار والهدوء والتسامح والصفح، فأطلق سراح المسجونين السياسيين، واهتم بإقرار العدل بين الناس، وجلس للنظر في مظالم الناس مستعيناً بالقضاة، وأمر بالإفناق على مرضى الجذام؛ حتى لا يختلطوا بالناس فتصيبهم العدوى، كما اهتم اهتماماً خاصة بالحرمين الشريفين وبكسوة «الكعبة». وقد عفا «المهدى» عن بعض آل البيت ومنحهم الأموال والإقطاعات، وحينما أدى فريضة الحج عام (160هـ = 777م) وزع أموالاً كثيرة على أهل «مكة» و«المدينة» وأصدر عفواً عاماً عن عاقبهم «المنصور» من أهل «الحجاز» لمشاركتهم في الثورة العلوية، واختار خمسمائة من رجال الأنصار وكون منهم حرسه الخاص، كما قام ببيت العيون والجواسيس بالبلاد لرصد أى تحرك معاد للدولة. ورغم ذلك فقد حاول بعض العلويين مثل «عيسى بن زيد بن على» و«على بن العباس بن الحسن» القيام بثورة ضد النظام العباسي، لكنها لم تنجح؛ حيث عاجلها الموت.

أما عن مسألة وراثة الحكم فإنها حلت بنفس الطريقة التي حلت بها على عهد المنصور (بتغليب مبدأ الوراثية) وذلك أن عيسى بن موسى مر بنفس المحنة فضغط عليه المهدي وأتباعه ولحقت به الإهانات والاضطهاد. وبعد التهديد ومحاولات الإقناع عن طريق الفقهاء والقضاة، خلع نفسه في أوائل

1 - إبراهيم أيوب - التاريخ العباسي والخصارى - ص 15.

عام 160هـ/ نوفمبر 776م وجدد بيعة المهدي كما بايع ابنه موسى (الهادي) وكان له ما أراد في مقابل عشرين ألف دينار وقطائع كثيرة أخذها عيسى ثم بايع في عام 166هـ الموافق 782م بولاية العهد لهارون الرشيد بعد الهادي. وأخيراً مات عيسى بن موسى بالكوفة عام 167هـ (قبل المهدي بقليل محرم 169هـ)، وأشهد قاضي المدينة بذلك. اتخذ المهدي الزندقة ذريعة للفتك بالأبرياء. فقد كفانا الجهمشياري مؤونة الحديث عنه؛ حيث قال: إنه في زمن المهدي هذا: «كان أهل الخراج يعذبون بصنوف من العذاب، من السباع، والزنابير والسنانير...» وقد خرج عليه يوسف البرم بخراسان، منكرًا عليه أحواله، وسيرته، وما يتعاطاه.

واجه «المهدي» عدة ثورات من الخوارج وقضى عليها بحزمه وسرعة مواجهته، منها:

- 1 - ثورة «يوسف بن إبراهيم البرم» في «خراسان» عام (160هـ=777م).
- 2 - حركة «عبد السلام بن هاشم اليشكري» في «قنسرين» عام (160هـ = 777م).
- 3 - حركة الخوارج بالموصل بزعمامة «ياسين الموصلي» عام (168هـ = 784م).

ترك «المنصور» بعد وفاته في بيت المال أربعة عشر مليون دينارًا وستمائة مليون درهم، قام «المهدي» بتوزيعها على الناس؛ فشاع بينهم الترف والنعيم واللهو واللعب، كما اتبعه الناس في حبه للآداب والفنون؛ فارتقت الآداب والفنون، وسادت بين طبقات الشعب. وكان «المهدي» أول خليفة يحمل إليه الثلج إلى «مكة» في الحج، كما كان مترفًا في ملبسه ومأكله. توفي «المهدي» عام (169هـ = 785م) وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد قضى في الحكم إحدى عشرة سنة.

الخليفة الرابع: موسى الهادي (169 - 170 هـ = 785 - 786 م):

هو «موسى» ابن الخليفة «المهدي»، تولى الخلافة في (22 من المحرم عام 169 هـ = 5 من أغسطس 785 م).

كان موسى الهادي بجرجان يوم أن مات المهدي فبويغ له في نفس اليوم وأرسلت إليه شارات الملك مع صاحب البريد. وعاد الرشيد - الذي كان مع المهدي - إلى بغداد حيث أخذ البيعة العامة للهادي الذي عاد بسرعة من جرجان (ركب على البريد مجدا فبلغ بغداد في 20 يوماً) ولن تطول خلافة الهادي أكثر من 15 شهراً، شغلت مسألة ولاية العهد بوجه خاص.

وتولى موسى الهادي الخلافة بعد وفاة أبيه محمد المهدي عام 169 هـ/ 785 م لكنه لم يعيش طويلاً، إذ توفي في ربيع الأول عام 170 هـ/ 786 م، فدامت خلافته مدة سنة وشهرين تقريباً. وكان كوالده محباً للهو والغناء، فقرب إليه المغنى الشهير إبراهيم الموصلى العراقى وابنه إسحاق الموصلى. الذى نال خمسين ألف دينار من الخليفة لقاء ثلاثة أبيات لهذا قال إبراهيم: «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب». هذا فضلاً عن حبه للشراب ومجالسه، كما كان الهادي يميل إلى سماع الأدب والتاريخ. ومن ذلك مثلاً مجالسته للمؤرخ الحجازى عيسى بن دأب الذى كان يحدثه عن أخبار البلاد الإسلامية وأخبار الأمم والشعوب. وكانت شخصية الهادي موصوفة بالشراسة والغلظة ورباطة الجأش، إذ يروى عنه أن أحد الخوارج اقترب منه ليقتله وهو بمفرده، فلم يتحرك إلى أن اقترب منه الخارجى، فصاح الهادي «اقتلاه»، فظن الخارجى أن وراءه أحد من الحراس، فالتفت وراءه، عندها هجم الخليفة عليه وانتزع سيفه وقتله.

ولم يختلف موقف الهادي عن موقف أبيه مع الزنادقة. فأخذ يطاردهم، وينكل بهم، ومع هذا الاضطهاد، وما تعرضوا له من تنكيل

وملاحقة لم يستطع أن يضع حداً لنشاطهم . وتبقى مشكلة ثالثة اعتبرها الهادى سيئة بحق خلافته ، ألا وهى تدخل أمه الخيزران فى شؤون الإدارة إلى حد أن الناس وقفوا بباب قصرها جماعات بقصد قضاء حوائجهم لأن كلمتها صارت مسموعة بسبب النفوذ الذى تمتعت به منذ أيام زوجها المهدي وامتد هذا النفوذ إلى عهد الهادى ، إذ سيطرت على أموره واستبدت بالأمر والنهى . لذا أرسل إلى أمه . «ألا تخرجى من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك» . ثم قال لها : «تستوعبى كلامى والله وإلا فأنا أنفى قرابتى من رسول الله ، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو من خدمى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم؟ أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟» إياك وإياك . فانصرفت وهى لا تعقل فقد كانت تستبعد بالأمور به من الهادى وتسلك مسلك المهدي حتى مضى الناس إلى بابها .

وأحس الهادى بخطر أخيه هارون الذى كانت تؤيده أمه خيزران وهذه كانت تتدخل فى شؤون الدولة تحاول حمل الرشيد على التنازل والحد من نفوذ خيزران . والظاهر أن الرشيد كان مستعداً للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر ، وربما تم ذلك لولا صغر ابن الهادى ونصح يحيى بن خالد بن برمك ، الذى كان يتولى أمور الرشيد لمخدومه بعدم الاستجابة لرغبة أخيه الخليفة . وعرف الهادى تأثير يحيى على الرشيد ، فهدده ورماه بالكفر . ولكن البرمكى تمكن من إقناع الهادى بترك هذه المسألة مؤقتاً على الأقل ، مؤملاً إياه بأن الظروف كفيلة بحلها فيما بعد . وذلك أنه طلب إليه ألا يحصل الناس على نكث الإيمان حتى لا تهود عليهم ، كما لفت نظره إلى أن جعفر لم يزل صغيراً ، وسأله كيف يرضى به الناس لصلاتهم وحجهم وغزوهم . ثم أنه رغبه فى أن يكون ابنه ولى العهد التالى .

فأُحد يماطل ويتهرب من أخيه . ولما علم الهادي بما فعله يحيى البرامكي أمر بإلقاء القبض عليه ثمهيداً لقتله . لكن النية عاجلت الخليفة الهادي قبل أن يحقق غرضه ، فتوفي وله من العمر 26 سنة وقد ذهب على حد قول أبلبييف ضحية المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط من قبل مختلف الفئات في الحاشية بدافع المنافسة .

اتصف الخليفة «الهادي» بالغيرة والشهامة والجرأة ، ورفض تدخل أمه «الخيزران» في سياسة الدول كما كانت تفعل في عهد والده «المهدي» .

فقد كان الهادي «يتناول المسكر ، ويحب اللهو والطرب ، وكان ذا ظلم وجبروت» وكان «سوء الأخلاق ، قاسى القلب ، جباراً ، يتناول المسكر ، ويلعب .» وقد قال عنه الجاحظ : «كان الهادي شرس الأخلاق ، صعب المرام ، سوء الظن . قل من توقاه ، وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال . وكان يأمر للمغنى بالمال الوفير الجزيل . .» وقال الجهمشيارى : «كان فظاً قاسياً ، غير مأمون على وفاء بوعد» نعم . لقد كان يأمر للمغنى بالمال الجزيل الوفير - من بيت مال المسلمين - كما يقول الجاحظ . وقد بلغ من إسرافه في إجازة الخلعاء والمغنين ، أن دفع إسحاق الموصلى لأن يقول : «لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة»⁽¹⁾ .

توفي «الهادي» ليلة الجمعة ، نصف ربيع الأول عام (170هـ = نصف أغسطس 786م) وبذلك تكون مدة خلافته سنة وشهراً واثنين وعشرين يوماً .

1 - د . إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 71 وانظر - البغدادى - تاريخ بغداد 6/14 والطبرى

ال خليفة الخامس هارون الرشيد (170-193هـ = 786-809م):

هو «هارون بن محمد المهدي»، ولد «بالري» في آخر ذي الحجة عام (145هـ = فبراير 763م)، وتولى الخلافة وعمره اثنان وعشرون عاماً. ويعد «الرشيد» أشهر خلفاء العباسيين وأبعدهم صيتاً، فقد ملأت أخباره كتب التاريخ شرقاً وغرباً.

ويمثل عصر الرشيد عصر نقلة في المجتمع العباسي من وجهة الإسراف في الترف، ساعد على ذلك استقرار الأمور في الدولة إلى جانب دخل الدولة الضخم حتى بلغ في عهد الرشيد أكثر من سبعين مليون دينار. وتشير المصادر التاريخية إلى وصف الرشيد بالتدين الشديد والمحافظة على التقاليد الشرعية. فقد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة ويتصدق بألف درهم من ماله بالإضافة إلى ما يجود به على الناس. كما أنه لا يتخلف عن الحج سنوياً إلا إذا كان مشغولاً بالجهاد، حتى قيل: كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان إذا حج، حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يجع أحج عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الباهرة. وإذا علمنا أنه عاش جندياً قبل خلافته، وأنه قاد في أكثر من غزوة لبلاد البيزنطيين، وحقق انتصارات باهرة جعلته معروفاً من الناس، ومحبوفاً منهم ومع هذا فإنه لم يخرج عن روح العصر الذي عاش فيه والجو الذي أحاط به. فاشتهر الرشيد بأنه كان يشرب النبيذ وأنه كان يسمع الغناء في مجالس اللهو والطرب ويجزل العطاء عليه، لذلك قرب إليه إبراهيم الموصلي، كما جمعت مجالسه العلماء والقضاة. «فقد كان يحب الفقه والفقهاء ويميل إلى العلماء، ويحب الشعر والشعراء ويعظم في صدره الأدب والأدباء».

والغريب في هذا الأمر أن الرشيد لم يستفد من دروس الماضي، ولم يحسم هذه المسألة فأشرك ابنه معه في الحكم، وعهد إليهما بوراثه الخلافة

بعده، ولم يجنبهما ما سينجم من نزاع طبيعي بينهما من أجل السلطان، مع أنه هو نفسه كاد أن يروح ضحية مثل هذا النزاع مع أخيه الهادي. لاحظ ذلك ابن الأثير الذي يقول: «وهذا من العجائب فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو يبايع للمأمون بعده الأمين وحبك الشيء يعمى ويصم».

كان الصراع بين الحزب العربي والحزب الخراساني على أشده في أيام الرشيد وهذا الصراع استمرار للأوضاع التي كانت سائدة في أيام الأمويين، عندما جعلوا السيادة للعرب. ولم يساووا بين العرب والموالي، الأمر الذي استاء منه أبناء المشرق الإسلامي وأخذوا يتعصبون لأنفسهم وأصلهم. ولما حاربهم الأمويون لم يسعهم إلا أن جعلوا هذه النزعة دعوة سرية، ثم وجدوا في الدعوة العباسية ستاراً وحافزاً لهم. لكن العنصر العربي لم يستسلم لسيطرة المشاركة في ظل الدولة العباسية، لذلك حاولوا أن يجمعوا كلمتهم، ويوحدوا صفوفهم ويصفوا خلافت القبائل العربية بين بعضها. وبالرغم من أن الرشيد أنجب المأمون من جارية فارسية تدعى «مراجل» في ربيع الأول عام 170هـ/ 786م، وأنجب الأمين من ابنة عمه زبيدة بنت جعفر بعده باربعة أشهر في شوال من السنة نفسها 170هـ. فقد رضح الرشيد لضغط الحزب العربي المتمثل في زوجته «زبيدة»، وأمه الخيزران التي يعود لها الفضل في إقناعه بالزواج من ابنة عمه، وإلى حاجبه الفضل بن الربيع، وعهد بولاية عهده من بعده إلى ابنه الأمين 175هـ/ 791م. من جهته، حزب المشرق الإسلامي، وعلى رأسه البرامكة، لم يرضوا بهذا الوضع، فسعوا لدى الرشيد حتى تمكنوا من إقناعه في جعله يعهد بولاية العهد إلى ولده المأمون بعد الأمين عام 182هـ/ 798م. وعلى أن يتولى المأمون ولاية المشرق بعد وفاة أبيه

وبمعنى آخر تقسيم الخلافة إلى خلافتين . وتكرس هذا التقسيم عام 186هـ/ 802م عندما حج الرشيد ومعه ولداه الأمين والمأمون . بكتابه موثيق الإخلاص لبعضهما على ولديه . وفي هذه الموثيق أن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد إليه من بلاد المشرق ، ثغورها ، وكورها ، وجندها ، وخراجها ، وبيوت أموالها ، وصدقاتها ، وعشورها ، وبريدها . وقد سجلت هذه الموثيق وعلقت في الكعبة حرصاً على زيادة قدسيته وقوة تنفيذها ، كما كتب منشوراً عاماً بهذا المعنى⁽¹⁾ .

وكان «الرشيد» قلد «يحيى البرمكى» منصب الوزارة وفوضه في إدارة شئون البلاد ، ومنحة لقب «أمير» ؛ فكان أول من لقب بذلك من الوزراء من المشرق الإسلامى فى «الدولة العباسية» .

اهتم «الرشيد» بإقامة العدل فى الناس ، فأمر بإعادة الأراضى التى اغتصبها أهل بيته فى عهد الخلفاء السابقين إلى أصحابها ، ورفع الظلم عن المسجونين ظلماً ، وقسم أموال ذوى القربى بين «بنى هاشم» كلهم بالعدل ، وأصدر عفواً عن المعتقلين السياسيين ، فأخرج من كان فى السجن من العلويين ، وسمح لهم بالعودة إلى «المدينة» ، ومنحهم الرواتب ، كما أجرى «الرشيد» تعديلات واسعة فى مناصب الدولة فى كل من «مكة» و«المدينة» و«الطائف» و«الكوفة» و«خراسان» و«أرمينية» و«الموصل» .

وأثناء سفر «الرشيد» من «بغداد» إلى «خراسان» وهو فى طريقه للقضاء على ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، اشتد المرض عليه ، وتوفى صباح يوم الجمعة (2 من جمادى الآخرة 193هـ = 23 من مارس 809م ، وعمره خمس وأربعون سنة ودفن بمدينة «طوس» . وقد حكم «الرشيد» البلاد ثلاثة وعشرين عاماً ، بلغت فيها «الدولة العباسية» قمة ازدهارها وأوجها .

1 - جعفر مرتضى العاملى - المرجع السابق ص 118 وانظر السيوطى ص 279 والأغانى 163/5 .

الخليفة السادس: محمد الأمين (193 - 198هـ = 809 - 813م):

هو «محمد بن هارون الرشيد»، ولد بالرصافة وأمه «زيدة» ابنة «جعفر الأكبر بن المنصور»، تولى الخلافة عقب وفاة أبيه «هارون الرشيد» باعتباره ولي عهده، وكان عمره حينئذ ثمانية وعشرين عامًا. تشير مصادر التاريخ إلى أن بداية الخلاف كانت من جانب «الأمين»، حين خالف أمر والده «الرشيد» في مرضه، بأن يكون ما في معسكره من أموال ومتاع وجند لأخيه «المأمون»، في «مرو»؛ مما أحدث أثرًا سيئًا في نفس «المأمون». وكانت الخطوة التالية قيام «الأمين» بتعيين ابنه «موسى» وليا للعهد بدلًا من أخويه «المأمون» و«المؤتمن» فقام «المأمون» بإسقاط اسم «الأمين» من الطرز والسكة، ومنع البريد من الوصول بأخبار «خراسان».

وكان البرامكة يمثلون أحد أقطاب هذا الصراع، تلاهم بعد ذلك وبشكل واضح الفضل بن سهل المؤيد للمأمون (الاتجاه المشرقي)، أما الفضل بن الربيع - وهو مولى - فكان مؤيدًا لأمين (الاتجاه العربي). وهكذا تشكل الاتجاهان: حزب العباسيين ذوي العلاقة المشرقية لهم، مع الأمين، وحزب الخراسانيين ذوي العلاقة العلوية مع المأمون. كان القرار الذي اتخذته الرشيد بتعيين ابنه على ولاية العهد بالتتالي (الأمين ثم المأمون)، وتقسيم الدولة بينهما، قد وضع بذور الشقاق والانقسام بين الأخوين وبين العصبيتين. ونعتقد أن الرشيد كان يتوقع صراعًا وشيكًا بين الأخوين، ولكن إجراءاته لم تؤد إلى ما كان يتوقعه من استتباب الأمن وانصراف كل منهما إلى تسيير شؤون الجزء الموكولة له إدارته ويبدو أن الكفة كانت راجحة لصالح المأمون (فقد كان أخوه الأمين أفسده الدلال وأصابه الغرور وأبطره الغنى وخانه أتباعه الذين لم يحسن اختيارهم، والمخلصون منهم كانوا عاجزين، ولا يوازنون بأنصار أخيه المأمون. إذ لم يفده اعتقاده بأنه متميز من حيث إن أبويه

هاشميان عباسيان، ولم يجر من ذلك شيئاً كبيراً. إلا نعمة الناس لاستهتاره
وخروجه عن التزامه بالعهود بمساعدة الفضل بن الربيع، واستفحال الفوضى
فى عهده، فقد قال الشاعر معبراً عن وضع الخلافة:

أضاع الخلافة غش الوزير وفسق الإمام وجهل المشير
فهذا يدوس وهذا يدار كذاك لعمرى اختلاف الأمور

أما المأمون فكان أنصاره وشيعته أكثر فائدة له من أقربائه الذين خذلوه.
وإذا أضفنا إلى ذلك أن المشرقيين اعتبروا الصراع صراعهم فالتفوا حول
المأمون، فى حين لم يفعل العرب نفس الشيء، أمكننا أن نتنبأ بنتيجة الصراع
الحتمية، أى إبعاد الأمين والقضاء عليه وانتصار المأمون. ومن بين تحديدات
الأمين الصارخة التى صعدت الخلاف بينه وبين المأمون⁽¹⁾:

(1) طلب الأمين من المأمون أن يتنازل له عن جزء من خراسان أى عن
الجزء الذى عهد به الرشيد للمأمون رغم تعهد الأمين على ذلك خطياً.

(2) طلب الأمين من أخيه أن يبايع لموسى بن الأمين قبله. رغم أن
الأمين تعهد بولاية العهد بعده لأخيه، والتزم بذلك أمام الرشيد. وكان
الأمين يحاول إضفاء صفة الشرعية على حكمه، والتقرب من أهل خراسان -
شيعة المأمون - مريداً أن يبين لهم أن خلافه مع أخيه قضية عائلية خاصة يجب
أن لا تمس العامة، بل يرى أن من واجبه رفع الجور عن الرغبة والتخفيف من
أعباء الخراج عليها. ذلك ما نلاحظه من خلال وصيته لسقائده الموجه للقبض
على المأمون، (امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى وقطع
الشجر وانتهاك النساء. ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها
فأظهر إكرامه وأحسن جائزته، ولا تعاقب أخا بأخيه، وضع عن أهل خراسان

1 - محمد نجيب أبو طالب - الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ص 156.

ربح الخراج). ولكن المأمون أيضا، كان يحاول إظهار الأمين بمظهر مغتصب الخلافة وناكث العهد. فكانت حملته الدعائية القوية تتجه في ذلك الاتجاه وركز على جد الأمين وقواده، فأرسل لهم رسائل يذكرهم بالعهد، ويبين لهم أن أخاه ظالم ومعتد ممزق للمواثيق، وقد أثرت تلك العملية في بعض قواد الأمين فأجابوه. تلك الحملات بدأت في مرحلة متأخرة من خلافهما، أما في البداية فكان الخلاف مستورا، تعبر عن ذلك رسائلهما المتبادلة التي لم تظهر فيها صيغ التهديد المباشر والانذار الصريح. ويظهر أن كلا الاتجاهين كانا يبدیان ما لا يضمنانه، فليست دعوة الأمين للمأمون بالحضور إليه بهدف استشارته والاستعانة به، واعتذار المأمون بسبب مهامه الشاقة وحاجة خراسان إلى حزمه وإشرافه، إلا دليلا على تلك المواربة. إن إجراءات الرشيد في تعيين الأمين ومحاولة استفراد الأخير بالخلافة - مع ابنه - والقضاء على نفوذ المأمون ومن وراءه، لم تكن بالأمر الهين على المجتمع الذي عرف حالة تغلب عليها التعايش والتمازج الحضاري منذ أيام الأمويين حتى فترة العباسيين الأوائل حينما توطد ذلك الاختلاط الاجتماعي في القوى الاجتماعية التي كانت بعيدة نسبيا عما يجري من صراعات على السلطة.

فقد هذا التوازن دوره في عهد الأمين، فتأثر بالصراعات السياسية التي بدأت تأخذ بعدا طبقيًا واضحًا. إذ أدت نفقات الأمين الخاصة، واستهتاره بأموال الدولة، فضلا عن انقطاع جزء كبير من إيرادات الولايات الشرقية التي سيطر عليها المأمون، أدى كل ذلك إلى ظهور اختلال واضح في البناء الاجتماعي، فازدادت الهوة اتساعًا بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة، وقد تجلّى ذلك في انقسام العاصمة بغداد إلى قسمين متميزين، أحدهما ثرى بقصوره ومعالمه والآخر فقير محطم. وتعمق ذلك التناقض عند استفحال الصراع بين شيعة الأمين وشيعة المأمون وخاصة عند تعرض بغداد لحصار

عنيف، فالمؤرخون اظهروا لنا طبقة متميزة من فقراء المدينة ومعدميها الرعاع والشطار والعيارين. تلك الطبقة اندفعت تدافع عن حياتها وتقاتل دون أن تعرف لصالح من هي تقاتل، لكن المهم بالنسبة لها هو أنها لا تملك عقاراً ولا مالا فوجدت المجال مناسباً للثورة والانتقام، ولكنها - كما يظهر - ساندت تجار بغداد وحرفييها، فهم في كلتا الحالتين مصدر رزقها، فالتجار يعتمدون على هؤلاء الكادحين المعدمين في خدمات السوق اليومية، وربما كان مصدر دفاعهم عن التجار جاء من دفاعهم عن مدينتهم بعد استلام جيش الأمين فقاوموا ظاهراً قائد جيش المأمون «فذلت الأجناد وتواكلت عن القتال، إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع والطارين وأهل السوق، بل ربما قاتل هؤلاء لاعتقادهم أن الفتنة والفوضى والتمرد واختلال الأمن يؤدي إلى خروج السجناء وحصول المحرومين على جزء مما فقدوه من لقمة العيش. وباعتراف المؤرخين فإن الفقراء هم الذين دافعوا عن بغداد من فوضى الجند في الأسواق، ولعل الموقف الطبقي الحاقد على العيارين وأشباههم أربك المؤرخين في نسبة الفوضى وانتهاب الأسواق إلى العيارين بدلاً من أن ينسبوها إلى الجند المتقاتلين. على أن ذلك في حال حصوله لا يعتبر أمراً سلبياً في تاريخ الفقراء المعدمين. فالطبري وغيره من الذين يسمون التجار ورجال الدولة بـ «أهل الصلاح» و«أهل الستر» يقفون موقفاً أرسقراطياً يبرر لاتجاه الأمين، ويظهر تحيزهم حينما يصفون موقف حثالة الكادحين وصفاً مبالغاً فيه فيقول الطبري: «ونقب أهل السجون السجون وخرجوا منها، وقتن الناس، ووثب على أهل الصلاح الدعار والشطار، فعز الفاجر، وذل المؤمن، واختل الصالح، وساءت حال الناس»⁽¹⁾.

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - نفس المرجع ص 158 وانظر: الطبري - التاريخ - ج 8 ص

وبعد انهزام الأمين لاحق طاهر أنصاره فى ديارهم ونهب جنده الأسواق، يقول الطبرى: «وكان محمد أعطى بنقص قصوره ومجالسة الخيزرانية بعد ظفر الغزاة ألفى ألف درهم، فحرقها أصحاب طاهر كلها، وكانت السقوف مذهبة، وقتلوا من الغزاة والمتهبين بشرا كثيراً. وتظهر لنا حثيات الصراع بين الطرفين، الموقف الانتهازى الذى اتخذه تجار بغداد إثر هزيمة الأمين، فقد تبرؤوا من قائدهم المهزوم، كما تبرؤوا من الشطار والعيارين الذين دافعوا عن مدينتهم، وهذا الموقف كان طبيعياً لأنه لا يخرج عن الملامح التاريخية لسلوك طبقة التجار. يظهر لنا ذلك من خلال نص رسالتهم فى طلب العفو من قائد الجيش المأمونى، ومبايعتهم المأمون وتبرئهم من الطبقات الفقيرة التى لا تملك الدور والعقار. ويبدو أن الموقف الرسمى (الأمين) قد استفاد من انتفاضة العيارين وشغبهم فى دفاعهم عن العاصمة. ولكن ردة الفعل التى خرجت من بين أعيان المدينة ووجهائها وتجارها تمثلت فى تكون جماعات «المطوعة» وهم جماعات من المتطوعين الذين حاولوا تهدئة الأمور وإقرار الأمن متخذين من دعوى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» شعاراً لحملتهم:

«ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها، ومنع كل من يخفر ويحى المارة والمختلفة»، كما يقول أحد المطوعة: «أنا لا أعيب على السلطان شيئاً ولا أعيره، ولا أقاتله، ولا أمره بشيء ولا أنهاء. ولكن أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً ما كان، سلطاناً أو غيره، والحق قائم فى الناس أجمعين، فمن بايعنى على هذا قبلته، ومن خالفنى قاتلته» تلك كانت حركة إصلاحية، ولكنها ظهرت على ما يبدو بعد هروب الأمين، ولعلها لا تختلف كثيراً عن صالح طبقة التجار. وكانت آثار الفتنة وخيمة على بغداد، فقد لحقها الخراب نتيجة لصراع الجيوش وتمرد العامة فى الأسواق والدروب.

يذهب أكثر المؤرخين إلى أن الصراع بين الأمين والمأمون صراع بين العرب والمشرقيين، ويقولون إن العرب كانوا إلى جانب الأمين، والمشرقيين كانوا إلى جانب المأمون، ويدعون أن الأمر انتهى بتغلب المشاركة على العرب وتمكنهم من الحكم. هذا القول مضعف من جهات مختلفة: وإنه لم يكن الصراع بين العرب والمشاركة، وإنما كان بين حزيين. نعم إننا أيضاً مع المأمون - كما يقولون - عدداً من المشاركة كالفضل بن سهل، لكننا نجد أيضاً من الأمين الفضل بن الربيع وهو مولى، كان جده عند عثمان بن عفان واسمه أبو فروة كيسان «ابن خلكان 151/2». ونجد مع الأمين أيضاً على بن عيسى بن ماهان، وهو «شرقي» كما يدل عليه اسمه. وإذا كان إلى جانب المأمون عدد من المشاركة، فإن بين قواده هرثمة بن أعين، واسمه يدل على أنه عربي، هذا والحوادث نفسها تدل على أن العرب لم يكن لهم شأن خاص أكيد بالصراع. والصراع إنما كان بين طائفتين أو حزيين: أحدهما حزب العباسيين الهاشميين مع الأمين، وثانيهما حزب الخراسانيين المشرقيين ذوى العلوية مع المأمون. حصل التطاحن بين الحزيين وأدى إلى النزاع بين الأخوين، وانتهت بقتل الأمين، لكننا نجد أنفسنا على خلاف مع ما يقوله بعض المؤرخين. فى رأينا أن النزاع لم ينته بانتصار المشاركة ذوى النزعة العلوية، بل كان النصر الأخير إلى جانب العباسيين الهاشميين الذين خذلوا مع الأمين أولاً أى أن الأمر عاد إلى العباسيين أخيراً عندما أفاق المأمون إلى نفسه وإلى مستقبل الخلافة، وصحح الأوضاع، وعاد يتألف العباسيين، وأعاد مركز عمله إلى بغداد إليهم أخيراً. والتطاحن بين الحزيين يظهر واضحاً فى الحوادث التى جرت، ويظهر واضحاً بين الأخوين، وما الكتابان اللذان علقهما هارون الرشيد فى الكعبة عهداً على كل من الأخوين إلا دليلين واضحين على هذا التطاحن كما رأينا⁽¹⁾.

1 - د. يوسف العشى - المرجع السابق ص 85.

وأيا كان السبب فالغلطة فيما حصل تقع على عاتق الرشيد، فهو قد بذر بذور انشقاق المملكة، فقسمها بذلك إلى خراسان وغير خراسان، ولعل الرشيد كان قد نسى أن خراسان طامحة إلى الاستقلال في الحكم، فإنها تعتقد اعتقاداً جازماً أن ما فعلته مع العباسيين للوصول إلى الحكم ذهب هدراً، وأن عليها أن تعيد حقها إلى نفسها، ونسى أيضاً أن حول المأمون شخصاً خطراً، هو الفضل بن سهل، وهو رجل من صنائع البرامكة، وممن يقولون بقولهم، ويذهبون مذهبهم؛ وهكذا رصف الرشيد الطريق بدون قصد إلى الخصام بين الأخوين وإلى تشتت المملكة؛ وما كان يريد إلا الخير لولديه. بموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية أن تنقسم إلى قسمين ينارع كل منهما الآخر: الجزء العربى حيث مدينة الخلفاء بغداد، وعلى رأسه الأمين، والجزء الشرقى أى خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة «مرو». ويعود الفضل فى هذا التقسيم إلى الرشيد، كما رأينا، بل ولربما تحقق الانفصال فعلاً بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة لو أن كلا من الابنين احترام وصية أبيه. والظاهر أن هذا الانفصال كان لا بد منه إذ أن المشرق كانت له أمانيه وآماله السياسية التى يعمل على تحقيقها، والتى ظهرت جلياً بقيام الدولة العباسية نفسها، وسنرى فإن المشرق سيحقق استقلاله فعلاً - إن لم يكن شكلاً - على عهد الطاهرين وعلى أيام المأمون. يفهم من ذلك أن مسألة الصراع بين أبناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلى من أجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع العصبى بين العرب والمشاركة. وعلى ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأى كبير فى سير الحوادث بل سيوجه كل منهما رجال يتعصبون لأحد الفريقين. ويدل سير الحوادث هذا على أن ظفر المأمون، وغلبته على الأمين، إن هو إلا انتصار للمشرق التركى على المغرب العربى، يعيد إلى الأذهان قيام أمر العباسيين على أكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب

وتغلبهم على العالم العربى الشامى . أحسن بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل المشرقى الأصل الحديث الإسلام (منذ 5 سنوات) فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى . كان يقول للتميمى نقيمك مقام موسى بن كعب ، وللربيعى نقيمك مقام أبى داود ، وخالد بن إبراهيم نقيمك مقام قحطبة .

أسباب النزاع بين الأمين والمأمون،

بدأ الاختلاف بين الأمين الذى بوع له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الأمين - بصفته صاحب السلطان - الاعتراف بما أوصى به الرشيد، من أن يؤول عسكره وكل ما فيه من الأموال والأمتعة والعدد إلى المأمون . وعمل على أن يعود هذا الجيش بكل أثقاله إليه، بفضل الفضل بن الربيع الذى حضر وفاة الرشيد، وغيره من القواد السذين أرسل إليهم بتعليماته . ولكن يخفف من روع المأمون كتب إليه يهون عليه من الأمر، ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما، وكذلك لأخيها القاسم (المؤمن).

قام ابن الربيع بدعوة الجند إلى الانفضاض من حول المأمون والعودة إلى بغداد . وفعلا أجابه كثير منهم، رغم ما قام به قواد المأمون وعلى رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسوء لهم الوفاء وتحذيرهم الحنث قال ابن الربيع إنما أنا واحد من الجند . نتج عن ذلك أن أشفق المأمون عن حرج الموقف، ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها، والتى تلخص أولا فى الاعتصام بخراسان فى المشرق، إذ الخراسانية أخواله (المأمون) وهم بحكم قرابتهم هذه لم ينقضوا البيعة التى له فى اعناقهم . ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء إلى الحق والعمل به وإحياء السنن . ثم الاهتمام شخصياً بأمور الدولة ورد المظالم وإظهار التقشف والزهد . وبدأ تنفيذ

هذا البرنامج بعمل موفق، وذلك أنه وضع أو خفض ربح الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد (قالوا ابن أختنا وابن عم نبينا). كما أنه فى نفس الوقت الذى عمل فيه على توطيد مركزه فى ولاياته الشرقية، بأن كتب إلى أخيه وعظمه وأهداه الهدايا. أما عن الأمين فإنه من جهته لم يرض عن موقف أخيه، وعمل على إعادة الوحدة للدولة، وعلى أن يحقق لنفسه السيادة الفعلية، وبدأ ذلك على حساب الأخ الثالث، وهو القاسم (المؤمن) الذى كان يلى الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته وأقره على قنشرين والعواصم فقط. وكانت هذه هى الخطوة الأولى. وفى السنة الثالثة 194هـ (810م) خطا الخطوة الثانية، وكان فيها تهديد مباشر للمأمون وما يمكن أن نسميه بتمهيد للإغارة على حقوقه فى وراثة العرش والخلافة. وإذ أمر الأمين - بإغراء وزيره الفضل بن الربيع - بالدعاء لابنه موسى، الذى كان طفلاً صغيراً فى خطبة الجمعة إلى جانب الدعاء لأخويه⁽¹⁾.

لم يخلص الحزبان أحدهما للآخر، ولم يخلص الأخوان النية فى تنفيذ العهد. إذا نظرنا فيما فعل الرشيد وفى الحوادث التى جرت قبل ذلك، فإننا لا نجد أثراً للخصام بين العرب والمشاركة. لعله حدث خصام بين المشاركة والعباسيين، بين خراسان والعراق بعد ذلك، لكن الأمور حتى ذلك الوقت كانت تفسر باختلاف حزينين: حزب عباسى وحزب مشرقى يميل إلى العلويين - كما رأينا - ويعد أن وضعت العهود، وأزيع البرامكة لم يخلص كل حزب للحزب الآخر، ولم يتهادن معه، بل بقى الشقاق بين الأخوين، يشيره من جهة، الفضل بن الربيع، ومن جهة الفضل بن سهل، وكان المأمون خائفاً على نفسه من أخيه «الأمين».

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 111.

وبعد أن فعل الفضل بن الربيع ما فعل ، وجد أنه بذلك أعلن عداؤه للمأمون ، فكان عليه أن يسير في خط ذلك العداء ، وإلا وقع بين فكى الأسد حين يتقل الأمر إلى المأمون . فصار يوغر صدر الأمين على أخيه ، ويحسن له أن يعفى أخاه من ولاية العهد ، وأن يوليها ابنه موسى . وكان الفضل بن سهل يوغر صدر المأمون أيضا على أخيه ، ويظهر له نقضه للعهد ؛ وصار الأمين يرسل المأمون ليخلع نفسه وكاد المأمون أن يرضى بخلع نفسه لولا أن الفضل بن سهل ضمن له الخلافة . وكيف يضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون والجيش ليس بين يديه ، والأمين هو الخليفة وصاحب الأمر ؟ ليس بين أيدينا عن الفضل بن سهل قول يفيدنا بالكشف عن رأيه في ذلك الضمان ، لكننا نستطيع أن نستشف فكرته في ذلك من مجرى الحوادث ؛ لعله أقنع المأمون برأيه على الوجه الآتى : إذا أقدم الأمين على محاربة المأمون ، فإن جيش خراسان الموجود عند الأمين لن يخلص له بأى حال ، فهو ميال إلى شيعة المأمون ، لأن المأمون في خراسان بين أخواله ، وهو يحسن معاملة الشعب وله منزلة كبيرة عندهم . لذا فإن الجيش الخراسانى في العراق لن يفيد الأمين ، وسيكون سندا للمأمون في المستقبل . إن الأمين من جهة أخرى ليس صاحب سياسة وحنكة ، فهو رجل لعوب منطلق إلى لذاته ، فلا يستطيع أن يضمن الجيش إلى جانبه ، وسيضطرب أمره حتما إذا حاول المأمون وأصحابه إفساد الجيش عليه . إن الأمين ليس محبوبا في الكوفة والبصرة والمدينة ، ففي هذه البلاد عدد كبير من أشياع العلويين . هؤلاء الأشياع هم أقرب إلى المأمون منهم إلى الأمين ، لأن حزب الأمين من العباسيين ، أما حزب المأمون فهم أهل خراسان من المشرق الإسلامى ، نعم إن أهل خراسان ليسوا شيعة ، ولكنهم يستطيعون أن يلتفوا حول الشيعة وإن يتقربوا إليهم . وبهذا الاتفاق يضمن المأمون إلى طرفه عددا كبيرا ، ويجعل موقف الأمين حرجا . هذا

العرض للأمور مقنع للمأمون. لاسيما أن المأمون يعتمد على عهد صحيح أقامه له أخوه في عهد والده، وهو ينص صراحة أن الأمر يكون للمأمون إذا أخل الأمين به⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي أن لا يسكت المأمون - تحت ضغط وزيره الفضل بن سهل هو أيضا - على هذا العمل غير الودى. أجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد، وقطع كل علاقة به وأسقط اسمه في الطرز ومن النقود وقطع عنه البريد. وزاد ذلك من تأزم الموقف إذ كشف الأمين عن نواياه، وأرسل بعثة إلى المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد. وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة (تقديم موسى بن الأمين عليه) وربما في ولايته للمشرق طلب إليه أن يتنازل عن بعض كور خراسان وأن يكون له عنده صاحب البريد يكاتبه بالأخبار كتب له المأمون: «إنما أنا عامل من عمال أمير المؤمنين وعون من أعوانه أمرني الرشيد - معناه تمسكه بوصية أبيه - بلزوم الثغر ولعمري أن مقامى به أرد على أمير المؤمنين وأعظم غناء للمسلمين».

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون إجابة مطالب الخليفة، كما لم يوافق حزبه إطلاقا على خروجه من خراسان، هذا رغم أن الموقف السياسى للأطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر، فإذا كان رافع بن الليث قد مال إلى الاستسلام والطاعة فإن غيره كان قد أعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية الفارلوق على سيحون وخاقان التبت، وملك كابل الذى كان يستعد للغارة على خراسان، وملك أترار (مركز لغز) الذى منع الضريبة.

واستطاع بن سهل أن يدبر الأمور تديسراً حسناً، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة وذلك أنه بدأ بأن استمال أحد أفراد بعثة الأمين وهو العباس بن

1 - د. يوسف العشى - المرجع السابق ص 88.

موسى بن عيسى حفيد عيسى بن موسى الذى خلع على عهذى المنصور والمهذى - وعده كسرة الموسم ومواضع من مصر؁ فكان يكتب إليهم بالأخبار من بغداد. ثم أنه شدد الحراسة على حدود خراسان ومنع العبور إلى ولاياته إلا للأشخاص المعروفين. أما فيما يتعلق بملوك الأطراف من الوطنيين فإن الفضل نصح المأمون بإرسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما على بلادهما؁ ويعدهما بالمساعدة ضد أعدائهما؁ وأن يرسل هدايا إلى ملك كابل؁ وأن يعفى أمير اترار من جزية عام. وفعلا نجحت هذه الإجراءات فى استتباب الأمن والسلام فى هذه النواحي.

خلع المأمون:

حاول الأمين إنفاذ الرسل لإقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا من حرية الاتصال بأهل البلاد. حفظوا فى حال سفرهم وإقامتهم من أن يخبروا أو يستخبروا. عندئذ رأى الأمين أن القطيعة قد تمت وعمل على أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال أساليب العنف. وفى أوائل عام 195هـ الموافق 810م أعلن خلع المأمون من ولاية العهد؁ وأخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه «الناطق بالحق»؁ وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ورسائل؁ وعهد بإدارة شئونه وتأديبه إلى على بن عيسى بن ماهان وإلى خراسان السابق ثم عهد لابنه الآخر عبدالله ولقبه القائم بالحق». كما أعلن عدم صلاحية النقود التى ضربها المأمون والتى لا تحمل اسم خليفة بغداد للتداول. وأتبع الأمين ذلك بأن أرسل إلى الكعبة وأتى بكتابى العهد الذين كتبهما الرشيد ومزقهما. خرج من حيز الكلام إلى حيز العمل وكلف على بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولى العهد الجديد بالسير إلى خراسان للقبض على ولى العهد المخلوع؁ وتنفيذ ما اتخذه من إجراءات ضده.

واتخذ الصراع بين الأخوين فى هذه المرحلة صورة المراسلات والسفارات المتبادلة حول العهد المعلق فى الكعبة. ذلك أن المأمون رأى وفقاً للعهد ومواريقه السابقة أن يستقل بشؤون خراسان خلال حكم أخيه الأمين. أما الأمين فقد رأى بحكم وضعه كخليفة، أن من حقه السيطرة التامة على كامل أجزاء الدولة، فى المشرق، كما فى المغرب، وإن طلب أخيه المأمون الاستقلال يعنى إقامة دولة ضمن الدولة، وهذا غير جائز فى أصول الحكم ورد الأمين على أخيه المأمون بأن ولايته على خراسان لا تعنى اقتطاع هذا الجزء المهم عن جسم الدول وأصر على وضع نظام بريد تابع له فى خراسان، ليطلع عن طريقه أولاً بأول على ما يجرى فى خراسان من أمور بحيث تظل مرتبطة بقلب الخلافة، ويظل الخليفة مشرفاً على أمورها مطلعاً على خفاياها. وطالت عملية الأخذ والرد بين الأخوين. وكثر تبادل المراسلات بينهما مع إصرار كل طرف على التمسك بموقفه فى عناد وإصرار⁽¹⁾.

امتنع المأمون من خلع نفسه، وكتب كتاباً فيه تذكير للأمين بعهوده ومواريقه. إن الأمين لم يتبصر عواقب الأمر، بل وجد الوسيلة إلى نقض العهد وتمزيق الكتابين، وإلى تولية ابنه موسى. يعنى هذا أن الأمين والمأمون أعدا نفسيهما للحرب.

ولا شك فى أن اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختياراً موفقاً، فالرجل معروف بسوء السيرة فى خراسان لجشعه فى ابتزاز الأموال حتى اضطر الرشيد إلى عزله بعد أن جمع ثروة طائلة، وبعد أن كان يقاسمه فى استغلاله للبلاد. والظاهر أن الأهواء الشخصية قامت بدورها فى هذا الاختيار، فابن ماهان كان يطمع فى العودة إلى منصبه القديم المغربى، وربما أراد الأمين أن يكيد لأهل خراسان فولاه هذا الأمر نكاية فيهم. ولكن بلغ

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 73 وانظر: الأخبار الطوال والطبرى 374/8.

عدم التوفيق، هذا حدا قيل معه أن عينا للفضل ابن سهل هو الذى أشار
بإنفاذه حتى يقاومه أهل خراسان.

بداية الصراع،

سار على بن عيسى على رأس 50 ألف رجل، وخرج الأمين ووجوه
أهل دولته لوداعه. واتجه جيش بغداد نحو «الرى»، حيث كان طاهر بن
الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفع ويستعد للقتال. وحاول على بن عيسى
أن يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين وإثارتهم، هذا ولو
أننا لانعرف إلى أى حد نجحت هذه الخطة رغم ما يقوله الكاتب من أن هؤلاء
الملوك أجابوه إلى قطع طريق خراسان. ولكن المحقق أن ابن ماهان استهان
بأمر طاهر، إذ تقول النصوص بأنه عندما طلب إليه أصحابه بث العيون
وعمل خندق، قال: «مثل طاهر لا يستعد له». وخرج طاهر من مدينة «الرى»
فى جيش قليل العدد (نسبياً 4 آلاف) حيث عسكر على بعد قليل منها (5
فراسخ) كما حرض جنده على القتال، خالعا الأمين داعياً بالخلافة للمأمون،
وكان الغرض هو إعطاء موقف جيشه صفة شرعية حتى لا يخيل للجنود أنهم
يقفون موقف الخارجين على صاحب الأمر. واتخذ كلا من الجيشين تشكيل
القتال ووقف الواحد منها أمام الآخر.

وأخطأ الأمين خطأ كبيراً، فإنه - بدلاً من أن يولى جيشه رجالاً قديراً
فاهماً عارفاً بالأمور - ولى على بن عيسى بن ماهان، وهو قائد مكروه عند
الخراسانيين الذين أقام عندهم والياً أمداً من الزمن، وكان قد ظلمهم، وجمع
الأموال الكثيرة منهم. هذا الرجل الفاشل ولاه الأمين قيادة الجيش، وكان
الجيش خراسانياً فى معظمه؛ وكان عدده يقرب من خمسين ألف مقاتل. أما
المأمون فقد ولى القيادة طاهر بن الحسين، وكان من أعظم القواد أرسل معه
جيشاً عدته أربعة آلاف، يلاحظ أن الفرق بين الجيشين كبير جداً، حتى إن

بعض مؤرخينا المحدثين يشكون فى صحة هذه الأرقام . التقى الجيشان وكان على بن عيسى محتقراً طاهراً وجيشه ، معتزاً بعدد أفراد جيشه . وقع القتال وانتهى الأمر بمقتل على بن عيسى ، لكن جيش الأمين لم يكن يحارب عن قناعة مع على بن عيسى ، بل قاتل قتالا رخواً ، الأمر الذى مكن جيش طاهر من التغلب عليه⁽¹⁾ .

بدأ طاهر بمظاهرة سياسية بأن حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها على رمح ودعا على بن عيسى إلى تقوى الله فى البيعة التى أخذها ، ولما خرج أحد أصحاب ابن ماهان عليه بالسيف أظهر شجاعة فائقة ، إذ حمل عليه وأخذ منه السيف بيديه وصرعه ، ولهذا سُمى طاهر «ذو اليمينين» . وفى هذه الأثناء حدثت مفاجأة سيئة بالنسبة لطاهر ، وذلك أن أهل «الرى» أغلقوا باب المدينة دون عسكره ، ولكن يظهر أنه كان يتوقع مثل هذا منهم ، ولذلك فضل الخروج والقتال بعيداً عن المدينة ، فأمر أصحابه لاشتغال بمن أمامهم فقط . وبدأ القتال فى صالح على بن عيسى فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة ، وعرجت ميسرته على ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهراً أظهر كفاءة عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف فى عضده ، فأمر أصحابه بالقيام بهجوم خاطف (حملة خارجية) على قلب على بن عيسى . وبفضل ذلك الهجوم القوى تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناح ابن ماهان ، وكثر القتل فى أصحابه وسقط هو قتيلاً بضربة سهم فى الميدان . ولم يتخذ المنهزمين إلا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم إلى معسكر طاهر ، بعد أن أمنهم⁽²⁾ .

1 - د . يوسف العشى - المرجع السابق ص 88 .

2 - د . سعد زغلول - المرجع السابق ص 115 .

الزحف على بغداد:

بعد أن ظفر المأمون وجيشه بجيش الأمين، جمع جيشاً كبيراً ووجهه إلى بغداد لضرب الأمين والقبض عليه، ولم يكن يدري الأمين أن ما حدث خطير للغاية. بل اضطرب أمره، واقتصر على توزيع المال الكثير على الجيش، لكن الجيش لم يكن مخلصاً له، حتى أن الحسين بن علي بن ماهان، وثب على الأمين وألقى القبض عليه ووضعته في السجن، وكاد ينتهي أمره، لولا أن أنصاراً له أنقذوه، وألقوا القبض على الحسين. عاد الأمر للأمين مرة أخرى لكنه كان فاقد الإرادة، مضطرباً، لا حول له ولا قوة.. وطبيعي في هذه الحال أن يستطيع جيش المأمون، وعلى رأسه هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين، دخول بغداد⁽¹⁾.

كانت هذه الواقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من «الري» إلى بغداد، تعيد إلى الذهن الحملة المظفرة التي قام بها قحطبة بن صالح من خراسان إلى العراق. وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولى «همدان»، والذي كان يأمل أن يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان. هزمه طاهر مرتين، وحاصر مدينة «همدان» حتى ضجر أهل المدينة، فطلب عبد الرحمن الأمان وخرج عن المدينة، ولكنه كان يضمّر الغدر بطاهر إذ شن عليه هجوماً شديداً يائساً انتهى بقتله وهزيمة أصحابه. كان هذا الرجل متعصباً للأمين ضد المأمون في أول الأمر فقال لا يرى أمير المؤمنين وجهه أبداً وبعد الاستيلاء على همدان عمل طاهر على تأمين ظهره قواته عن طريق احتلال «قزوين»، ولم ينتظر قائد الأمين وجيشه الكثيف وصول طاهر إذ أنه وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتى وصل إلى قرب «حلوان»، حيث عسكر هناك. وكان للانتصارين اللذين

1 - د. يوسف العشي - المرجع السابق ص 98.

أحرزهما طاهر أثرهما الكبير في إضعاف الروح المعنوية لدى قواد وجيوش الأمين. فبعد أن بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب، هو أسد بن يزيد بن مزيد، وبعد أن حرضه من أجل المحافظة على قوة الشعب العربي. فشل في تسيره إذ كان للقائد العربي مطالب مالية لم يقابلها الأمين بالرفض فقط بل أمر بحبسه كذلك. وأخيراً نجح في تسير أسد، وهو أحمد بن مزيد حرب طاهر، وسير معه عبدالله بن حميد بن قحطبة، ولكنهما لم يتقدما إلى أبعد من «خانقين». واكتفى طاهر بأن ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون ولم يزل يحتال حتى وقع الاختلاف في معسكر أعدائه، وقاتل بعضهم بعضاً حتى اضطر قائد بغداد إلى الرجوع عن «خانقين» دون ملاقات طاهر الذي تقدم ونزل حلوان نفسها. وفي هذه الأثناء وقعت بغداد (فريسة للفوضى)، وبلغ من حرج مركز الأمين أنه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عنه، وأكثر من هذا أنه لم يجد قائداً غيره للقيام بحرب المأمون، فوجهه لذلك. ولكن الحسين كان قد فقد الثقة في موقف الأمين فحاول الهرب إلا أنه أخذ وقتل. وظهر الفشل في حرب بغداد بهروب الفضل بن الربيع، وكان القوة المحركة لهذا الحرب واختفائه بعد قتل الحسين. ظهر بجلاء إذن أن موقف بغداد ميئوس منه، وكان من الطبيعي أن تتقدم جيوش خراسان بسهولة وألا يضادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة، فتمكن من الاستيلاء على «الأهواز»، بعد أن حاول واليها الدفع عنها فلقى حتفه، كما أن طاهراً أصيب في هذه المعركة بجراح بليغة (فقطعت يده). وباستيلائه على «الأهواز» تمكن من السيطرة على «اليمامة» و«البحرين» و«عمان» على الخليج العربي من شبه جزيرة العرب وأرسل إليها عمالاً يتولونها من طرفه. واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتى أتى واسطاً التي استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة. ومنها أرسل أحد قواده إلى الكوفة وكانت

قد خلعت الأمين واعترفت بخلافة المأمون (كان عليها العباس بن موسى صنيعة ابن سهل)، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها⁽¹⁾.

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء على كل الأراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والى البصرة خضوعه له، وأعقبه والى الموصل. وبهذا أصبحت بغداد شبه محاصرة وانقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية، وتم خروج كل بلاد العرب جميعاً من سلطان الأمين، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون ورغم أن موقف الأمين كان لا يشير بأى أمل إلا أنه ظل جامداً في تصرفاته لا يريد سوى التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة (لم يصبح لها اتصال إلا ببلاد الشام المضطربة). فهو لا يريد الخروج منها - كما نصحه بعض الناس - ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام، ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة أعدائه في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه - إذا كان هناك ما يمكن إنقاذه. في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون، وصارت تقترب من بغداد شيئاً فشيئاً، وكانت كلما قربت اضطرب أمر الجيوش البغدادية وانسحبت أفرادها. هذا ما حدث بالمدائن (على بعد: 4 كم في بغداد) حيث نزل طاهر (بصرصر) وما حدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين. كل هذا والأمين لا يفقد الأمل، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها على استعادة دولتها المفقودة: ففي محاولة أخيرة عمل على استمالة جيوش طاهر ببذل الأموال والتلويح ببرق الذهب، ودس بينهم الجواسيس. ونجحت التجربة جزئياً إذ شغب بعض الجند على طاهر وانضم فريق منهم إلى جانب الأمين (حوالي 5 آلاف)، ولكن النجاح لم يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ تمكن طاهر بسرعته من السيطرة على رجاله، وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلبأ إلى داخل المدينة التي أصبحت مطوقة تماماً

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 118.

من جميع الجهات . وفلت زمام القواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع وإلحاح - من يدى الأمين، وعمت العاصمة الفوضى . فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب .

رغم حالة الفوضى التى عمت بغداد لم يكن من السهل أخذ المدينة التى بناها المنصور لتكون أولاً وقبل كل شىء معسكراً لجنوده وملجأً يستقر فيه فى أمان من مفاجأة الأعداء . فالمدينة سورها الضخمان . والخندق الممتد بينهما، ثم هى مقسمة بعد ذلك إلى أحياء (أرباع) شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص . بعد ذلك هناك الأحياء والأسواق خارج الأسوار وهى مكتظة بالمباني والسكان ويمكن الاعتصام بها . عرف طاهر ذلك وعمل على ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم . فقسم دائرة الحصار إلى أربع مناطق، وعهد بكل منطقة إلى قائد: ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية (وراء دجلة) بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الأنبار (باب الكوفة) . وصمم الأمين من جهة على المقاومة المستميتة دون نظر إلى العواقب مضحياً بمدينة الخلفاء العالمية . فلما أحوجاه المال ضرب آنية الذهب والفضة وفرقها فى أصحابه، ولما خرجت عليه بعض أحياء المدينة أمر بإحراقها رمياً بالنفط والنييران وبالمجانيق . ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضاً بالنسبة للأحياء التى ظلت تقاومه وسماها دار النكث (أهل الأرباض ومدينة المنصور وأسواق الكرخ والخلد، لامتلائها بالعامة (والغوغاء) . كما أنه لجأ إلى إرهاب الأعيان الذين لم يخرجوا إليه من الهاشميين وكبار القواد فى أموالهم وأملاكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة . ولم يمض وقت طويل حتى انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال، كما استاء من كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق، فى أعداء النظام والأمن ويسلبون ويقاومون جنود

طاهر. ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أو كانوا يحملون أسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة، ومعها المقاليع فإنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما، بل وأكثر من هذا تمكنوا أثناء قتال الشوارع والبيوت، من أن يلحقوا بهم فى بعض الأحيان خسائر فادحة وأن يحرروا بعض الانتصارات أيضا. واتخذ طاهر إزاء هذه المقاومة إجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء (ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وريض حميد ونهر كرخايا). حتى عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة إلى الجلاء عنها. وبعد ذلك عمد إلى منع الأقوات عن المدينة (صرف السفن التى حمل فيها القوات إلى الفرات) فغلا السعر وأصبح أناس فى ضيق شديد⁽¹⁾.

سقوط بغداد ونهاية الأمين؛

وأخيراً تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل على حصار مدينة المنصور - المدينة الملكية وسط بغداد - حيث كان الأمين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد أن فارقه كثير من جنده وجواريه، وأحاط قصورها (قصر زبيدة وقصر الخلد) وبالمجانيق. ورغم هذا الضيق الشديد الذى وقع فيه الأمين فإنه لم يتخل عن عاداته من الانصراف إلى الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى - وربما وجد فى ذلك بعض التخفيف من محنته، وكان هذا إيذانا بالنهاية وإذ لم يعد أمامه سوى الاختيار بين إحدى شيئين: إما القيام بمحاولة بائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقى لديه من الخيل، وإما الاستسلام وطلب الأمان. ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال يزدادوا عزمًا كلما ازدادت الصعاب شدة فإنه يكن إلى طلب الأمان. وكل ما فعله أنه لم يرض أن يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 120.

هرثمة بن أعين. وكان من الطبيعي أن يشير ذلك طاهرا صاحب الحصار. وتمكن الطرفان من إيجاد حل ذلك، إذ اتفق على أن يدفع الأمين شعار الخلافة - الخاتم والقضيب والبردة - إلى طاهر. وأتى هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الأمين إليها (وحده) ولكن طاهرا لم يكن ليرضى أن يفوقه شرف استسلام الخليفة فدبر إغراق الحراقة بأيدي أصحابه تدييرا سافرا. وتنتهى قصة الأمين نهاية مأساة روائية (تراجيدية) بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس في إحدى الدور وفي ظلام منتصف الليل الذى تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه، فى يوم الأحد 23 المحرم عام 198هـ) ويسيروا برأسه إلى طاهر الذى يرسلها بدوره إلى المأمون صاحب العرش دون منافس⁽¹⁾.

استسلمت بغداد إذن، وفى يوم الجمعة التالى (28 من المحرم) دخل طاهر بغداد وصلى الجمعة ودعا للمأمون. وكان المتوقع أن تهدأ الأحوال ويستتب الأمن وتستقر الأمور بعد موت الأمين وخلاصة الأمر للمأمون، هذا ما لم يحدث، فالمسألة كانت أكثر من ذلك تعقيدا. إذ معنى انتصار صاحب الولايات الشرقية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق. وفعلا لن يدخل المأمون بغداد إلا بعد ست (6) سنوات قضائها فى عاصمة ولايته الشرقية «مرو». وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية ألوانا من الاضطراب وصفوفا من الفتن والثورات. وذلك حتى يعود الخليفة من جديد إلى عاصمة الدولة إلى بغداد. فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بأرزاقهم ونادوا بموسى ابن الأمين. وظن طاهر أن فى الأمر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم على التنكيل بأهل الأرباض لولا تدخل الأعيان واعتذارهم

1 - د. سعد رغلول - نفس المرجع ص 121.

إليه . وعندئذ حمل طاهر ولدى الأمين وهما موسى وعبدالله وأمر بتسييرهما إلى المأمون بخراسان . وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق إلى الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلي عن كل فتوحاته ، من : كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن للحسن بن سهل أخى الوزير الخطير الفضل ، الذى استعمله المأمون - بإيعاء الوزير من غير شك ولم يفعل طاهر سوى مدافعتة بتسليم الخراج حتى وفى الجند أرزاقهم . وبعد ذلك كان على طاهر أن يسير حسب أوامر الحسن ابن سهل إلى «الركة» على رأس قوات غير كافية لحرب أحد ثوار الشام من رجال الأمين ، وهو ابن شيث (نصر بن سيار) الذى غلب على نواحي حلب وما جاورها من الجهات ، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقى يغى التغلب عليه . وفى نفس الوقت ولى طاهر الولايات المضطربة ، والتى لم تكن قد دخلت فى الطاعة بعد ، وهى : الموصل والجزيرة والشام والمغرب . أما عن هرثمة بن أعين فسيكون مصيره الموت بعد قليل⁽¹⁾ .

وقد دامت خلافة «الأمين» أربع سنوات وثمانية أشهر وخمسة أيام .

الخليفة السابع: عبدالله المأمون (198 - 218هـ = 813 - 833م)

هو «عبدالله بن هارون الرشيد» ، ولد فى منتصف ربيع الأول عام (170هـ الموافق أغسطس 876م) وأمه «أم ولد» من المشرق الإسلامى تسمى «مراجل» ، وكان يكنى «أبا العباس» ، ويلقب بالمأمون .

واختلف المأمون عن أخيه الأمين فى أنه لم يستسلم للذاته وشهواته ، بل انصرف إلى العلم والأدب والفلسفة ، وشغف بالجدل فى المسائل الفقهية والدينية . قال عنه ابن طباطبا : «أنه كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء

1 - د . سعد زغلول - نفس المرجع ص 122 .

الرجال، وله اختراعات كثيرة في مملكته، ومنها أنه كان أول من فحص منهم علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وحل إقليدس، ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب، وقرب أهل الحكمة...» ولكن هذا لم يمنع المأمون عن شرب النبيذ والاستماع إلى الغناء والطرب وبخاصة غناء إسحاق بن إبراهيم الموصلي الذي قربه إليه، فأدى ذلك إلى انتشار جو من اللهو والاستمتاع بالغناء والشراب والملذات سيطر على أهل بغداد في عهد خلافة المأمون.

ونشأ «المأمون» نشأة إسلامية، وتلقى العلوم العربية، وتدرّب على فنون القتال والتزال وقيادة الجند، كما أسند والده «الرشيد» إلى وزيره «جعفر البرمكي» مهمة الإشراف على تنشئته، وقد أظهر المأمون نبوغًا خلال دراسته. ولما تولى «المأمون الخلافة» عزم أن يقدم القدوة الصالحة والسيره الحسنة في الناس حتى يقتدى به رجال دولته، وكان يقول: «أول العدل أن يعدل الملك في بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى». وقد ظل بخراسان ولم يأت بغداد إلا عام 204هـ الموافق 819م. كما اتصف «المأمون» بالعفو والحلم حتى اشتهر بذلك وهو القائل: «لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالجرائم، وأخاف ألا أؤجر عليه». يعنى لكونه طبعًا له يستلذ به.

الاضطرابات في بغداد:

أما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة وألقيت تبعه عدم مجيء الخليفة إلى العاصمة على ابن سهل، وانتهاز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت فثاروا ضد الحسن بن سهل، وتمكنوا من طرده هو وعماله (ونادوا بإسحاق بن موسى الهادي نائبًا للمأمون ببغداد). وحاول الحسن إرضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة. وخرج

قائد الحسن بن سهل عن بغداد، وسار الحسن نفسه من المدائن إلى واسط في أوائل عام 201هـ. وفكر الهاشميون وأهل بغداد من الغاضبين على الحسين بن سهل في مبايعة منصور بن المهدي، وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مخلصًا للمأمون فأبى. وأخيرا رضى أن يضبط الأمور باسم المأمون أي أن يكون نائبًا له ببغداد والعراق (كانوا يقولون لا نرضى بالمجوس بن المجوسى).

إزاء اضطراب بغداد هذا، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والنهب والمفاسد، من قطع الطريق إلى أخذ النساء أو الصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الأمور، قامت حركة شعبية تهدف إلى نشر الأمن والطمأنينة وحسن المعاملة بين الناس. واتخذ القائمون بهذه الحركة المبدأ الإسلامى الشهير، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعاراً لهم. معنى ذلك أن الحركة كانت في أول أمرها عبارة عن دعوة إلى التقوى ولزوم أوامر الدين، هذه الدعوة ستعطى أعمال الجماعة عندما تضرب على أيدي الفساد صفة شرعية، إذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الأمر الشرعى وأول من فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش. دعا هذا الرجل جيران وأهل محله إلى معاونته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بوجه أصح على تحقيق النصف الثانى من هذا المبدأ النهى عن المنكر. وفعلا قاتل الفساق وتمكن من هزيمتهم. كل هذا فى حدود الاعتراف بسلطان ولى الأمر. وقام بعد ذلك رجل آخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفاً فى عنقه ودعا الناس لمناصرته فى دعوته. ولكن لما كان كثير من أصحاب هذين الداعيين من عامة الناس وغوغائهم فإن منصور بن المهدي الذى دخل بغداد قاومها وهزم أصحابها. وفى هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل وأهل بغداد، من أجل تأمينهم على أن يعطى لهم وللجند من الثوار الأرزاق. وفعلا تم الاتفاق على ذلك وعاد الحسن بن سهل إلى بغداد 13 من

شوال عام 201هـ، إلا أن سهل بن سلامة ظل على ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتهج «المأمون» سياسة واعية تقوم على أسس واضحة منها:

1 - تأليف القلوب بالعفو والعطاء، وقد عد «اليعقوبي» سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها القتل عند أمثال «المنصور»، لكنها قوبلت عند «المأمون» بالعفو.

2 - العناية بالعلم والعلماء كان للمأمون وله بالأمور العلمية والفلسفية، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من «بيزنطة» لحضورها، وكان يتصيد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة، ويجعل حصوله عليها شرطاً من شروط الهدنة ووقف القتال مع الروم، كما أقام «بيت الحكمة» وجعل فيها مكتبة ضخمة، وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له نحو سبعين مترجماً. ظل «المأمون» خليفة للمسلمين عشرين سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً، وقد توفى في 18 من رجب عام 218هـ الموافق 833م.

الخليفة الثامن: المعتصم بالله (218 - 227هـ الموافق 833 - 842م):

هو «محمد بن هارون الرشيد»، ولد في شعبان عام 180هـ الموافق أكتوبر 796م)، وأمه جارية تركية اسمها «مارده»، وقد تولى الخلافة عقب وفاة أخيه «المأمون».

وتولى أبو إسحاق محمد المعتصم بالله مصر والشام في عهد أخيه المأمون. فأظهر من ضروب الشجاعة وقوة الشكيمة ما جعله موضع ثقة أخيه فولاء عهد رفض غالية الجند في بداءة الأمر مبايعة المعتصم بالله بالخلافة، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، لكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة

احتراماً لوصية أبيه⁽¹⁾، فحذا الجيش حذوه. وبذلك بعد وفاة المأمون لم يعتل العرش ابنه العباس بل اعتلاه أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم بن الرشيد، الذى كان يلى مصر حتى ذلك الوقت والذى أوصى له المأمون بالخلافة من بعده. وعهد المأمون هذا بالخلافة لأخيه بدلاً من ابنه يدل على أنه لم يكن مهما كثيراً بأن تكون الخلافة فى عقبه - كما كان الحال بالنسبة لأسلافه - وأنه كان زاهدا فعلا فى السلطان أيام ولى عهده الطالبي وأنه كان يفكر فى ذلك الوقت فى حل المشكلة العلوية العباسية. ولعصر المعتصم أهمية كبيرة فى تاريخ الأسرة العباسية بصفة خاصة وفى تاريخ الإسلام بصفة عامة. وفى أيامه بدأ الترك من حرس الخليفة يظهرون فى مركز الإمبراطورية ويستولون شيئاً فشيئاً على الوظائف الكبرى فى الجيش، ويقضون على نفوذ الخراسانيين فى عاصمة الخلافة، ويمهدون للفترة التالية التى يمكن تحديدها بيناء سامرا ثم بظهور وظيفة أمير الأمراء على عهد المقتدر 295 - 320هـ الموافق 908 - 932م وغلبه المملوك (كبير قواد الحرس التركى) على السيد (الخليفة) والتى يمكن أن نسميها دولة الترك. وطبيعى ألا يتم هذا التطور فجأة فى خلافة المعتصم التى تعتبر استمراراً لعهد المأمون. فالمأمون هو الذى بدأ استعمال الحرس التركى، وكبار قواد المعتصم من الترك هم أنفسهم قواد المأمون، كما أن العاصمة التركية الجديدة - سامرا - ابتداءً فى إنشائها على عهده كذلك (بل على عهد الرشيد من قبل).

واعتلى المعتصم حكم بغداد عقب وفاة المأمون دون نزاع، إذ أن الجيش الذى كان قد بايع ابن المأمون وهو العباس، ترك المناداة به خليفة عندما وصل المعتصم واعترف العباس به. ولكن الاضطراب الذى عاناه العراق كان يظهر

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 91.

إلى حد كبير كيف تدهورت الأسرة العباسية وكيف انحطت هيبتها، كما لم يحدث من قبل⁽¹⁾.

تميز «المعتصم» بقوته الجسمية وشدته في الحرب، حتى قيل عنه أنه كان يصارع الأسود ويحمل ألف رطل يمشى بها خطوات ويشد على الدينار بإصبعيه السبابة والوسطى فيمحو كتابته، وقال عنه المؤرخون: إنه لم يكن في «بنى العباس» قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً ولا أشد قوة.

ومع ذلك فقد كان «المعتصم» على خلاف أخويه «الأمين» و«المأمون» في العلوم والآداب، فقد كان قليل البضاعة منهما، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه نشأ أمياً لا يكتب، أو أنه كان ضعيف الكتابة على حد قول «ابن خلكان» و«ابن كثير». اختلفت الأوضاع السياسية في عهد «المعتصم» عن عهد من سبقه، بسبب ظهور عوامل جديدة على مسرح الأحداث، كان في مقدمتها ظهور العنصر التركي قوة مؤثرة في حركة الأحداث؛ فتمتع الأتراك بصفات عسكرية كالشدة والقوة والتحمل جعل «المعتصم» يستكثر منهم، يضاف إلى ذلك أن أمه تركية. إلا أن كثرة الأتراك سببت أضراراً كبيرة لسكان «بغداد»، مما دفع «المعتصم» إلى البحث عن مكان جديد يكون عاصمة له فوق الاختيار على المكان الذي بنيت عليه مدينة «سر من رأى» (سامراء حالياً) التي بدأ البناء فيها عام 221هـ الموافق 836م، ويتميز موقعها بميزات سياسية واقتصادية وعسكرية، فمن الناحية السياسية فإنها في موقع متوسط يسهل الاتصال بأنحاء الدولة، ومن الناحية الاقتصادية فإن موقعها يسهل عمليات التبادل التجاري بين النواحي الشمالية والجنوبية، وعسكرياً فإن إحاطة المياه بها يجعلها في مأمن من أي عدوان خارجي. ومن الأعمال العظيمة التي تنسب إلى «المعتصم بالله» نجاحه في القضاء على ثورة «بابك الخرمي»، فحينما تولى

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 138.

أمر البلاد جهاز جيشاً بقيادة «الأفشين» وزوده بكل أدوات القتال وبالمال اللازم؛ حيث دارت عدة معارك، انتهت بالقبض على «بابك الخرمي» وإعدامه.

لم تظهر في عهد «المعتصم» حركات علوية مؤثرة كالحركات التي حدثت في عهد الخلفاء السابقين، وإنما حدثت بعض الحركات الضعيفة، ومنها: حركة «محمد بن القاسم» المعروف بالصوفي، عام 219هـ الموافق 834م، والذي تحرك في عدة أماكن كالحجاز و«الكوفة» ثم استقر في «خراسان» وشكلت حركته خطراً على «الدولة العباسية»، فكلف «المعتصم» واليه على «خراسان» «عبد الله بن طاهر» بالتصدي لهذه الحركة؛ حيث نجح في القضاء عليها. توفي «المعتصم بالله» في شهر ربيع الأول عام 227هـ الموافق ديسمبر 841م، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين «المثمن»، لأن خلافته دامت ثمانى سنين وثمانية أشهر ويومين، ومولده في الشهر الثامن من العام الهجري، ومات عن ثمانية بنين وثمانى بنات.

الخلافة التاسع: الواثق بالله: (227-232هـ الموافق 841-847م)

هو «هارون بن المعتصم بالله»، يكنى «أبا جعفر» وأمه أم ولد رومية تسمى «قراطيس»، وكان فطناً لبيباً فصيحاً ينظم الشعر ويحب الموسيقى. وقد تولى «الواثق بالله» الحكم يوم وفاة والده «المعتصم».

سار الواثق على خطة أبيه وعمه المأمون، فحالف الأتراك وكان الواثق يشبه المأمون بمعرفته العلمية، حتى كان يسمى المأمون الأصغر، لكنه لم يكن بدهاء المأمون، ولم يكن في ميدان السياسة بمعرفته، فألقى بمقاليد أموره لوزرائه ولقواده الأتراك، فترك لأشناس «إدارة غربي الدولة» ولأيتاخ «إدارة شرقيها»، فقسمت المملكة بين الاثنين، وأصبحا سيدى الأمر فيهما. وغلط

الوائق غلطة أخرى، وهى أنه لم يعهد بولاية العهد من بعده لإنسان، بل توفى، ولم يكن للدولة ولى للعهد، فضرب بذلك التقليد الذى سار عليه الخلفاء منذ عصر معاوية، وترك الأمور تضطرب بين أيدي الأتراك وبين أيدي وزرائه، ومد الأتراك يدهم، فبحثوا مع الوزراء فيمن يولونه الخلافة، فوجدوا ابنا للوائق، ألبسوه ثوب الخلافة، فوجدوه كبيراً عليه، فخلعوه عنه، والتجأوا إلى المتوكل أخى الوائق، فجعلوه خليفة، وهكذا أصبح الأتراك هم الذين يولون الخليفة. توالى الأغلاط السياسية من الخلفاء العباسيين، ففتحت للأتراك أبواب استجلاب أبناء جلدتهم مما وراء النهر، على مقياس واسع، الأمر الذى جعلهم أصحاب عاصمة الخلافة، وأسياد البلاد، يولون الخليفة نفسه، أليس كل هذا بكاف ليشتطوا، فيظنوا أن الأمر وصل إلى أيديهم ولن يخرج منها⁽¹⁾. وتظهر ملامح تلك السياسة فيما يلى:

أولاً: تمسكه بمذهب المعتزلة، حتى جعله المذهب الرسمى للدولة، مما أثار أهل السنة ضده، إلا أنه تصدى لهم وقبض على زعمائهم.

ثانياً: تقريبه للأتراك جرياً على سياسة والده «المعتصم»، حتى إنه قسم البلاد بين رجلين من الأتراك، الأول «أشناس» وأعطاه الشطر الغربى من الدولة إلى آخر «بلاد المغرب»، والثانى قائده «إيتاخ» وأعطاه الشطر الشرقى «دجلة» و«فارس» و«السند»، وكان كل منهما يعين الولاة الذين يريدهم، هذا بالإضافة إلى عدد من القادة الأتراك الذين شغلوا مناصب خطيرة، مثل: «وصيف التركى» الذى أوكل إليه «الوائق» القضاء على ثورة المتمردين الأكراد، و«بغا الكبير» الذى أحمد ثورة الأعراب بنواحي «المدينة». وكان الوائق يغدق عليهم الأموال والهدايا.

1 - د. يوسف العشى - المرجع السابق ص 104.

ثالثاً: مصادرة أموال كبار الموظفين، مثل «أحمد بن إسرائيل»، الذى أخذ منه ثمانين ألف دينار، و«سليمان بن وهب» كاتب «إيتاخ»، الذى أخذ منه أربعمئة ألف دينار، وغيرهما، مما ترك آثاراً سيئة فى الجهاز الإدارى والاستقرار المالى للدولة، وأصابهما بالفساد والخلل.

رابعاً: إحسانه إلى بعض طوائف الأمة، وفى مقدمتهم العلويون حيث أغدق عليهم الأموال. استمر «الواثق» فى مقعد الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر، ثم أصيب بمرض الاستسقاء، ومات فى ذى الحجة عام 232هـ الموافق يوليو 847م، وعمره اثنان وثلاثون عاماً، وقيل: ستة وثلاثون⁽¹⁾.

تمكن الخلفاء العباسيون الأوائل - وبخاصة السفاح والمنصور - من تذليل جميع المصاعب التى واجهت الدولة العباسية فى بداية نشأتها، وذلك لما أظهرها من صبر وجلد، وتحلوا بالبساطة والتقشف، دون أن يغتروا بما حققوه من مكاسب، ويقنطوا أمام ما واجههم من تحديات ومصاعب، حتى نجحوا فى إرساء قواعد بنيان ضخمة، فسيح الأرجاء، ثابت العمد والأوتاد. ولكن حياة البساطة التى نشأ عليها الخلفاء الأوائل لم تستمر مع الخلفاء الذين خلفوهم، لأنهم ولدوا فى القصور، وشبوا وسط مظاهر التبجيل، واعتادوا منذ نعومة أظافرهم على حياة الترف والسعة. وهكذا انصرف بعض خلفاء العصر العباسى الأول - المتأخرين منهم - إلى إقامة مجالس اللهو والشراب والغناء، وانشغلوا بها عن النظر بأنفسهم فى أمور الدولة، تاركين هذه الشؤون إلى بعض أعوانهم من كبار الموظفين: وزراء كانوا أو قادة. وبدأ الانحلال يدب فى الدولة العباسية. فظهرت عوارضه فى أطرافها نتيجة للخلل الذى اعترى قلبها. وبالرغم من ذلك فقد استمرت الدولة تعيش مدة من الزمان محتفظة بهيبتها بفضل القوة التى منحها إياها المؤسسون، واستمرت

١ - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 22.

الدولة منطلقة بفضلها حتى ضعفت هذه القوة. فاهتزت صورتها، ودخلت مرحلة جديدة من تاريخها، أعنى بها مرحلة العصر العباسى الثانى الذى اتصف بميزات أهمها⁽¹⁾:

سيطرة الأتراك:

اشتدت سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى، بعدما ازداد نفوذهم منذ عهد المعتصم. ولم يقتصر هذا النفوذ على عاصمة الخلافة فحسب، بل تعداها إلى الأطراف حينما بدأ الخلفاء العباسيون يمنحون قاداتهم الأتراك أقطاع الولايات مقابل مبالغ معينة يدفعونها للخلافة. وقد رأينا كيف أن المعتصم ابتعد بهم عن بغداد. والإقامة معهم فى سامراء ليسلم أهالى بغداد من شرهم، إضافة إلى أن ازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية، وسيطرتهم على الخلافة، أثار موجة من الاستياء لدى العصابات الأخرى التى كان لها، فى يوم من الأيام، كلمة مسموعة فى تسير دفة الحكم. فكان استياء العرب، واستياء المشارقة، واستياء الخراسانيين. وعبروا عن استيائهم بالثروات التى اندلعت ضد الخلافة العباسية، والتى استمر بعضها خلف قناع التشيع للعلويين علماً أن نفوذ الخراسانيين فى العصر العباسى الأول كان قوياً، ومع قوته لم تصل سيطرتهم مطلقاً إلى حد التلاعب بالخلفاء أو عزلهم أو قتلهم، مثلما حدث للخلفاء العباسيين على أيدي الأتراك فى العصر العباسى الثانى، بل على العكس. كان الخلفاء العباسيون فى العصر السابق على درجة كبيرة من القوة والنفذ ونفاذ الكلمة جعلتهم يتخلصون من أى رجل من رجالاتهم يشتمون منه خطراً على كياناتهم ونفوذهم وخير دليل على ما قلناه، ما لاقاه أبو مسلم الخراسانى على يد الخليفة المنصور. وغيره كالبرامكة، والقائد هرثمة بن أعين، والوزير الفضل بن سهل. إلخ. وشعر

١ - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 103 وانظر الطبرى 390/9.

المعتصم فى أواخر أيامه بخطر الأتراك عليه وعلى دولته . فندم - حيث لا ينفع الندم - على سياسته الخاصة بتشجيعهم . لأنهم كانوا قد أحكموا سيطرتهم على الخلافة ، وتغلغوا فى كل مرفق من مرافقها . ودليلنا إلى ما ذهبنا إليه من حكم على تسلط الأتراك ، أن قائداً منهم يقال له «أيتاخ» الذى كان فى عهد الخليفة المتوكل مسؤولاً عن الجيش واليمنيين والأتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة فأى شىء من مرافق الدولة وأجهزتها الحساسة بقى ولم يكن له ظل عليه وأخيراً لا آخراً فقد كان الخليفة المعتز لا يغمض له جفن ولا يخلع سلاحه فى الليل أو فى النهار خوفاً من الأتراك إلى حد اصطناعه المغاربة للتخلص من الأتراك . ولما شعر القواد الأتراك بانتقاص لنفوذهم وأن الخليفة قد يتخلى عنهم ، واجهوا الخليفة بإعلان ثورتهم وقبضوا عليه ، ثم قتلوه بعد أن مثلوا به .

انعدام هيبة الخلافة:

لم تستطع الخلافة العباسية الاحتفاظ بهيبتها فى الوقت الذى أضحى فيه الخلفاء العوبة بيد قادتهم الأتراك وشبه محجوز عليهم . فكثير من الخلفاء فى العصر العباسى الثانى انتهى أمرهم ، إما بالقتل أو بالخلع . وهكذا لم يعد للخلفاء العباسيين فى ذلك العصر من الخلافة إلا الاسم والمظهر . فى حين كان المتسلطون على الخلافة يجمعون فى أيديهم الأمر والنهى . وكان من الطبيعى ألا يحظى الخليفة العباسى بقدر كاف من الاحترام فى سائر أطراف دولته ، وغدا رمزاً دينياً لا أكثر .

تفكك وحدة الدولة وتمرد الأطراف:

أدى ضعف الدولة العباسية فى العصر الثانى إلى عدم احتفاظها بوحدةها وتماسكها ، وبالتالي تفككها . إذ استهان الولاة فى الأقاليم بالسلطة

المركزية فى العاصمة، واستقلت بعض الولايات، وقامت فيها أسر حاكمة يتولى أفرادها الحكم عن طريق الوراثة. وإن دانت هذه الدول المستقلة بالتبعية للخلافة العباسية. وإنما كانت تبعية اسمية فى معظم الحالات، فقد تتعدى ذكر اسم الخليفة فى الخطبة، أو إرسال بعض الأموال إليه. أما ما عدا ذلك، كان حاكمًا كل دولة يتصرف كما لو كان مستقلًا تمامًا فى سياسته الداخلية والخارجية. وبلغ الأمر عند بعض الحكام أنهم اصطدموا حربياً بجيوش الخلافة. وحققوا انتصارات عليها⁽¹⁾ مما ثبت مكانتهم ودعم استقلالهم. وهذا ما يجعلنا ننظر إلى الدولة العباسية لنجدها مفككة الأوصال ليس للسلطة المركزية أى سلطات على الولايات والأطراف.

1 - د. إبراهيم أيوب - نفس المرجع ص 104.

العصر العباسي الثاني [232 - 656 هـ الموافق 847 - 258 م]

امتد العصر العباسي الثاني أكثر من أربعة قرون وقد قسم المؤرخون هذه الفترة إلى أربعة عصور رئيسية هي:

1 - عصر نفوذ الأتراك .

2 - عصر البويهيين .

3 - عصر السلاجقة .

4 - عصر ما بعد السلاجقة

أولاً: عصر نفوذ الأتراك (232 - 334 هـ الموافق 847 - 945 م)

كان المأمون أول من استخدم الأتراك وقربهم، ولكنهم كانوا محدودى العدد والنفوذ فى عهده، فلما تولى الخليفة «المعتصم» الحكم جعلهم عنصراً أساسياً فى جيشه، وبلغ عددهم بضعة عشر ألفاً، وكانوا تحت سيطرة الخليفة. وبدأ نفوذ الأتراك يتزايد فى عهد «الواثق»، ثم ازداد حدة واتساعاً فى عهد الخليفة «المتوكل». ويمتد عصر نفوذ الأتراك إلى ما يزيد قليلاً عن قرن من الزمان، تعاقب خلاله على كرسى الخلافة ثلاثة عشر خليفة هم:

1 - المتوكل على الله «جعفر بن المعتصم»

232 - 247 هـ الموافق 847 - 861 م.

2 - المنتصر بالله «محمد بن المتوكل»

247 - 248 هـ الموافق 861 - 862 م.

3 - المستعين بالله «أحمد بن المعتصم»

248 - 252 هـ الموافق 862 - 866 م.

- 4 - المعتز بالله «محمد أبو عبدالله بن المتوكل»
252 - 255 هـ الموافق 866 - 868 م.
- 5 - المهتدى بالله «محمد بن الواثق بن المعتصم»
255 - 256 هـ الموافق 868 - 869 م.
- 6 - المعتمد على الله «أحمد بن المتوكل بن المعتصم»
256 - 279 هـ الموافق 869 - 892 م.
- 7 - المعتضد بالله «أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل»
279 - 289 هـ الموافق 892 - 901 م.
- 8 - المكتفى بالله «أبو محمد علي بن المعتضد»
289 - 295 هـ الموافق 901 - 907 م.
- 9 - المقتدر بالله (أبو الفضل جعفر بن محمد)
295 - 320 هـ الموافق 907 - 932 م.
- 10 - القاهر بالله «أبو منصور محمد بن المعتضد»
320 - 322 هـ الموافق 932 - 934 م.
- 11 - الراضى بالله «أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد»
322 - 329 هـ الموافق 934 - 942 م.
- 12 - المتقى بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد
329 - 333 هـ الموافق 941 - 945 م.
- 13 - المستكفى بالله «أبو للقاسم عبد الله بن المكتفى»
333 - 334 هـ الموافق 945 - 946 م.

بدأ العصر العباسي الثاني أو عصر نفوذ الأتراك من عام 232هـ الموافق 846م وفيه ظهر ضعف الخلافة العباسية بوضوح، وأخذت مكانتها تضمحل في نظر الدول المعاصرة مجاورة كانت أو غير مجاورة، إسلامية كانت أو غير إسلامية. ولم يبق في قبض الخلفاء العباسيين سوى العراق وفارس والأهواز وحتى هذه النواحي طفحت بالإضطرابات والفتن. وآل الأمر إلى أن قبض على زمام الأمور في العاصمة أمير تركي أو ديلمى أطلق عليه اسم أمير الأمراء، أصبح هو الحاكم الفعلي للدولة ويده الأمر والنهي. تولى الخلافة في هذا العصر اثنا عشر خليفة هم: المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي حكموا جميعاً مائة سنة وستين. ومن هؤلاء الخلفاء انتهى أربعة خلفاء نهاية هادئة طبيعية، في حين انتهى أمر الثمانية الباقين إما بالقتل أو بالخلع.

وقد تولى الخلافة في ذي الحجة عام 232هـ الموافق 847م، وكان عهده بداية حقبة الضعف والتدهور، وتفكك بنيان الخلافة العباسية. واستمر حكم جعفر المتوكل على الله نحو خمسة عشر عاماً. ورغم أن «المتوكل» كان قوياً الشخصية، وافر الهيبة فإنه لم يستطع أن يضع حداً لاستفحال النفوذ التركي في عهده، الذي كان له دور في توليته الخلافة بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق، وكان غلاماً. وقد نجح «المتوكل» في البداية في التخلص من أخطر العناصر التركية في عهده، وهو «إيتاخ» الذي استفحل خطره حتى إنه هم يوماً بقتل الخليفة «المتوكل» حين تبسط معه في المزاح، لكن الخليفة نجح في التخلص منه عام 235هـ الموافق 849م، كما عزم على التخلص من قادة الأتراك ووجوههم، مثل «وصيف» و«بغاء» إلا أنهم استغلوا ما بينه وبين ابنه وولى عهده «محمد المنتصر» من خلاف وجفوه ودبروا مؤامرة انتهت بقتل

«المتوكل» ووزيره «الفتح بن خاقان» فى الخامس من شوال عام 247 هـ الموافق 861م، وبايعوا ابنه «المنتصر» خليفة. وقد استطاع «المتوكل» فى عهده أن يظفر بمكانة عظيمة فى قلوب جماهير المسلمين، حين منع النقاش فى القضايا الجدلية التى أثارها المعتزلة، مثل قضية خلق القرآن، كما رد للإمام «أحمد بن حنبل» اعتباره وجعله من المقرين إليه، بعد أن اضطهد فى عهد «المأمون» و«المعتصم» و«الواثق»؛ لعدم إقراره القول بخلق القرآن، كما أمر «المتوكل» الفقهاء والمحدثين أن يجلسوا للناس ويحدثوهم بالأحاديث التى فيها رد على المعتزلة فأثنى الناس عليه، الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق» قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، و«عمر بن عبدالعزيز» رد مظالم «بنى أمية»، و«المتوكل» محا البدع وأظهر السنة. وأكثر فى مجالسه من المضاحك والمهازل والمغاني.

عمل المتوكل على إضعاف القواد الترك بعدما لمس ازدياد نفوذهم واستبدادهم بالأموار واستثثارهم بالأموال. وبدأ بالقائد «إيتاخ» الذى جمع فى قبضته أكثر مناصب الدول الكبرى. فقبض عليه وسجنه إلى أن مات فى سجنه، وفكر فى التخلص من نفوذ الأتراك بنقل عاصمته من سامراء - التى أنشئت لتكون مقراً لغللمان الأتراك وأجنادهم - إلى دمشق، وفعلاً انتقل إليها ومعه الدواوين. لكن غلمان الأتراك وأجنادهم أثاروا الشغب ضد عمل المتوكل هذا واتهموه بالتخلص منه والاستعانة بالعرب عليهم. وما زالوا به حتى أرغموه على العودة إلى سامراء متحجباً بحجة واهية، وهى أن هواء دمشق لم يعجبه. شهد عهد المتوكل عدة اضطرابات فى جميع أنحاء الدولة كما أسلفنا، إلا أن أقواها كان فى أرمينيا وأذربيجان. كما قامت فى صنعاء باليمن حركة انفصالية استطاعت أن تستقل بنجد باليمن عام 247 هـ الموافق 861م، وأسست دولة عرفت بالدولة اليعفرية نسبة إلى مؤسسها «يعفر بن عبدالرحيم» واستمرت هذه الدولة قائمة حتى عام 387 هـ الموافق 997م تشبه المتوكل بجده هارون الرشيد فى ولايته، إذ جعلها لأولاده الثلاثة:

المنتصر والمعتز والمؤيد، وذلك عام 235هـ الموافق 849م، كما قسم البلاد بينهم. «وعقد لكل واحد لواءين: أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل». وبسبب محبته لزوجته قبيحة رأى أن يقدم ابنه - المعتز - منها على أخويه المريد والمنتصر. فلم يرض بذلك المنتصر، ودبر مؤامرة مع الأتراك لإغتيال أبيه. ونجحت المؤامرة لأن الأتراك أوجسوا خيفة من نوايا المتوكل تجاههم، والتفوا حول «بغا الصغير» و«باجر التركي»، ونفذوا جميعاً ما اتفقوا عليه مع المنتصر فقتلوا المتوكل في أوائل شوال عام 246هـ الموافق 861م.

(11) المنتصر بالله: 247-248 / 861-862:

تولى الخلافة في اليوم الذي قتل فيه أبوه، وذلك في شوال سنة 247هـ الموافق ديسمبر 861م، وعمره ستة وعشرون عاماً. وحاول التصدي للنفوذ التركي بكل حزم، وصار يسب الأتراك ويقول: هؤلاء قتله الخلفاء! ورغم أن «المنتصر بالله» كان وافر العقل قوى الشخصية فإن الأتراك احتالوا على قتله، فأعطوا طبيبه (ابن طيفور) ثلاثين ألف دينار، ففصده بمبضع مسموم فمات، في ربيع الآخر عام 248هـ الموافق يونيو 862م، بعد حكم دام ستة أشهر فقط، ويروى أنه حينما احتضر، قال لأمه: «يا أماه! ذهبت مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلتي». ومن مآثر «المنتصر بالله» خلال فترة حكمه القصيرة، إحسانه إلى العلويين، وإزالته عنهم ما كانوا فيه من خوف وضيق في عهد أبيه «المتوكل».

(12) المستعصر بالله: 248-252 / 862-866:

هو «أحمد بن المعتصم»، تولى الخلافة في السادس من ربيع الآخر عام 248هـ الموافق يونيو 862م، وعمره ثمان وعشرون سنة، فعقب وفاة «المنتصر»

اجتمع الأتراك بزعامة «بغا الصغير» و«بغا الكبير»، وقرروا عدم تولية أحد من أولاد «المتوكل» الخلافة، خوفاً من انتقامه منهم، وبايعوا «أحمد بن المعتصم»، الملقب بالمستعين بالله. وكان من الطبيعي ألا يكون للمستعين بالله مع الأتراك أمر ولا نهى، ولم يمض وقت طويل حتى غضب عليه الأتراك وقرروا خلعه ومبايعة «المعتز بالله محمد بن المتوكل»، فاشتعلت الحرب بين أنصار «المستعين» وأنصار «المعتز»، وانتهت بالقبض على «المستعين» وقتله في سجنه في شوال عام 252هـ الموافق ديسمبر 866م.

لم يمض وقت طويل حتى دب الخلاف بين زعماء الأتراك على النفوذ. فلم يرض «وصيف» و«بغا» عن استئثار «أتامش» بالسلطة والنفوذ، فدبرا له مؤامرة ونجحا في قتله عام 249هـ الموافق 863م. وحتى ينفردان بالسلطة من دون بقية الزعماء الأتراك اتفقا على قتل «باغر» في الوقت الذي كان هو الآخر يدبر لقتل «بغا» و«وصيف» والخليفة المستعين بالله. وحالفهما الحظ ونجحا أيضاً في قتل «باغر»، فهاج أصحابه هياجاً شديداً وهددوا بالانتقام من قتله. فلم يكن من مجال أمام «بغا» و«وصيف» إلا أن صحبا المستعين بالله، وفروا إلى بغداد عام 251هـ الموافق 865م، وأنزلا الخليفة بدار محمد بن عبد الله بن طاهر، ثم لحق بالخليفة فريق من الأتراك أصحاب «باغر» إلى بغداد واعتذروا له عما بدر منهم، وطلبوا منه العودة إلى سامراء، فامتنع عن تلبية رغبتهم عندها انصرفوا غاضبين، وأجمعوا على مبايعة ابن عمه المعتز بن المتوكل. وكان الأخير وأخوه المؤيد في الحبس، وأخرجوهما وبايعوا المعتز بالخلافة، وجعلوا لأخيه ولاية العهد. وبانقسام زعماء الأتراك، انقسمت الدولة العباسية بين: سامراء وبها المعتز الذي ولاه الأتراك أصحاب «باغر» بدلا من المستعين بالله، وبغداد وفيها المستعين يشد أزر «بغا» و«وصيف» ومن معهما. وهكذا عمل محمد بن عبدالله بن طاهر على تحصين بغداد ومنع

«المبرة» عن سامراء. ثم كانت الحرب بين الطرفين عام 251هـ الموافق 865م. التى استمرت عدة أشهر تضايق بسببها أهل بغداد. ولما طلب المستعين بالله مساعدة محمد بن عبد الله بن طاهر خذله ومال إلى المعتز، فحلت الهزيمة به وأبعد إلى واسط حيث اختير أحمد بن طولون ليصحبه ويرعى شؤونه. لكن جماعة القائد «باغر» لم يطمثوا إلى بقاء المستعين بالله على قيد الحياة، فدبروا له مكيدة انتهت بمقتله عام 252هـ الموافق 866م⁽¹⁾.

وشهدت خلافة «المستعين بالله» قيام «الدولة العلوية» بطبرستان عام 250هـ الموافق 864م، على يد «الحسن بن زيد العلوى» الملقب بالداعى الكبير، واستمرت هذه الدولة حتى عام 316هـ الموافق 928م⁽²⁾.

(13) المعتز بالله محمد بن المتوكل 252 - 255هـ الموافق 866 - 868م:

بويغ له بالخلافة فى شوال عام 252هـ الموافق ديسمبر 866م، وعمره تسعة عشر عاماً، وقد استضعفه الأتراك وطلبوا منه مالا فاعتذر لهم بفراغ بيت المال، فثاروا عليه.

وقال ابن طباطبا: بويغ بالخلافة عقب خلع المستعين. ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء. كان الخليفة فى يدهم كالأسير إن شأؤوا أبقوه، وإن شأؤوا خلعوه، وإن شأؤوا قتلوه. فقد قضى المعتز قرابة الثلاث سنوات ونصف السنة فى الخلافة 252 - 255هـ الموافق 866 - 889م. ولم يكن له فيها أى أمر، لأن الأتراك كانوا أصحاب النفوذ والسلطان، ولا حيلة معهم إلا مراعاة جانبهم حيناً ومحاولة الدس لبعض من يخشى بأسه منهم أحياناً. ولما

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 109 وانظر - الطبرى 354/9.

2 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 39.

كان المغاربة الذين اصطنعهم المعتصم مثلما اصطنع الأتراك يشكلون فريقًا مهمًا يحقد على الأتراك لتسلطهم وعلو كلمتهم، فقد تصدى المغاربة للأتراك، وقالوا لهم: «كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً». فاشتدت الفتنة بين طوائف الجند والخليفة عاجز عن أن يفعل شيئًا في الوقت نفسه الذي احتدمت المنافسات بين زعماء الأتراك أنفسهم. ولم يسلم المعتز نفسه من طوائف الجند، إذ تأمر عليه جميع الطوائف وذهب الجنود إليه، وقالوا: «أعطنا أرزاقنا». وبما أن بيت المال كان خاليًا، أرسل الخليفة المعتز إلى أمه قبيصة - كانت ذات ثروة طائلة - يسألها أن تعطيه مالا يستعين به على مطالب الجند. فأنكرت أن يكون عندها شيء من المال. عندها اتفق الجند من أتراك ومغاربة على خلع المعتز. وفي ذلك يقول ابن الأثير «فدخل إليه جماعة منهم، فجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس من الدار، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى ييده. وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب جرعة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سرادبًا وحصصوا عليه، أي جعلوه في بيت وسدوا بابه، فمات».

وكان من أهم الأحداث التي شهدتها خلافة «المعتز» قيام «الدولة الصفارية» في «فارس» بزعامة «يعقوب بن طولون» إلى «مصر» عام 254هـ الموافق 868م نائبًا عن واليها، لكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم إليها «الشام» مكونًا بذلك «الدولة الطولونية» في «مصر» و«الشام».

وقد كان من أهم الأحداث التي شهدتها عصر «المعتز بالله»:

ثورة الزنج؛

وسميت بذلك لأن أعداداً كبيرة من الذين شاركوا فيها كانوا عبيداً سوداً، واندلعت هذه الثورة في «البصرة» بزعامة «علي بن محمد»، الذي قيل إنه يتنسب إلى آل البيت، وحققت مكاسب سياسية ومادية؛ فاستولت في مدة قصيرة على بعض المدن المهمة في «العراق»، مثل «البصرة» و«واسط» و«الأهواز»، ووصلت إلى «البحرين» و«هجر»، وارتكبت مذابح بشعة ضد السكان الآمنين، وقد استطاع القائد العباسي «الموفق طليحة بن المتوكل» القضاء على هذه الثورة - فيما بعد - عام 270هـ الموافق 883م، في خلافة أخيه «المعتز على الله».

(14) المهتدي بالله محمد بن الواثق: 255 - 256 الموافق 868 - 869:

بايع الأتراك «المهتدي بالله» خليفة للمسلمين في رجب عام 255هـ الموافق يونيو 869م، عقب الإطاحة بالمعتز. وقد كان «المهتدي» نقيماً شجاعاً حازماً، وكان يتخذ «عمر بن عبدالعزيز» مثله الأعلى، ويقول: إني أستحي أن يكون في «بنى أمية» مثله، ولا يكون مثله في «بنى العباس»، ولذلك نبذ الملاحى وحرّم الغناء والخمر وحارب الظلم.

واجهت المهتدي مشاكل كثيرة بالرغم من قصر مدة خلافته. ذلك أن الجند ثاروا عليه بسبب استيلاء أمير بغداد على رواتبهم. كما ثار عليه العلويون في طول البلاد الإسلامية وعرضها. ومنهم الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بطبرستان وفي أيامه، ثار صاحب الزنج فهدد الدولة العباسية زهاء أربعة عشر عام 255 - 270هـ الموافق 866 - 880م وقد كان الزنج يكسحون السباخ فنجحوا بقيادة على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد على بن أبى

طالب عليهم السلام فى اجتياح أراض واسعة ونهب الأهوار، والبصرة
وواسط قبل أن يقضى عليهم الموفق (طلحة) شقيق الخليفة المعتمد على الله
256 - 279 هـ الموافق 869 - 892 م. واتخذت ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ
الذى كان أبوه والياً على فلسطين والأردن شكل الحركة الانفصالية عن الخلافة
العباسية. إذ لما مات والده تغلب على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى بيت
المال العباسى، وأخذ يطمع فى الاستيلاء على بقية بلاد الشام بل ومصر
أيضاً. ولم يستطع الخليفة المهتدى إخضاعه إلا بعد جهد وعن طريق استخدام
المكايد. وبلغت الدولة العباسية، فى أيام المهتدى درجة أصبح من الصعب
إصلاح أمورها بسيرته الحسنة وأخلاقه الطيبة. الأمر الذى أصبح مع المهتدى
العبوية فى أيدي الأتراك. وصور الطبرى ضعف الخلافة العباسية آنذاك بقوله:
«رفع المهتدى يديه إلى السماء، ثم قال بعد أن حمد الله وأنشى عليه «اللهم
إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا» واخلاله بالثغر وإباحته العدو. فإنى قد
أعذرت فيما بينى وبينه. اللهم تولى كيد من كاید المسلمين. اللهم إنى
شاخص بنيتى واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه، ناصراً لهم ودافعاً
عنهم. اللهم فأجرنى بنيتى إذ عدمت صالح الأعوان. ثم انحدرت دموعه
ويكى...» ولما اشتد الضيق بالخليفة من استبداد موسى بن بغا الذى التف
حوله الجند حاول أن يتخلص منه بالحيلة عن طريق استمالته أحد قواد الجيش
المدعو «بكباك» لكن بكباك هذا لم يثق بالمهتدى، واتفق مع موسى بن بغا
على عزله وقتله. ففعلاً خلعوه واستمروا يعذبونه حتى مات فى عام 256 هـ
الموافق 870 م⁽¹⁾.

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 112.

(15) المعتمد على الله، وصحوة الخلافة: 256-279 الموافق 869-892

تولى «المعتمد على الله أحمد بن المتوكل» الخلافة بعد خلع «المهتدي» عام 256هـ الموافق 870م)، وقد أتاحت الظروف التي تولى فيها «المعتمد» مقاليد الحكم ظهور ما عرف باسم «صحوة الخلافة» في «العصر العباسي الثاني». فقد تصاعد النزاع الداخلي بين القادة الأتراك، وساءت معاملتهم لجنودهم، كما ازدادت شكوى الجمهور من مضايقاتهم، مما أدى إلى ظهور اتجاه داخل الجيش بحتمية جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي؛ يقوم الخليفة باختياره، ويدين له الجميع بالطاعة، وقد اختار «المعتمد» أخاه «الموفق» قائداً للجيش، فكانت «صحوة الخلافة»؛ حيث استردت قوتها وهيبتها واستطاع «الموفق» بحكمته وحزمه وصلابة إرادته أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، ويقر الأمن والنظام. ورغم أن «المعتمد بالله» كان الخليفة الرسمي فإن أخاه «الموفق» كان صاحب السلطة الفعلية، فكان له الأمر والنهي، وقيادة الجيش ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وتعيين الوزراء والأمراء، وكان قضاء «الموفق» على «ثورة الزنج» عام 270هـ الموافق 883م أعظم إنجاز له⁽¹⁾.

وقد توفي «الموفق» في صفر عام 278هـ الموافق مايو 891م، وفي العام التالي توفي الخليفة «المعتمد» في رجب عام 289هـ الموافق سبتمبر 892م، بعد أن حكم البلاد ثلاثة وعشرين عاماً. وقد حفل عهده بالعلماء الأعلام في مجالات المعرفة المختلفة.

1 - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 39.

(١٦) المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق: 279-289 الموافق 901-982

تسلم أبو العباس أحمد بن الموفق الخلافة بعد وفاة المعتضد على الله . وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان «شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم وفيه شج». لذلك كان شديد الوطأة، قليل الرحمة، حتى إذا غضب على قائد من قواده أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه. عرفت الأوضاع الداخلية للدولة العباسية في عهده بعض الإضطراب بسبب قلق العرب من سيطرة الأتراك. فكان أن عاث بنو شيان في الجزيرة فساداً، الأمر الذي جعل الخليفة المعتضد يتولى بنفسه حملة لتأديبهم، فنهب أموالهم وقتل منهم عدداً كبيراً. وما أن انتهى من القضاء على بنى شيان في الجزيرة حتى خرج عام 281هـ الموافق 894م للاستيلاء على قلعة ماردين التي أخذها عنوة حمدان بن حمدون - جد الأسرة الحمدانية - فكان له ما أراد وهدم القلعة المذكورة بعد أن قبض على حمدان. في الوقت نفسه استفحل أمر خارجي هو هارون الشاري بأرض الجزيرة وتغلب على جيوش الخليفة التي أرسلت لحربه، عندها اختار الخليفة للقضاء عليه حسين بن حمدان - مغتصب قلعة ماردين - فقال له حسين: «إن جئت به في ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين، إحداهما: إطلاق سراح أبي، وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي. فوافق المعتضد على ذلك. وذهب حسين بن حمدان إلى الجزيرة وبدأ مطاردة الخارجي هارون الشاري إلى أن تمكن منه. عندئذ خلع عليه المعتضد بالله بعض الهدايا، وأمر بإطلاق سراح أبيه. فكان ذلك بداءة ظهور الأسرة الحمدانية. كذلك قام المعتضد برد غارات القرامطة الذين أغاروا من البحرين وسواحل أهواز بزعمامة أبي سعيد الحسن الجناني على إقليم البصرة عام 387هـ الموافق 900م بعدما حلت بالمنطقة خسائر جسيمة لم تمنع الأحداث المعتضد بالله من التفكير بإصلاح الإدارة ولا سيما نظام الجباية، فهو من أجل ذلك يعمل على تغيير التقويم المتبع للتوفيق بين التقويم

الهلالى والتقويم الشمسى . فمن المعروف أن المسلمين كانوا يستعملون السنة الهلالية لأن عباداتهم - ومنها الحج والصوم - تسير وفقها . وبما أن جباية الخراج تكون عند نضوج الغلات والثمار ، التى لا يتغير وقتها ويتحد بالسنة الشمسية . لذلك كان لابد من التوفيق بين السنة الخراجية والسنة الهلالية . وهذا التوفيق حصل بعدما رأى المسلمون أن كل 22 سنة شمسية تساوى تقريباً 33 سنة هلالية . فعملوا كلما مرت 32 سنة هلالية على إضافة سنة على السنة الخراجية . ففى عام 241هـ الخراجية مثلاً ، نسب الخراج إلى عام 242 الهلالية وأسقطت عام 241هـ لأن الغلة إنما حان أوانها عام 242هـ . وقد كتب المعتضد إلى عماله فى العراق والمشرق يطلب إليهم تطبيق هذه الطريقة علماً أن جباية الخراج فى مصر كانت تتم وفق الشهور القبطية ، وفى الشام وفق الشهور الرومية ، وكلاهما ثابت لا يتغير لأنهما يعتمدان نظام السنة الشمسية .

ولما كان عيد النورز من الأعياد التى اهتم العباسيون بالاحتفال بها مع الفرس ، فقد أمر المعتضد أن يكون النوروز على حساب شهور الروم حتى لا يتقدم مواعده ولا يتأخر . إشارة أخيرة لا بد لنا من ذكرها ، وهى أن المعتضد بالله انتقل من مركز خلافته فى سامراء إلى بغداد ، فكان ذلك بدءاً عهد أفول نجمها وخرابها بعدما بلغت درجة من الحسن والجمال نافست بها بغداد . وتوفى المعتضد بالله فى ربيع الآخر عام 289هـ الموافق 902م بعد أن ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد الملقب بالمكتفى بالله⁽¹⁾ .

تولى الخلافة بعد وفاة عمه «المعتد» ، وكان قوى الشخصية ، فحفظ هيئة الخلافة ، كما كانت فى عهد أبيه «الموفق» وعمه «المعتد» ، يقول «السيوطى» : كان «المعتضد» شهماً جليداً ، موصوفاً بالرجلة (أى الشجاعة) ، وقد خاض الحروب وعرف فضله ، فقام بالأمر أحسن قيام ، وهابه الناس

١ - د . إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 120 .

ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن فى أيامه لفرط هيبتة، وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء. وقد تمكن «المعتضد» خلال حكمه الذى دام عشر سنوات من تهيئة المزيد من القوة والاستقرار للدولة العباسية، ف قضى على مصادر الفتن والثورات، وأحمد ثورة «بنى شيان» بأرض الجزيرة عام 280هـ الموافق 893م، وثورة «حمدان بن حمدون» - رأس الأسرة الحمدانية - بالموصل، واستولى على قلعة «ماردين» التى كان يتحصن بها عام 281هـ الموافق 894م، كما قضى على ثورة الخوارج فى «الموصل» بزعامه «هارون بن عبدالله الشارى» الذى وقع فى الأسر، وأمر «المعتضد» بضرب عنقه عام 283هـ الموافق 896م، ومن أخطر الحركات التى شهدتها عصر «المعتضد»:

حركة القرامطة:

وترجع بداية هذه الحركة إلى عام 278هـ الموافق 891م، قبل تولى «المعتضد» الخلافة بعام، حين قدم إلى «الكوفة» رجل اسمه «حمدان» ولقبه «قرمط»، تظاهر بالعبادة والتقشف والدعوة إلى إمام من آل البيت، فلقبت دعوته صدى كبيراً عند أنصار آل البيت. وقد اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها «أبى سعيد الجنابى» فى «البحرين» عام 286هـ الموافق 899م؛ حيث استطاع بسط سلطانه على «البحرين» و«هجر» وكسب أنصار كثيرين له فى المناطق التى ينتشر فيها التشيع⁽¹⁾. وقد تحولت «البحرين» إلى مركز رئيسى للقرامطة، خرجت منه حملاتهم الحربية فى اتجاه «العراق» و«الحجاز» و«الشام»؛ لنشر أفكارهم التى تهدف إلى بسط نفوذهم بواسطة العامة بمبادئ وشعارات، كالعدالة والمساواة والبساطة، ومساعدة الآخرين، ولم تدرك الخلافة العباسية مدى الخطورة التى تنطوى عليها هذه الحركة، ووجهت جهودها الحربية إلى حركات أخرى تبدو أكثر منها خطورة، مثل الحركة

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 42.

الصفارية والطولونية وغيرهما، ومن هنا لم تظفر هذه الحركة من الخليفة «المعتضد» - الذى عاصر بدايتها الأولى - بما تستحقه من اهتمام.

انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد،

ظلت مدينة «سامراء» أو «سر من رأى» عاصمة الخلافة العباسية منذ حوالى عام 221هـ الموافق 836م - فى خلافة «المعتصم بالله» - إلى أوائل خلافة «المعتضد» الذى بنى «القصر الحسمى» ببغداد، وقرر انتقال عاصمة الخلافة إليها عام 280هـ الموافق 893م.

توفى «المعتضد» فى ربيع الآخر عام 289هـ الموافق 902م، وكان عصره يموج بالحركة العلمية والدينية والأدبية، فقد عاش فى عصره عدد من العلماء والأدباء البارزين.

(17) المكتفى بالله على بن المعتضد: 289 - 295 / 902 - 908؛

تولى الخلافة فى ربيع الآخر عام 289هـ الموافق مارس 902م عقب وفاة أبيه، وعمره خمس وعشرون سنة، ورغم أنه كان حسن السيرة محبوباً لدى الرعية فإنه لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به أبوه «المعتضد»، من قوة الشخصية والحزم، فكانت خلافته تمهيداً لعودة الأمور إلى أوضاعها السابقة، وفترة انتقالية بين «صحوة الخلافة» وانتكاستها. وقد شهد عهد «المكتفى» أحداثاً كثيرة، منها: ازدياد خطر القرامطة وتهديدهم للشام و«الحجاز» و«اليمن». ومما شهدته عصر «المكتفى» أيضاً من أحداث: تولية «المكتفى» «أبى الهيجاء عبدالله ابن حمدان التغلبى» ولاية «الموصل» والبلاد التابعة لها عام 293هـ الموافق 906م، وكان ذلك مقدمة لاستقلال الحمدانيين بالموصل - فيما بعد - وضمهم «حلب» إليها، ونشأة «الأسرة الحمدانية».

لم تكد تنتعش الدولة العباسية فى عهد المعتضد بالله وأخيه طلحة الناصر - الموفق - الذى استبد بشؤون الحكم بين 256 - 279هـ الموافق 870 - 892م، وابنه المعتضد بالله، حتى بدأت ظواهر الضعف تظهر بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ فيها أمثال وزيرة القاسم بن وهب وابن بدر - قائد جيش المعتضد بالله المستولى على أمره، المطاع فى خدمه وغلمانه - فتركت أثراً سيئاً فى أحوال الخلافة شجعت أوضاع الخلافة القرامطة على الفساد، فعاثوا تخريباً فى الشام والبحرين والعراق وطريق مكة. وقد انتشروا بزعامه بن زكرويه الملقب بـ «الشيخ» حول بغداد والبصرة، واشتد خطرهم، وكثر فسادهم، حتى أنهم أحرقوا مسجد الرصافة. كما اشتد خطر القرامطة فى الشام بعد ما أنزلوا الهزيمة بقوات الطولونيين. وتزعم القرامطة بالشام الحسين بن زكرويه - أخو يحيى -، فأظهر شامة فى وجهه، وزعم أنها آية له، فلقب بـ «ذى الشامة» وسمى بـ «أمير المؤمنين» بين عامى 289 - 290هـ الموافق 902 - 903م. ولم يسلم من يده صبيان المكاتب لكثرة ما ارتكب من أعمال قتل. فما كان من أهل الشام إلا أن رفعوا شكواهم ضده إلى الخليفة المكتفى بالله الذى عاجل بالتوجه إلى الشام عن طريق الموصل على رأس قوة من رجاله الأشداء الذين طاردوا أبا شامة حتى قبضوا عليه عام 290هـ الموافق 903م مع عدد كبير من رجاله. عندها هب والد يحيى ذى الشامة - وهو زكرويه - لإخلاء ابنه وفك أسره. فجمع زكرويه - رأس الفتنة - طوائف من أعراب البادية، وأغار بهم على «بصرى» و«أذرع» بالشام، فارتكب كثيراً من أعمال العنف. وفى يوم عيد النحر - الأضحى - من عام 293هـ الموافق 906م، أغار زكرويه ورجاله على الكوفة، عند انصراف الناس من صلاة العيد، فنهبوا وقتلوا كثيراً. وأغار القرامطة أيضاً عام 294هـ الموافق 907م على قوافل الحجاج الخراسانيين والعراقيين العائدين من مكة، فنهبوا أموالهم

وأقواتهم وثيابهم . أبدى أهل بغداد استيائهم من هذه الأعمال ، فأرسلت الجيوش العباسية لمحاربة القرامطة ، فتمكنوا ، بعد قتال طويل ، من قتل زعيمهم زكرويه عام 294هـ الموافق 907م وفر رجال في أكثر من اتجاه . أخذت العلاقات العباسية - البيزنطية بين الدولتين طابع المسالمة حيناً والعداء أحياناً في عهد المكتفى بالله . ففي سنة 290هـ الموافق 903م وصلت رسل إمبراطور بيزنطية يسألون الخليفة العباسي المفاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا . فتم الفداء عام 293هـ الموافق 906م . وكانت جملة من فودى المسلمين نحو 1200 أسير . . وكما ذكرنا أعلاه ، لم تدم هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين إذ توجه جيش إسلامي عام 291هـ الموافق 904م من طرسوس لمهاجمة أنطاكية التي كانت تعد من أهم الثغور البيزنطية البحرية . فتمكن المسلمون من فتحها وقتل وأسر عدد كبير من أهلها كما استولوا على ستين مركباً للبيزنطيين . وتمت مفاداة ثانية في عهد المكتفى بالله عام 295هـ الموافق 908م ، فبلغ عدد من فودى به من المسلمين ثلاثة آلاف نفس من الرجال والنساء . وتوفى المكتفى بالله في ذى الحجة عام 295هـ الموافق 908م ، فخلفه أخوه المقتدر بالله⁽¹⁾ .

توفى «المكتفى» وفاة طبيعية في ذى القعدة عام 295هـ الموافق أغسطس 908م ، وترك خزانة الدولة ممتلئة بالأموال ، وقد أرجع المؤرخون ذلك إلى الجهد الذي بذله أبوه «المعتضد» في جلب أسباب الاستقرار الاقتصادي إلى الدولة ، وحسن سيرة «المكتفى بالله» .

1 - د . إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 122 .

(18) المقتدر بالله جعفر بن المهتدي: 295 - 320 الموافق 907 - 932

تولى الخلافة بعد أخيه «المكتفى» بعهد منه فى ذى القعدة عام 295هـ الموافق أغسطس 908م، وكان صبيًا فى الثالثة عشرة من عمره، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. أثار تولى «المقتدر» الخلافة اعتراض كثير من رجال الدولة بسبب صغر سنه، وعدم قدرته على الاضطلاع بشئون الخلافة مع وجود الأقدار منه على تحمل المسئولية، خاصة «عبد الله بن المعتز» الشاعر المعروف بتمام العقل وجودة رأى، فاتفق رأى عدد منهم على خلع «المقتدر» وتولية «عبد الله بن المعتز»، وكان عمره نحو تسعة وأربعين عامًا، وعندما عرضوا الأمر على «ابن المعتز» وافق بشرط ألا يسفك دم أو تنشب حرب، فأخبروه أن الأمر يسلم إليه عفوًا، وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتّاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وتمت البيعة لابن المعتز فى (19 من ربيع الأول عام 296هـ الموافق نوفمبر 908م)، ولقب بالراضى بالله، ولكن أنصار «المقتدر» - وعلى رأسهم «مؤنس الخادم» - لم يرضوا بهذه البيعة، وتوجهوا نحو «ابن المعتز» وأنصاره وقبضوا عليهم وفتكوا بهم وأعادوا تنصيب «المقتدر» فى اليوم التالى لبيعة «ابن المعتز» الذى لم يمكث فى الخلافة إلا يومًا أو بعض يوم، ولهذا يتجاهله المؤرخون عند ذكرهم قائمة خلفاء «بنى العباس».

وبالرغم مما وصفه به ابن طباطبا من أنه كان «سمحًا كريمًا كثير الإنفاق»، فإنه بقى مغلوبًا على أمره طوال مدة خلافته، وحتى أنه خلع مرتين. وفى ذلك يقول ابن طباطبا أيضا «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه. فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم، وهو مشغول ببلذاته، فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال واختلفت الكلم فخلع ثم أعيد ثم قتل».

ويبدو أن مقاليد الأمور كانت بيد أمه صاحبة النفوذ القوى، التي كانت تسمى «السيد». والتي كانت إذا غضبت من أحد الوزراء فإن مصيره كان العزل. وبلغ بها الاستهتار أن عينت قهرمانتها «تومال» على رأس ديوان المظالم. الأمر الذى أدى إلى استخفاف العامة بالدولة. وتفشت الرشوة فى عهد المقتدر، حتى صارت الوزارة تؤخذ بالرشوة، بعدما تدخل، فى أمر تعيين الوزراء، الخدم والحاشية والنساء، فتقلدها بعضهم مرتين وثلاثاً. ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى مدة طويلة فى الوزارة لأن بقاءه لا يتوقف على صلاحيته للعمل بقدر ما يتوقف على رضا أم الخليفة وقهرمانتها وخدم الدار الذين لا هم لهم سوى الحصول على المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة وكان من الطبيعى أن يشتد خطر البيزنطيين على الدولة العباسية، فأغاروا عام 303هـ الموافق 915م على ثغور المسلمين فى الجزيرة. ودخلوا إلى حصن منصور وسبوا من قبه دون أن يجدوا من يصدهم. وفى عام 305هـ الموافق 917م وصل رسولان من بيزنطية إلى بغداد يسألان المقتدر بالله طلب المهادنة والفداء، فأجابهم الخليفة إلى طلبهم ولكن تلك الهدنة لم تدم طويلاً لأن البيزنطيين كتبوا عام 313هـ الموافق 925م إلى أهل الثغور الإسلامية بأمرונهم بحمل الخراج إليهم، وإلا تعرضوا لهجوم البيزنطيين. وفعلاً، نفذوا تهديدهم بغزو «ملطية» عام 314هـ الموافق 926م تخريبها دون أن يهب أحد لنجدة أهلها. وهاجم البيزنطيين فى عام 314هـ الموافق 926م مدينة «ديبل» فى أرمينيا واقتحموها بعد قتال بسيط مع حاميتها. وفى عام 315هـ الموافق 927م ظفر البيزنطيون بسرية من المسلمين خرجت من «طرسوس» إلى بلادهم فأبادوها عن بكرة أبيها. ثم خرج مؤنس الخادم أمير الجيوش على الخليفة عام 317هـ الموافق 929م، وفى عام 320هـ الموافق 932م كذلك. وقد انتهى النفور بينهما أخيراً إلى قتال ذهب ضحيته المقتدر بالله وقطع رأسه وحمله إلى مؤنس المظفر فى الوقت الذى تركت فيه

جشة الخليفة مرمية على قارعة الطريق، ثم بويع بالخلافة بعده أخوه القاهر بالله⁽¹⁾.

تدهورت الأوضاع فى عهد «المقتدر»، وانتشرت الفتن وازداد تمزق الدولة، وأصبحت الخلافة نهباً للطامعين بسبب صغر سنه، وأفلت زمام الأمور من يده، وتحكم النساء والخدم فى شئون البلاد، فكانت «أم المقتدر» وتسمى «شغب» تولى من تشاء وتعزل من تشاء، كما كان «مؤنس الخادم» صاحب مكانة متميزة وخطيرة فى عهد «المقتدر».

وقد ازداد خطر القرامطة اتساعاً وعنفاً فى عهد «المقتدر»، ووصل مداه عام 317هـ = 929م، حينما دخلوا «مكة» بقيادة «أبى طاهر القرمطى» وقتلوا الحجاج فى المسجد الحرام، واستولوا على الحجر الأسود وأخذوه إلى مركزهم الرئيسى (هجر) حتى تم رده إلى مكانه فى عهد «المطيع» عام 339هـ الموافق 950م⁽²⁾.

● بداية ظهور الفاطميين:

ومن أهم الأحداث فى عهد «المقتدر» بداية ظهور العبيدين أو الفاطميين فى «شمال إفريقيا». ويرجع الفضل فى قيام «الدولة الفاطمية» إلى «أبى عبدالله الحسين بن أحمد»، المعروف بأبى عبدالله الشيعى، أحد دعاة الفاطميين البارزين فى المغرب وكان يعرف أحياناً باسم «المحتسب»؛ لأنه كان مراقباً لأسواق «البصرة» بالعراق قبل انتقاله إلى «المغرب». وقد تمكن «أبو عبدالله الشيعى» من القضاء على «دولة الأغالبة» فى المغرب، والاستيلاء على عاصمتهم «رقادة» عام 296هـ الموافق 909م، وتم تنصيب أول إمام من أئمة

1 - د. إبراهيم أيوب - نفس المرجع ص 124.

2 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 44.

الفاطمين وهو «عبيد الله المهدي» - وكنيته «أبو محمد» - وإنه من سلالة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام». وقد تلقب «عبيد الله المهدي» بأمير المؤمنين، وبنى مدينة «المهدية» عاصمة له، وانتقل إليها من «رقادة» عام 308هـ الموافق 920م، وقد نجح الفاطميون في الاستيلاء على «مصر» عام 358هـ الموافق 969م، في عهد الخليفة الفاطمي «المعز لدين الله».

● قيام دولة بني حمدان:

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها عهد «المقتدر» - أيضاً - قيام دولة «بني حمدان» في «الموصل»، فقد استمر «أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان» يحكم «الموصل» والبلاد التابعة لها من قبل الخليفة «المكتفي» حتى وفاته عام 317هـ الموافق 929م، فورثه ابنه «حسن» الملقب «ناصر الدولة» على ولاية «الموصل»، واستطاع أن يمد سلطانه إلى «ديار ربيعة» و«مصر» بأرض الجزيرة، وقد اتسع نفوذ الحمدانيين وملكهم بعد وفاة الخليفة «المقتدر» ونجحوا في بسط سلطانهم على «حلب» و«شمال الشام» عام 323هـ الموافق 945م، بقيادة زعيمهم المعروف «سيف الدولة الحمداني»، الذي قال فيه «المتنبي» أروع قصائد المديح. وقد أسهم أمراء «بني حمدان» وفي مقدمتهم «سيف الدولة الحمداني» في صد غارات الروم «البيزنطيين» عن مناطق الثغور الإسلامية، وفي رعاية الحركة العلمية والأدبية التي بلغت في عهدهم مركزاً مرموقاً. ساءت العلاقة بين «المقتدر بالله» وخادمه «مؤنس الخادم»؛ مما أدى إلى مقتله على يد أنصار «مؤنس» في أواخر شوال عام 320هـ الموافق 932م، بعد أن ظل في الحكم خمساً وعشرين سنة، وهي أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في الحكم حتى عصره. ورغم تدهور أحوال البلاد السياسية في عهد «المقتدر» فإن الحياة العلمية قد شهدت ازدهاراً ملحوظاً في هذا العصر. وبمقتل «المقتدر» دخل عصر نفوذ الأتراك مراحلها الأخيرة.

(١٩) القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتز: 320-322 الموافق 932-934

تولى الخلافة فى شوال عام 320هـ الموافق 932م، عقب مقتل «المقتدر»، و عمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد اتصف «القاهر» بالغلظة وقلة الثبـن، ورغم أنه نجح فى التخلص من «مؤنس الخادم»، صاحب النفوذ الأكبر فى عهد «المقتدر»، ومن غيره من أعيان الدولة إلا أن سوء سياسته كان سبباً فى تدبير الانقلاب عليه والإطاحة به. ولقب القاهر بالله. وصفه المؤرخون بأنه كان مهيباً مقدماً على سفك الدماء، أهوج محباً الأموال، ردىء السياسة صادر جماعة من أمهات أولاد المقتدر، كما صادر أم المقتدر، وعلقها برجل واحدة منكسة الرأس، وعذبها بمختلف أنواع العذاب من ضرب وإهانة، حتى مات بعد أيام قليلة حزناً على ولدها المقتدر بالله وما لحقها من عذاب. تأمرت جماعة «الساجية»، وجماعة «الحجرية» وأخذتا تدبران لإطاحة القاهر بالله بعد أن علمتا أنه أخذ يقيم المطامير للفتك بزعمائهم. لكن القاهر بالله أحس بما أضمر له الساجية والحجرية، فألقى القبض على زعمائهم وقتلهم جميعاً. أثار هذا الأسلوب القاسى قادة الجند، فاتفقوا على خلعه، وزحفوا إلى داره وهاجموها، وهو بداخلها مخمور، فلم يستطع الهرب. فقبضوا عليه وسلموه حتى سالت عيناه على خديه، وبذلك انتهت مدة خلافته، وظل محبوساً إلى أن مات عام 339هـ الموافق 950م فى عهد الخليفة الطائع لله 334 - 364هـ الموافق 945 - 974م.

وقد لعب الوزير المشهور «أبو على بن مقلة» الدور الأساسى فى خلع «القهر» والتكـيل به، لخوفه منه واعتقاده أنه كان يدبر للقضاء عليه فهاجم أعوانه الخليفة «القاهر» فى دار الخلافة.

ولعل من أبرز التطورات السياسية التى شهدتها عهد «القهر» - رغم قصره - ظهور النفوذ البويهى فى بلاد فارس عام 321هـ الموافق 933م، وكان

ذلك مقدمة لامتداد نفوذهم على مقاليد الأمور هناك فى عام 334هـ الموافق 945م، لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الخلافة العباسية فى عصرها الثانى، كما سنبين بعد قليل.

(20) الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر 322-329 الموافق 934-941

بايع الجند «الراضى بالله» فى السادس من جمادى الأولى عام 322هـ وعمره خمسة وعشرون عاماً، وقد كان من خيار الخلفاء، فاضلاً سمحاً جواداً، شاعراً محباً للعلماء. ورغم ما كان يتحلى به «الراضى» من صفات حميدة فإن أمر الخلافة قد اختل فى عهده اختلالاً خطيراً، وازداد تمزق الدولة واستفحل نفوذ المتطلعين للسيطرة على زمام الأمور، فقد ازداد نفوذ البهويهيين فى فارس وتطلعوا للاستيلاء على «العراق»، وتمتع «بنو حمدان» بنفوذ مطلق فى «الموصل» و«ديار بكر» و«ربيع» و«مضر» واستقلت «الدولة الإخشيدية» فى «مصر» و«الشام» عن الخلافة العباسية، وكذلك الدولة السامانية فى «خراسان» و«ما وراء النهر» بزعامة «نصر بن أحمد السامانى»، وأصبح للأمويين خلافة مستقلة فى «الأندلس» تحت حكم «عبد الرحمن الثالث» الأموى الملقب بالناصر (300 - 350هـ الموافق 913 - 961م)، وسيطر القرامطة بزعامة «أبى طاهر القرمطى» على «البحرين» و«اليمامة».

تفشى الفساد فى الدولة العباسية، وكثرت الرشاوى للحصول على المناصب بعد تحكم الجند والنساء فى تدبير أمور الدولة. ومع هذا كان الراضى بالله كما وصفه ابن طباطبا: «شاعر فصيحاً ترك مآثراً للخلفاء العباسيين منها أنه: آخر خليفة دون له شعراً، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مرتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين. وخير دليل على ما وصلت إليه الدولة العباسية فى أيام الراضى

بالله استوزاره ابن مقلة لقاء مبلغ خمسمائة ألف دينار - للمرة الثالثة - ولكنه لم يبق فى الوزارة طويلا، إذ ثار عليه الجند، فانتهت فتنهم بعزله. ثم استوزر الراضى بالله عبدالرحمن بن داود بن الجراح الذى سرعان ما ظهر عجزه هو الآخر عن تصريف شؤون البلاد. واتخذ الراضى بالله تدبيراً حسناً باستدعائه عام 314هـ الموافق 936م ابن رائق - الذى كان والياً على واسط والبصرة - وسلمه مقاليد الأمور، وكلفه تدبير أعمال الخراج والصناع وأعمال المعادن فى جميع النواحي. ثم لقبه «أمير الأمراء»، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الدولة العباسية. هذه الصلاحيات الواسعة، حدث إلى حد بعيد من نفوذ الوزير، فلم يعد الأخير ينظر فى شىء من أمر النواحي ولا الدواوين. ولم يبق له من الوزارة إلا اسمها. حتى أنه حرم من الحضور إلى دار الخلافة إلا فى أيام الموكب، وعندئذ يحضر ليقف ساكناً. إذن دخلت الدولة العباسية فى عهد الراضى بالله مرحلة جديدة أطلق عليها «عصر إمرة الأمراء» إذ أن صاحب هذا المنصب - أمير الأمراء - صار المتصرف فى أمور الدولة وأموالها، وهو الذى يخصص للخليفة ما يكفيه من النفقات، فبطلت بيوت الأموال، واستقل العمال فى الأطراف، وخلعوا الطاعة للخليفة الذى لم يبق له غير بغداد وأعمالها' علماً أن الحكم فيها لأمير الأمراء وليس للخليفة. نتيجة لهذه السياسة ظهرت منافسة قوية لابن رائق من قبل الأمراء، فزال نفوذه عام 326هـ الموافق 938م بعدما حاربه أبو عبد الله البريدى - صاحب الأهواز - كما خرج عليه أحد قواده واسمه «بجكم». ولم يلبث أن دخل هذا الأخير بغداد عام 327هـ الموافق 939م. وآلت إليه «أمرة الأمراء» زهاء عامين: 327 - 329هـ الموافق 938م - 940م فى الوقت الذى ساءت أحوال بغداد، حتى أن العامة عاثوا فى الأرض فساداً، وانقضوا على الحمامات العامة، وأخذوا ثياب من فيها. وكثرت المصادرات، وتفاقم خطر

الصوص الذين تسلحوا لكبس الدور ليلاً. نبلغ من سوء الأحوال أن الراضى بالله عجز عن دفع أرزاق الجند. واستمرت هذه الحالة إلى أن توفي عام 329هـ الموافق 940م. رافق حالة الفوضى والذعر الذى أصاب الناس من شر الصوص أن اشتدت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة العباسية، إذ قويت شوكة الحنابلة، وصاروا يكبسون دور القواد والعمامة. فإن وجدوا نبيذاً أراقوه. وإن صادفوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، ولم يكتف الحنابلة بهذا المقدار، بل استعانوا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد. فكان إذا مر بهم شافعى أغروا به العميان فيضربونه بعصيتهم حتى يكاد يموت. كذلك لم يركن القرامطة إلى الهدوء وسط الفوضى تلك، فاعترضوا سبيل الحجاج عام 332هـ الموافق 935م⁽¹⁾.

ظهور منصب أمير الأمراء:

وتدهورت الأوضاع فى أوائل عهد الراضى تدهوراً كبيراً، بسبب عجز الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى شئون الدولة، وكان «محمد بن رائق» والى «واسط» و «البصرة» واحداً من أبرز هؤلاء القواد وأكثرهم نفوذاً وتأثيراً، فاختره الخليفة «الراضى» ليقوم الإدارى الحاد الذى تعاني منه، وأسند إليه منصب «أمير الأمراء» فى عام 324هـ الموافق 936م. وقد أصبح «محمد بن رائق» بمقتضى هذا المنصب الخطير الذى لم يظهر قبل ذلك على مسرح الأحداث السياسية فى الدولة الإسلامية القائد الأعلى للجيش، والمسئول عن إدارة شئون الدولة والخراج، وأصدر الخليفة «الراضى» أمراً بأن يخطب لابن رائق على جميع المنابر فى جميع النواحي الخاضعة للخلافة، وبذلك تحولت الخلافة إلى منصب شرفى، وأصبح شاغلاً لمنصب «أمير الأمراء» هو الحاكم الفعلى للبلاد، مما جعل كبار رجال الدولة أمثال «أبى

١ - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 127.

عبدالله البريدى، صاحب «الأهواز»، و«بجكم التركى»، و«ناصر الدولة بن حمدان» صاحب «الموصل»، و«تورون التركى» رئيس الشرطة وغيرهم يتصارعون للوصول إليه، حتى جاء البويهيون فسيطروا على زمام الأمور ووضعوا حداً لهذا الصراع. وقد توفى الخليفة «الراضى بالله» وفاة طبيعية فى منتصف ربيع الأول عام 239هـ الموافق ديسمبر 940م، بعد أن كان قد فقد السيطرة على مقاليد الأمور بصورة تكاد تكون كاملة.

(2) المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر: 329 - 333 الموافق 941 - 945:

بويح إبراهيم بن المعتضد - المتقى لله - بالخلافة «وبجكم» القائد قابضاً بيديه زمام الأمور فى الدولة العباسية. فلم يكن للمتقى من النفوذ إلا اسم الخلافة، ولكن التنافس بين الأمراء أضعف أمير الأمراء «بجكم» بالرغم من انتصاره على البريديين عند واسط بالعراق. ثم تابعت عليه المصائب حتى انتهى الأمر بقتله على أيدى بعض الأكراد. وعلى أثر موت «بجكم» دخل أبو الحسن البريدى بغداد فى جيش كبير من الأتراك والديلم، واستولى على دار الخلافة بعد أن هرب الخليفة المتقى لله وابنه ومحمد بن رائق إلى الموصل. وقتل البريديون فى بغداد من وجدوه فى دار الخلافة ثم عمدوا إلى النهب والأذى حتى استاء منهم معظم الناس الذين تنادوا إلى طردهم من بغداد وواسط. وبعد غيبة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً عاد الخليفة إلى بغداد عام 330هـ الموافق 941م. بدأ ظهور الأسرة الحمدانية فى أيام خلافة المعتضد بالله العباسى 279 - 289هـ الموافق 892 - 902م، عندما كلف الخليفة المعتضد بالله الحسين بن حمدان محاربة الخارجى هارون الشارى بالجزيرة وانتصر عليه ابن حمدان. وفى أيام خلافة المتقى لله لمع نجم بنى حمدان فى أفق الدولة العباسية عندما خلع الخليفة على حسن بن عبدالله بن حمدان ولقبه «ناصر الدولة»، كما خلع على أخيه أبى الحسن الحمدانى أيضاً ولقبه «سيف الدولة». وقد

اتخذ ناصر الدولة ابن حمدان سلسلة إجراءات لإصلاح الأحوال فى بغداد. لكن هذه الإجراءات لم تعط النتيجة المتوخاة. بل أن تيار الفساد ازداد وكثرت أعمال اللصوص بالسطو على دور الأغنياء، وارتفعت الأسعار حتى ضاق الناس، ومات العديد منهم جوعاً وانتشرت الأوبئة بعدما تركت الجثث عدة أيام بعد الوفاة على الطرقات. على أن نجم الحمدانيين لم يبق على تلالثة فى فضاء الدولة العباسية بفضل حسد الحاسدين من جانب بقية الأمراء. وقد تمثل هذا الحسد أو العداء على ثلاثة جبهات:

- 1 - خلاف سيف الدولة الحمدانى وتوزون.
- 2 - استعداد البريديين لمعاودة الهجوم على بغداد مرة ثانية، ووقع الحرب بينهم وبين أحمد بن بويه على مسافة قريبة من البصرة.
- 3 - سوء التفاهم بين الخليفة المتقى لله والحمدانيين.

وتفاهم سوء التفاهم هذا حينما أقدم ناصر الدولة بن حمدان على مضايقة الخليفة وأهله بمصادرة ضياعه وضياع والدته. فبعد أقل من سنة اضطر الحمدانيون إلى العودة إلى الموصل بعد دخول القائد التركى توزون بغداد عام 331هـ الموافق 942م ليتولى إمرة الأمراء. ثم قام توزون بطرد البريديين من واسط بعدما استولوا عليها مجدداً لكنه اضطر إلى مصالحتهم والتفرغ لمحاربة الحمدانيين الذين لجأوا للخليفة المتقى لله إلى طلب مساعدتهم بعدما ضيق عليه الخناق توزون فهرب إلى تكريت. وفيها انتصر توزون على الخليفة والحمدانيين. وتابع فلولهم حتى الموصل. فاضطروا إلى مغادرتها، وصولا إلى نصيبين ثم الرقة. والتقى الخليفة فى الرقة محمد بن طغج الإخشيد - صاحب الدولة الإخشيدية فى مصر - وقد أتى ليعرض مساعدته على الخليفة. لكن الخليفة اغتر بوعود توزون بحمايته وفضل العودة من الرقة إلى بغداد على الذهاب إلى مصر. لكن وعود توزون بحماية الخليفة وحلفه الأيمان

الغليظة بذلك ما كانت إلا كلامًا معسولا ووعودًا كاذبة، لأنه أراد الاستتار بكامل السلطة وحرمان الخليفة من كل نفوذ. وتحقيقًا لمآربه عمل على مصالحه البريديين، ثم عقد صلحًا مع ناصر الدولة ابن حمدان ليتفرغ لأمر الخليفة المتقي لله. ولما أحس الخليفة بما يدبره توزون اتصل سرًا ببني بويه الذين وصلوا إلى واسط، ودعاهم للقدوم إلى بغداد، مما أغضب القائد التركي توزون فقبض على الخليفة عام 333هـ الموافق 944م، وخلعه من الخلافة وأقام عبدالله بن المكتفى بالله (289 - 295هـ الموافق 902 - 907م) خليفة مكانه ولقبه المستكفى بالله. أما المتقي لله فقد سمل عينيه ووضع في السجن إلى أن مات⁽¹⁾.

تولى الخلافة في ربيع الأول عام 329هـ الموافق ديسمبر 940م، بتدبير أمير الأمراء «بجكم التركي» وكاتبه «أبى عبد الله الكوفى»، وكان عمره حينئذ أربعًا وثلاثين سنة. وقد كانت خلافة «المتقى» القصيرة 329 - 333هـ الموافق 940 - 944م، سلسلة من الصراع بين كبار رجال الدولة على منصب أمير الأمراء، مما أضاف مزيدًا من الإضطراب والفوضى إلى الأوضاع الداخلية.

(22) المستكفى بالله وانتهاء عصر نفوذ الأتراك: 333 - 334هـ الموافق 944 - 946

تمت بيعته بالخلافة في صفر عام 333هـ الموافق سبتمبر 944م بحضور أمير الأمراء «توزون التركي» وإشرافه، وعمره واحد وأربعون عامًا ولم يكن له أدنى سلطة في إدارة شئون البلاد، بل استمر زمام الأمور في يد أمير الأمراء «أبى الوفاء توزون التركي»، وكاتبه «أبى جعفر بن شيرزاد» وكان من أبرز الأحداث التى شهدتها خلافة «المستكفى بالله» امتداد سلطان الحمدانيين بقيادة «سيف الدولة الحمدانى» على «حلب» و«حمص» اللتين كانتا تحت سيطرة الإخشيديين. وتدهورت الأحوال الداخلية فى عهد «المستكفى» بشكل غير

1 - د. إبراهيم أيوب - نفس المرجع ص 29.

مسبوق، مما أدى إلى تطلع البويهيين - أصحاب النفوذ في بلاد فارس - منذ عام 321هـ الموافق 933م إلى بسط سلطانهم على «العراق» وقد نجحوا في ذلك عام 334هـ الموافق 945م، لتبدأ العصر الثاني للخلافة العباسية، عرفت فيما بعد باسم «عصر نفوذ البويهيين»⁽¹⁾.

ثانياً: عصر نفوذ البويهيين الديلميين من أذربيجان 334 - 447هـ الموافق 945 - 1055م؛

عندما دخل «أحمد بن بويه» «بغداد» في جمادى الأولى عام 334هـ الموافق ديسمبر 945م، كان «المستكفى بالله» هو الخليفة العباسي، ولم يكن أمامه إلا أن يظهر الترحيب به، بل إنه زاد على ذلك فخلع عليه الخلع ولقبه «معز الدولة»، كما لقب أخاه «علياً» «عماد الدولة»، وأخاه «الحسن» «ركن الدولة»، وأمر بأن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم، وكان «على ابن بويه» حاكماً لإقليم «فارس»، و«الحسن ابن بويه» حاكماً لعدة أقاليم أهمها «الري»، و«الجبيل»، و«أصفهان»، في حين دخل أخوهم الأصغر «أحمد» «بغداد». وقد تدهورت أحوال «الخلافة العباسية»، واندثرت معالمها من الناحية الواقعية حينما سيطر البويهيون على «بغداد»، فقد جردوا الخليفة من كل سلطاته، وعدوه مجرد موظف مهمته إضفاء صفة الشرعية على سلطانهم لدى جماهير المسلمين، فحددوا له راتبه، وسلبوه حقه في تعيين الوزراء، وسمحوا له بأن يتخذ كاتباً (سكرتيراً) فقط يشرف على أمواله. ورغم أن البويهيين كانوا شيعة، فإنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية السنية في «بغداد»، ليحلوا محلها خلافة علوية شيعية تتفق مع مذهبهم، وسبب ذلك علمهم أن وجود خليفة من العلويين يهدد ملكهم وسلطانهم، وليس الأمر كذلك في الخليفة السني الذي يستطيعون هم أن يفعلوا به ما يشاءون.

١ - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 47.

يرجع نسب البويهيين إلى رعيم آزارى اسمه بويه . عاش فى إقليم الديلم إلى الجنوب الغربى من بحر قزوين . وقد بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث ، عندما دخل على بن بويه وأخواه الحسن وأحمد فى خدمة الأمير مرداوىج بن زيار صاحب بلاد جرجان وطبرستان وقزوين أذربيجان والكرج . ولى مرداوىج على بن بويه بلاد الكرج ، ثم ما لبث ابن بويه أن ضم إليه «همدان» و«أصفهان» وغيرهما من الأقاليم فى بلاد فارس الأمر الذى جعل الأمير مرداوىج يخافه . فقرر طرده من بلاد الكرج ، وأرسل جيشاً كبيراً لطرده منها . فتنقل على بن بويه حوالى عام 322هـ الموافق 934م بين أصفهان واصطخر وشيراز . وأخيراً رأى ابن بويه أن من مصلحته أن يسترضى الأمير مرداوىج بإقامة الخطبة له ، وتقديم الهدايا الثمينة ، كما أرسل أخاه الحسن ليكون رهينة عند مرداوىج . فلاقى هذا الأسلوب استحساناً لدى الأخير فأضاف إليه أرجان بعد أن ثبته على بلاد الكرج . وسارت الرياح وفق ما يشتهى على بن بويه ، فكانت أن قتل مرداوىج عام 323هـ الموافق 935م بيد جنوده الأتراك الذين تمردوا عليه بزعامة «بجكم» و«توزون» . وبعد مقتل مرداوىج فر الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده ، وسار إلى أخيه على بن بويه بفارس ، عندئذ استقوى على بن بويه بأخويه ، فأرسل أخاه الحسن - الأوسط - إلى بلاد الجبل ، فاستولى عليها . كما بعث أخاه أحمد - الأصغر - إلى أهواز والعراق للاستيلاء عليهما . مستغلاً ضعف الخليفة العباسى ، وقد اضطربت أمور خلافته بسبب اشتداد التنافس بين الأمراء حول منصب «أمرة الأمراء» فما كان من قواد بغداد إلا أن بعثوا إلى أحمد بن بويه - وهو عند واسط بالعراق - يطلبون إليه المعجىء إليهم . فجاء بغداد تلبية لطلبهم فى جمادى الأولى عام 334هـ الموافق 945م . فاستقبله الخليفة العباسى - المستكفى بالله - واحتفى به ، وأعطاه «إمارة الأمراء» ، وعقد له لواء ، ولقبه «معز

الدولة»، ولقب أخاه الأوسط «ركن الدولة» وأخاه الأكبر «عماد الدولة». وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم. يعد هذا التاريخ بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة العباسية، أصبح فيها الخليفة مجرد زعيم دينى لا أمر له ولا نهى ولا وزير، إنما له كاتب يدير إقطاعاته لا أكثر. فى حين غدا ابن بويه سلطة مطلقة التصرف فى العراق، والخلفاء تحت سيطرتهم ووصايتهم. ولم يفتق بنو بويه عند هذا الحد من النفوذ والتسلط، بل تعدوا على أشخاص الخلفاء انتقصوا من حقوقهم. كل ذلك لأن بنى بويه كانوا شيعة زيدية من بلاد الديلم وأذربيجان، وأن باعقادهم لاحق لبنى العباس فى الخلافة، وأنهم اغتصبوها من أصحابها الحقيقيين من أبناء البيت العلوى. فمن هنا راجت الفكرة التى تقول: بأن معز الدولة - أحمد - فكر فى أن يزيل الخلافة من بنى العباس ويوليها علويًا لو لم ينهه أحد أصحابه عن ذلك بقوله: «إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلس بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا». وعندئذ أعرض معز الدولة - أحمد - عن عزل المستكفى، وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس، وانفرد هو بالسلطان الفعلى فى الدولة⁽¹⁾.

برهن سلوك البويهيين مع الخليفة «المستكفى» على صدق ذلك، فقبل مرور شهر على دخولهم «بغداد» دخل «معز الدولة أحمد بن بويه» على الخليفة «المستكفى»، فوقف الناس حسب مراتبهم، فتقدم اثنان من الديلم - وهم قوم «معز الدولة» - فمد الخليفة يده إليهما ظنا منه أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه وطرحاه أرضًا، وجراه بعمامته، ثم هجم «الديلم» على دار الخلافة ونهبوها، وسار «معز الدولة» إلى منزله، وساقوا الخليفة «المستكفى» ماشيًا

1 - د إبراهيم أيوب - المرحع السابق ص 133.

إليه، ثم انتهت هذه المأساة بخلع «المستكفي» وسمل عينيه. وإذا استبعدنا خلافة «المستكفي»، فإننا نجد أن الخلفاء الذين شهدوا عصر نفوذ البويهيين كانوا أربعة هم:

1 - المطيع لله «أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد» 334 - 363هـ الموافق 945 - 974م.

2 - الطائع لله «أبو بكر عبدالكريم بن المطيع» 363 - 381هـ الموافق 974 - 991م.

3 - القادر بالله «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر» 381 - 422هـ الموافق 991 - 1031م.

4 - القائم بأمر الله «أبو جعفر عبدالله بن القادر» 422 - 467هـ الموافق 1031 - 1075م.

(23) خلافة المطيع لله: 334 - 363 الموافق 945 - 973:

بعد أن أمر «معز الدولة أحمد بن بويه» بخلع «المستكفي» في جمادى الآخرة عام 334هـ الموافق 945م، أحضر «أبا القاسم الفضل بن المقتدر» وبأيعه بالخلافة، ولقبه بالمطيع لله، وعمره - حيثئذ - أربع وثلاثون سنة، وحدد له «معز الدولة» راتباً مائة دينار في اليوم. وقد شهدت خلافة «المطيع» أحداثاً كثيرة، أولها: نشوب الصراع بين البويهيين في «بغداد» بزعامة «معز الدولة» (أحمد بن بويه)، وبين الحمدانيين في «الموصل» بزعامة «ناصر الدولة» (الحسين بن عبد الله)، وقد استمر هذا الصراع طويلاً في محاولة كل منهما الإطاحة بالآخر، وفي المحرم عام 335هـ الموافق أغسطس 946م، تم الصلح بين «معز الدولة البويهى» وبين «ناصر الدولة الحمداني» على أن يدفع «ناصر الدولة» الخراج للبويهيين في «بغداد» كل عام.

وبويع المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد - ابن عم المستكفي - بالخلافة، وطالت خلافته حتى بلغت أكثر من ٢٩ سنة وبالرغم من طول مدة خلافته، لم يكن له نفوذ فيها. وإنما كانت الكلمة الأولى والأخيرة في الدولة العباسية للسلاطين من آل بويه وهم:

- معز الدولة: 334 - 356 هـ الموافق 946 - 967 م. عز الدولة بختيار: 356 - 367 هـ الموافق 967 - 977 م منها 7 سنوات في خلافة المطيع والباقي في خلافة الطائع لله 363 - 381 هـ الموافق 974 - 991 م. ومن أهم الأحداث التي واجهت المطيع لله:

الحرب بين الحمدانيين والبويهيين: تنازع كل من ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه السلطان في خلافة المطيع لله، إذ كان كل طرف منهما يريد الإغارة على ما بيد الآخر. ففي السنة الأولى من استلام معز الدولة بن بويه - أحمد - السلطة في بغداد هاجمها ناصر الدولة الحمداني واستولى على الجانب الشرقي منها، لكن معز الدولة تمكن من إنزال الهزيمة بخصمه والحق الأذى بالناس من جراء النهب والقتل الذي مارسه جيش الديلم. وسار معز الدولة عام 337 هـ الموافق 949 م إلى الموصل للاستيلاء عليها ردًا على مهاجمة ناصر الدولة لبغداد، فتركها ابن حمدان إلى نصبيين. عندئذ دخل ابن بويه الموصل، وأسرف في ظلم أهلها. لكنه صالح ناصر الدولة بن حمدان مضطراً بعدما أعلمه أخوه ركن الدولة - حسن بن بويه - أن الجيوش السامانية هاجمت «جرجان» و«الري» بقصد الاستيلاء عليهما حتى يتفرغ لمساعدة أخيه في رد هجمات السامانيين عن مملكته. إلا أن ناصر الدولة بن حمدان استغل فرصة انشغال معز الدولة في مساعدة أخيه، وسير أحد أولاده على رأس قوة من مقاتليه للاستيلاء على بغداد لكنه منى بالفشل. فصمم معز الدولة على رد غدر ناصر الدولة والانتقام بالهجوم على الموصل عام 347 هـ الموافق 958 م

والاستيلاء عليها. ولولا مساعدة أخيه سيف الدولة بن حمدان - صاحب حلب - مقابل ألف درهم (مليونى درهم) لم يتمكن ناصر الدولة من استعادة الموصل من البويهيين.

محاولة العمال والقرامطة الاستقلال بمقاطعاتهم:

كان ضعف الخلفاء العباسيين عاملاً مشجعاً للعمال على الاستقلال بمقاطعاتهم فى العصر العباسى الثالث، إذ أراد أبو القاسم البريدى الاستقلال بالبصرة وقطع خراجها عن العاصمة بغداد. فما كان من معز الدولة إلا أن سار إليه عام 336هـ/ 948م واستولى على البصرة. فهرب البريدى إلى هجر - البحرين - مركز تجمع القرامطة، وبدأ يحرض القرامطة لاسترداد البصرة الذين وافقوا على طلبه أخيراً وأتوا عام 341هـ الموافق 953م ومعهم أمير عمان من البحر. لكن مقاومة أهل البصرة أفشلت خطة البريدى ومن معه من القرامطة وأبعدتهم عنها.

عمران بن شاهين يؤسس له دولة مستقلة فوق أرض «البطيحة»:

قام أحد الجبابة، وهو عمران بن شاهين بجباية الأموال والهرب بها إلى «البطيحة»، فراراً من معز الدولة البويهى، وتحصن عمران هناك. فقويت سلطته بعد أن التف حوله جماعة من الصيادين واللصوص، وأقام فوق أرض البطيحة دولة داخل الدولة العباسية استمرت أربعين سنة: 329 - 369هـ الموافق 940 - 979م، لم يستطع البويهيون إخضاعها إذ أن الهزيمة كانت تحل بجنودهم فى كل مرة يهاجمون بها البطائح.

أزمة الغلاء وقضى الوباء:

فى غمرة الحروب المتواصلة التى اضطرت معز الدولة بن بويه أن يخوضها للحفاظ على سلطانه فى الدولة العباسية، لجأ إلى زيادة جباية الأموال من

الناس للوفاء بأرزاق جنوده. كما أغرى كبار قواده وأصحابه بمنحهم إقطاع القرى ليحصلوا على دخلها. كما أن محابة معز الدولة لجنوده من الأتراك والتوسع في منحهم الإقطاعات أثارت حقد الديلم والأذربيجانيين وحسداهم مما أدى إلى منافرة بين الطرفين. كل هذه الأعمال، وتلك الفتن كانت السبب الرئيسى فى اشتداد أزمة الغلاء وتفشى الوباء وكثرة الوفيات فى بغداد، حتى هجرها كثير من أهلها وبيعت الدور والعقارات بالخبز كما أن الصراعات بين الأتراك والديلم والأذربيجانيين أخافت التجار على أموالهم وأنفسهم، فانعدم النشاط التجارى، واضطربت الحياة الاقتصادية فى بغداد فى خلافة المطيع لله وقت اشتداد الخلاف المذهبى بين الشيعة والسنة. وإزاء تلك الحالة نصح مقدم الأتراك حاجب معز الدولة - سبكتكين - الخليفة العباسى المطيع لله أن يعتزل، ويباع ولده الطائع. فعمل بالنصيحة، وخلع نفسه من الخلافة فى ذى القعدة عام 363هـ الموافق 974م⁽¹⁾.

وجدير بالذكر أن «معز الدولة» كان نائباً فى «بغداد» عن أخيه الأكبر «عماد الدولة» (على بن بويه) فى «فارس»، ثم عن أخيه الأوسط «ركن الدولة» (الحسن بن بويه)، عقب وفاة «عماد الدولة». ورغم أن الخليفة العباسى كان تحت سيطرة البويهيين فإنهم كانوا يخضعون له من الناحية الشكلية فقط. وقد حاول البويهيون صبغ «العراق» بمذهبهم الشيعى، واتخذ «معز الدولة» فى سبيل ذلك خطوات بالغة الخطورة أسهمت فى إثارة عوامل الفتنة والاضطراب داخل مجتمع «العراق»؛ ففى ربيع الآخر عام 351هـ الموافق 962م أصدر «معز الدولة» أمراً بأن يكتب على المساجد لعن «معاوية بن أبى سفيان» وغيره من الصحابة كأبى بكر و«عمر»؛ حيث يتهمهم الشيعة بإساءة معاملتهم وغصبهم حقوقهم، ولم يستطع الخليفة العباسى منه ذلك،

1 - د. إبراهيم أيوب - نفس المرجع ص 136.

وفى العاشر من المحرم عام 352هـ الموافق يناير 963م أصدر «معز الدولة» أمراً بتوقف الناس عن البيع والشراء فى ذلك اليوم، وإظهار البكاء والعويل، وأمر النساء أن يخرجن حاسرات الرؤوس قد شققن ثيابهن وهن يلطمن الوجوه على «الإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام» فى ذكرى استشاده بكربلاء، وكان هذا أول يوم حدث فيه ذلك ببغداد، ولم يستطع الخليفة وأهل السنة أن يمنعوا ذلك لكثرة الشيعة ومناصرة السلطان «معز الدولة» لهم. ومن أهم ما سجله «معز الدولة» من انتصارات: تلخيص «عمان» فى ذى الحجة عام 335هـ الموافق نوفمبر 966م، من يد القرامطة الذين كانوا قد استولوا عليها وعاثوا بها فساداً، فأصبحت بذلك ضمن مملكة البويهيين. ظل «معز الدولة» اثنين وعشرين عاماً يدير الأمور فى «بغداد»، حتى توفى فى الثالث عشر من ربيع الآخر عام 356هـ الموافق مارس 967م، فتولى ابنه «بختيار» إمارة «العراق» بعهد منه، ولقب «عز الدولة». وقد قدم «عز الدولة» صورة صارخة لانصرافه عن المهام الكبرى واهتمامه بملذاته الشخصية، فقد أنفق وقته فى اللهو والتسلية وعشرة النساء والاستماع إلى الغناء، واستولى على أموال كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة فى سبيل ذلك. ولعل من أخطر الأحداث التى شهدتها خلافة «المطيع لله» سيطرة الفاطميين على «مصر» عام 358هـ الموافق 969م، وكانت «مصر» حيثئذ تحت حكم الإخشيديين الذين كانوا يخضعون للخليفة العباسى من الناحية الشكلية، فلما دخلها القائد الفاطمى «جواهر الصقلى» فى شعبان عام 358هـ الموافق يونيو 969م، شرع فى بناء مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة للفاطميين، كما بنى الجامع الأزهر عام 361هـ الموافق 972م، وظل حاكماً لمصر نيابة عن مولاه «المعز لدين الله» حتى عام 362هـ الموافق 973م، حين قدم «المعز» إلى «مصر» فى رمضان فى هذه السنة، فقام بالأمر وأصبحت «مصر» منذ ذلك الوقت

مقرّاً للخلافة الفاطمية الشيعية حتى عام 567هـ الموافق 1172م. ظل «المطيع لله» في الخلافة ما يقرب من «ثلاثين عاماً»، حتى أصيب بالفالج - وهو الشلل النصفي - في أواخر حياته فتعذرت حركته وثقل لسانه، مما دعا «سبكتكين»، حاجب «عز الدولة بختيار» إلى أن يطلب منه خلع نفسه وتسليم الخلافة إلى ابنه «عبدالكريم»، فتم ذلك في 13 من ذى القعدة عام 363هـ الموافق يوليو 974م، ولقب «عبدالكريم» بالطائع لله⁽¹⁾.

(24) الطائع لله عبد الكريم بن المطيع بن المقتدر 363 - 381هـ الموافق 973 - 991م:

بويع الطائع لله عبدالكريم أبو بكر بالخلافة بعد اعتزال والده المطيع لله. فاستمرت خلافته مدة 17 سنة وثمانية أشهر، تعاقب فيها على النفوذ خمسة من سلاطين بني بويه وهم: عز الدولة بختيار بن معز الدولة الذي امتد عهده حتى عام 367هـ الموافق 978م. عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه 367 - 372هـ الموافق 978 - 982م. صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة 372 - 376هـ الموافق 982 - 986م. شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة 376 - 379هـ الموافق 986 - 989م. بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة الذي امتد سلطانه إلى أيام القادر بالله من: 379 - 403هـ الموافق 989 - 1012م منها في عهد الطائع لله: 379 - 381هـ الموافق 989 - 991م ازدادت حالة البلاد سوءاً في أيام خلافة الطائع لله. واشتد تيار الفتنة بين السنة والشيعية، فسفكت دماء كثيرة، وأحرقت «الكرخ»، وتعطلت أحوال الناس، وفي الوقت نفسه أيدت السنة من العامة سبكتكين لكراهيتهم لبني بويه، وما كانوا عليه من تشيع متطرف. في وسط هذه الأزمة كتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان، وإلى ابن عمه عضد الدولة طالباً مساعدتهما ضد الأتراك. فجهز إليه ركن الدولة جيشاً، في حين

1 - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 64.

طمع عضد الدولة في حكم العراق، فخرج لذلك بنفسه قاصداً بغداد، وتمكن من التغلب على الأتراك عام 364هـ الموافق 974م، ثم أخذ يعد السعدة ليحل محل بختيار. وأخيراً كان له ما أراد عندما ظهر عجز بختيار عن دفع أموال الجند الثائرين عليه والمطالبين بالأموال. فأسرع عضد الدولة إلى عزله وحل محله ابن عمه في بغداد عام 367هـ الموافق 977م. لكن العلاقة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة، لم تلبث أن ساءت، لأن الأخير حذف اسم الخليفة من الخطبة، وأمر بأن يخطب له على منابر بغداد، إضافة إلى ضرب الطبول على باب ثلاث نوبات (نوب مفردها نوبة). حاول بهاء الدولة أن تستميل إليه قلوب الجند عن طريق منحهم الأموال، فلما قلت عنده الأموال، أطمعه البعض في أموال الخليفة الطائع لله، وحسن له القبض عليه. فقبض على الخليفة وهو يصيح ويستغيث فلا يلتفت إليه أحد، وكان ذلك عام 381هـ الموافق 991م⁽¹⁾.

تولى «الطائع لله» الخلافة في ذي القعدة عام 363هـ الموافق يوليو 974م وعمره ثلاث وأربعون سنة، وقد توفي والده «المطيع لله» بعد ذلك بفترة قصيرة، في المحرم عام 364هـ الموافق سبتمبر 974م. في بداية خلافة «الطائع لله» حدثت الفتنة بين «عضد الدولة بن ركن الدولة»، وابن عمه «بختيار بن معز الدولة»، فقد شجع «عضد الدولة» جند «بختيار» على الثورة عليه ووعدهم بالإحسان إليهم والنظر في أمورهم فثار عليه الجند وتم القبض على «بختيار» وحبسه في جمادى الآخرة عام 364هـ الموافق فبراير 975م، وأصبحت «بغداد» و«العراق» تحت سلطان «عضد الدولة». وقد عز على «ركن الدولة» أمير أمراء البيت البويهى والد «عضد الدولة» أن يتصرف ابنه «عضد الدولة» مع ابن أخيه «بختيار» بهذه الصورة، فكتب إلى أنصار

١ - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 137.

«بختيار» يساندتهم ويأمرهم بالثبات والصبر ويعرفهم أنه عازم على المسير إلى «العراق» لإخراج «عضد الدولة» وإعادة «بختيار»، فانصرف أنصار «عضد الدولة» عنه واضطر إلى الإذعان لإرادة أبيه، فأخرج «بختيار» من سجنه ورد إليه ما سلبه من سلطانه، وعاد إلى «فارس» في شوال عام 364هـ الموافق يونيو 975م، وكان الخليفة «الطائع لله» مسلوب الإرادة خلال هذه الفتنة، لا حول له ولا قوة. وقد قسم «ركن الدولة» ملكه بين أولاده في جمادى الأولى عام 365هـ الموافق يناير 976م، فجعل لابنه «عضد الدولة» ملك البلاد من بعده، ولولده «فخر الدولة» (أبي الحسن علي) «همدان» وأعمال «الجيل»، ولولده «مؤيد الدولة» (أبي منصور بويه) «أصبهان» وأعمالها، وجعلها تحت رئاسة أخيهما «عضد الدولة»، وأوصاهم بالاتفاق وترك التنازع. وخلف «شرف الدولة» أخوه «أبو نصر فيروز»، الذي لقبه الخليفة «بهاء الدولة وضياء الملة»، ولكن العلاقة بين «بهاء الدولة أبي نصر فيروز» وبين الخليفة «الطائع» وصلت بعد قليل إلى الحد الذي جعل «بهاء الدولة» يقوم بعزل الخليفة؛ فقد قلت الأموال عند «بهاء الدولة»، وثار جنده عليه، فاقترح عليه أحد خواصه وهو «أبو الحسن بن المعلم»، أن يقبض على الخليفة «الطائع» ويستولى على أمواله، فدخل «بهاء الدولة» على الخليفة ومعه جمع كثير، وتقدم أحد رجاله كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة، فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويستغيث دون أن يلتفت إليه أحد، وتم الاستيلاء على أمواله، وحمل الخليفة إلى دار «بهاء الدولة»؛ حيث أرغم على خلع نفسه في التاسع عشر من شعبان عام 381هـ الموافق أكتوبر 991م، بعد أن استمر في الخلافة ما يقرب من ثمانية عشر عامًا، كان خلالها مسلوب الإرادة⁽¹⁾.

1 - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 65.

(25) خلافة القادر بالله 381-422هـ الموافق 991-1030م:

هو «أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر»، اختاره «بهاء الدولة» بعد خلع «الطائع لله» لتولى الخلافة، وكان غائبًا عن «بغداد»، فلما وصله الخبر حضر إليها وبايعه «بهاء الدولة» والناس في رمضان عام 381هـ الموافق نوفمبر 991م، وعمره خمسة وأربعون عامًا.

وقد دامت خلافة «القادر بالله» إحدى وأربعين سنة وحفلت بالكثير من الأحداث والتطورات.

بويق القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بالله بالخلافة ومكث فيها مدة طويلة - 41 سنة - إلى أن توفي عام 422هـ الموافق 1031م. وفي عهده ولى السلطنة بالعراق أربعة سلاطين من آل بويه هم: بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة: 379 - 403هـ الموافق 989 - 1012م. سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة: 403 - 411هـ الموافق 1012 - 1020م. شرف الدولة أبو على بن بهاء الدولة: 411 - 416هـ الموافق 1020 - 1025م. جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة: 416 - 435هـ الموافق 1025 - 1043م. وقد كانت العلاقة طيبة بين بهاء الدولة والخليفة العباسي القادر بالله إذ تزوج الخليفة من سكينه ابنة بهاء الدولة بن عضد الدولة عام 383هـ الموافق 993م على صداق بلغ مائة دينار. وشعرت الخلافة العباسية بالخطر في عهد القادر بالله، عندما أقام قرواش بن المقلد - أمير بني عقيل وصاحب السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة - الخطبة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله 386 - 411هـ الموافق 996 - 1020م، فشكا أبو جعفر عبد الله - القائم بأمر الله فيما بعد - ابن الخليفة القادر بالله لبهاء الدولة الأمر، طالبًا إليه إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه. فأرسل الأخير جيشًا اضطر قرواش إلى إعادة

الخطبة للخليفة العباسي بالرغم من أن البويهيين كانوا متمسكين بالمذهب الشيعي، ويتطلعون من وقت إلى آخر إلى الخليفة الفاطمي⁽¹⁾.

توفي «القادر بالله» في شهر ذي الحجة عام 422هـ الموافق نوفمبر 1031م وعمره سبع وثمانون سنة، ودامت خلافته واحداً وأربعين عاماً، فكانت أطول مدة يقضيها خليفة عباسي في هذا المنصب حتى عصره. كان الخليفة «القادر بالله» يتحلى بصفات جعلته إحدى الشخصيات المتميزة في تاريخ الخلافة العباسية، فقد كان راجح العقل وافر الحلم، مؤثراً للخير، ظاهر الكرم، جميل الأخلاق، أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، كما كان شغوفاً بالعلم محباً لأهله، مستقيم الطريقة في الدين بعيداً عن البدعة، متواضعاً، عزوفاً عن مظاهر الأبهة والتكليف، فكان يخرج من داره في زي العامة، ويزور قبور الصالحين، وكان عادلاً وصولاً ظاهر البر باليتامى والمساكين، قوى الشخصية، يحظى بالاحترام والتبجل؛ فلم يتعرض لما تعرض له غيره من السابقين له من مهانة خلال فترة اضمحلال الخلافة، ورغم ما تعرضت له الخلافة من ظروف وأحداث وتغلغل نفوذ الترك والديلم والأذريجان فإن «القادر بالله» استغل كل ما أتيح له من إمكانيات، وقدم أفضل نموذج يمكن أن نتوقعه لخليفة عباسي في ضوء تلك الظروف. شهد القرنان الرابع، والخامس الهجريان قمة النشاط والازدهار الحضاري بمظاهره المختلفة في أرجاء العالم الإسلامي بصفة عامة وفي «دولة الخلافة العباسية بصفة خاصة؛ ويمثل عصر «القادر بالله» زبدة الحضارة الإسلامية في هذين القرنين، وهكذا كانت الأوضاع الحضارية أحسن حالا من الأوضاع السياسية خلال تلك الفترة⁽²⁾.

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 138.

2 - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 66 - 67.

(26) خلافة القائم بأمر الله ونهاية عصر النفوذ البويهى الديلمى الأذربيجانى
(422 - 447 هـ الموافق 1031 - 1055 م):

تولى «القائم بأمر الله» أبو جعفر عبدالله بن القادر الخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبيه القادر بالله» فى ذى الحجة عام 422 هـ الموافق 1031 م، وعمره ثلاثون عامًا، ولقد لقبه أبوه - قبل وفاته - بالقائم بأمر الله .

فوصلت الدولة العباسية فى عهده إلى أقصى درجات الانحلال والتدهور. فغدت بغداد العاصمة مسرحًا للشغب والمنازعات المذهبية والعنصرية بين مختلف عناصر الجند من عرب وديلم وأذربيجان وترك. إضافة إلى المنازعات والحروب بين البويهيين أنفسهم. وتعاقب على السلطة البويهية فى بغداد ثلاثة سلاطين هم: جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة الذى امتد سلطانه من خلافة القادر إلى خلافة القائم: فى عهد القادر: 416 - 422 هـ الموافق 1025 - 1031 م. وفى عهد القائم: 422 - 435 هـ الموافق 1031 - 1043 م. ومحيى الدين أبو بكر كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة: 435 - 440 هـ 1043 - 1048 م. والملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن محيى الدين المرزبان: 440 - 477 هـ الموافق 1043 - 1048 م. فى عهد القائم بأمر الله، أخذ البويهيون يتقربون من الفاطميين الشيعة للضغط على العباسيين، حتى لا يرتمى الخلفاء العباسيون فى أحضان السلاجقة الأتراك السنيين. ومما لا شك فيه أن الحروب الكثيرة التى قامت بين البويهيين أدت إلى ضعفهم، وبالتالي مهدت الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بغداد. وفى هذا الوقت قام أبو الحارث المعروف بالبساسيرى - غلام تركى - بثورة ضد الخلافة العباسية. وكاتب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله 427 - 487 هـ الموافق 1035 - 1094 م بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد. تجاه ذلك رأى الخليفة العباسى القائم بأمر الله أن عليه الالتجاء إلى السلاجقة السنيين للقضاء

على البساسيري والبويهيين . فكتب إلى السلطان طغرل بك طالباً نجدة ، فكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها طغرل بك بفارغ الصبر ، وأسرع في السير إلى بغداد متظاهراً أنه يريد الحج ومن ثم التوجه إلى الشام ومصر لإزالة الخليفة المستنصر بالله . ومن جهته الخليفة القائم بأمر الله أمر بالخطبة لطغرل بك في جوامع بغداد مفصلاً عن نواياه . وهكذا تمت الخطبة للسلجوقي طغرل بك في يوم الجمعة 22 من محرم عام 447هـ الموافق 1055م ، ثم دخلها بعد ثلاثة أيام ليقبض على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه ، ويضع الخلافة العباسية تحت سيطرة جديدة ، هي سيطرة السلاجقة السنيين⁽¹⁾ .

زادت الأوضاع الداخلية في «دولة البويهيين» في عهده تدهوراً وانحطاطاً ، وأصبحت الدولة جسماً بلا روح ، فقد استمرت أمور «العراق» في فوضى واضطراب ؛ بسبب الصراع بين «جلال الدولة» و «أبي كاليجار» على السيطرة عليه ، وضعفت مكانة «جلال الدولة» ، ورغم الصلح الذي تم بين «جلال الدولة» و«أبي كاليجار» عام 428هـ الموافق 1037م ، وتأكيده بزواج «أبي منصور بن أبي كاليجار» من ابنة «جلال الدولة» فإن «أبا كاليجار» انتهز فرصة وفاة «جلال الدولة» عام 435هـ الموافق 1044م ، واستولى على زمام السلطة في «العراق» في صفر عام 436هـ الموافق أغسطس 1044م ، بعد إحباطه محاولة الابن الأكبر لجلال الدولة للاستيلاء على الحكم في «بغداد» . وأثناء إمارة «أبي كاليجار» في «بغداد» استطاع الأتراك السلاجقة أن يسيطروا على أجزاء كبيرة من البلاد الخاضعة للبويهيين ، واضطر «أبو كاليجار» إلى طلب الصلح مع السلطان السلجوقي «طغرل بك» وزوجه ابنته ، كما تزوج «أبو منصور بن أبي كاليجار» من ابنة الملك «داود» أخى «طغرل بك» ، وأصبحت «الدولة البويهية» معرضة للسقوط في أية لحظة .

1 - د . إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 140 .

وعقب وفاة «أبي كاليجار» فى جمادى الأولى عام 440هـ الموافق أكتوبر 1048م خلفه على إمارة «العراق» ابنه «أبو نصر خسرو فيروز» الملقب بالملك الرحيم، وكانت فترة إمارته تمثل قمة التردى فى أوضاع «الدولة البويهية»؛ حيث دخل فى صراع مع إخوته حل السلطة، واستعان بعضهم بالسلاجقة ضد أخيه «الملك الرحيم»، وأصبح البويهيون تحت سيطرة السلاجقة، وتحدد مصير دولتهم على أيدى هذه القوة الناشئة.

دخول طغرل بك بغداد عام 447هـ الموافق 1055م، وسقوط دولة البويهيين؛

كان القائد التركى المشهور «أبو الحارث أرسلان المظفر بن عبد الله المعروف بالبساسيرى، من أكابر العسكريين الأتراك، وكان يقوم بدور الحاكم العسكرى لمدينة «بغداد»، ويعد صاحب النفوذ الأكبر فى دار الخلافة، وقد كانت هناك خصومة شديدة بينه وبين «أبى القاسم بن المسلمة» (على بن الحسن بن أحمد) وزير الخليفة «القائم بأمر الله»، فاتهمه الوزير بالخيانة، واتصاله بالفاطميين فى «مصر» لميوله الشيعية، ولما تبين ذلك للخليفة «القائم بأمر الله» خشى أثر موقف «البساسيرى» على مستقبل «الخلافة العباسية»، فاتصل بالسلطان السلجوقى «طغرل بك»، وطلب منه القدوم إلى «بغداد» للاستيلاء على السلطة فيها ووضع حد لمحاولات «البساسيرس» الخطيرة ولعجز البويهيين عن إدارة شؤون الدولة فاستجاب السلطان السلجوقى وتقدم بجنوده نحو «بغداد»، وأمر الخليفة بأن يخطب له على منابرها، قبل دخولها فى 25 من رمضان سنة 447هـ الموافق نوفمبر 1055م بثلاثة أيام، وتم القبض على «الملك الرحيم» آخر ملوك البويهيين⁽¹⁾.

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 68.

ثالثاً: عصر نفوذ السلاجقة 447 - 590 هـ الموافق 1055 - 1194م:

أصبح «طغرل بك» ركن الدين أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق أول سلاطين «السلاجقة» في «بغداد»، ابتداء من رمضان 447 هـ الموافق نوفمبر 1055م، وقد استقبله الخليفة «القائم بأمر الله» بكل مظاهر الحفاوة والترحاب، ولقبه «ملك المشرق والمغرب».

الخلافة في ظل السلاجقة

رأى «السلاجقة» في الخلافة السنية رمزاً دينياً يعبر عن وحدة الأمة الإسلامية وعزتها، ونظروا إلى الخليفة على أنه تجسيد حي لهذا الرمز، فأحاطوه بهالة من التقدير والإكبار، ونعمت «الخلافة العباسية» في ظل نفوذ «السلاجقة» بأمرين:

الأول: سيادة المذهب السني في أرض الخلافة.

والآخر: إحاطة الخلافة بما هي أهل له من إكرام وإجلال؛ فأصبح من حق الخليفة اتخاذ وزيراً له، ورغم أن وزير السلطان السلجوقي كان بصفة عامة أوسع نفوذاً وأقوى تأثيراً من وزير الخليفة، فإن ذلك لا يقلل من حقيقة التكريم الذي أسبغه «السلاجقة» على منصب الخلافة، حيث كانت السلطة الفعلية في يد «السلاجقة»، وكانت سلطة الخليفة روحية أكثر منها سياسية.

● فتنة البساسيري ومحاولة إخضاع العراق للنفوذ الفاطمي،

عندما دخل «طغرل بك» «بغداد» اضطر «البساسيري» إلى تركها، وبدأ يجمع حوله عدداً من الأنصار الساخطين على الأوضاع في دار الخلافة، واستطاع الاستيلاء على «الموصل» عام 448 هـ الموافق 1056م، وخطب فيها للخليفة «المستنصر الفاطمي»، ثم مد نفوذه إلى «الكوفة» و«واسط»، وأغرى «إبراهيم ينال» - وهو أخو «طغرل» لأمه - بالانشقاق على أخيه ليضمن

انشغاله عنه بفتنة أخيه . وقد أمد «المستنصر الفاطمي» «البساسيري» بما يدعم موقفه ويمكنه من مد نفوذه، فاستطاع في الثامن من ذي القعدة عام 450هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر 1068م أن يدخل «بغداد» بجيوشه، ويخطب فيها للخليفة الفاطمي، وخضعت «بغداد» للخلافة الفاطمية بمصر، واضطر الخليفة العباسي «القائم بأمر الله» ووزيره «ابن المسلمة» أن يضعا نفسيهما تحت حماية أحد أعوان «البساسيري»، واسمه «قريش بن بدران»، فطلب «البساسيري» من «قريش» تسليمه «ابن المسلمة»، فقتله شر قتلة في أواخر ذي الحجة عام 450هـ الموافق يناير 1059م)، وقام «قريش» بتسليم الخليفة العباسي إلى ابن عم له بنواحي «الأنبار»، فأراه وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة. وحاول «البساسيري» مد سلطانه على مدن «العراق» ما أمكنه ذلك، فاستولى على «البصرة»، وأوشك الأمر أن يستتب للفاطميين بالعراق لولا أن «المستنصر» شك في نيات «البساسيري» وحقيقة مخططاته، فمنع عنه عونه وتأيده؛ مما كان له أثره السيء على موقفه في مواجهة «طغرل بك»، الذي نجح في القضاء على ثورة أخيه «إبراهيم ينال»، وقبض عليه وقتله في التاسع من جمادى الآخرة عام 451هـ الموافق يوليو 1059م⁽¹⁾.

وعندما اقتربت جيوش السلطان السلجوقي «طغرل بك» من «بغداد» هرب «البساسيري» في اتجاه «الكوفة» في السادس من ذي القعدة عام 451هـ الموافق 14 من ديسمبر 1059م، وسيطر «طغرل بك» على «بغداد» بسهولة، بعد عام كامل من سيطرة «البساسيري» عليها، وأعاد الخليفة «القائم بأمر الله» مكرماً إلى دار الخلافة في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام 451هـ الموافق ديسمبر 1059م. ونجح فرسان «طغرل بك» في قتل «البساسيري» في 8 من

1 - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 71.

ذى الحجة عام 451هـ الموافق 15 من يناير 1060م، وبذلك بدأ السلطان السلجوقي «طغرل بك» يعمل على توطيد ملك «السلاجقة» بالعراق.

• بين طغرل بك والخليفة القائم بأمر الله،

كان «طغرل بك» حريصا على إبداء كل مظاهر الإجلال والتوقير للخليفة، وقد اقتدى به خلفاؤه؛ فعاملوا الخلفاء العباسيين بكل ما يليق بمكانتهم من احترام وتعظيم. يروى المؤرخون أن «طغرل بك» كان غائبا عن «بغداد»، فلما عاد إليها عام 449هـ الموافق 1057م توجه إلى دار الخلافة، فلما دخل على الخليفة قبل الأرض وجلس على سرير دون سرير الخليفة، فأمره الخليفة أن يتقى الله فيما ولاه وأن يجتهد في عمارة البلاد وإصلاح العباد ونشر العدل ومنع الظلم، فقام «طغرل بك» وقبل الأرض وقال: «أنا خادم أمير المؤمنين ومتصرف على أمره ونهيه، ومتشرف بما أهلنى له واستخدمنى فيه، ومن الله أستمد المعونة والتوفيق».

وعندما توجه «طغرل بك» لاستخلاص «العراق» من «البساسيري» كان شديد الحرص على سلامة الخليفة. وقد أراد «طغرل بك» أن يمنح نفسه وأسرته شرفا فريدا متميزا، وأن يضيف على سلطانه السياسى صبغة روحية فخطب ابنة الخليفة «القائم بأمر الله» عام 453هـ الموافق 1061م، فأنزعج الخليفة لذلك رغم زواجه من «أرسلان خاتون» (واسمها خديجة) ابنة الأمير «داود» أخى السلطان «طغرل بك» عام 448هـ الموافق 1056م، فلم يحدث أن تزوج أحداً من خارج البيت العباسى منه، وحاول الخليفة «القائم» رفض هذا الزواج، ودافع بكل ما يمكنه فى سبيل ذلك، ولكنه اضطر إلى الخضوع لضغوط وزير «طغرل بك» «عميد الملك الكندرى»؛ فتم العقد لطغرل على ابنة الخليفة عام 454هـ الموافق 1062م ودخل بها عام 455هـ الموافق 1063م.

المقتدى بأمر الله:

توفي الخليفة «القائم بأمر الله» في الثالث عشر من شعبان عام 467هـ الموافق 3 من رمضان 1075 في أوائل سلطنة «ملكشاه»، وعمره يزيد على ستة وسبعين عاما، وقد استمر في الخلافة نحو خمس وأربعين سنة. وقد شهدت خلافة «القائم بأمر الله» تدهور «دولة البويهيين» واندثارها، وقيام «دولة السلاجقة» ثم ازدهارها. وقد أجمع المؤرخون على أن «القائم بأمر الله» كان يتحلى بالأخلاق الحميدة، فقد كان ورعا متدينا زاهدا عالما، قوى اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، مؤثرا للعدل والإنصاف، قاضيا لحوائج الناس. وقد كان للقائم بأمر الله ابنا وحيدا، توفي في حياته، هو «أبو العباس محمد» الملقب بالذخيرة وقد ولد للذخيرة بعد وفاته بستة أشهر غلام، اشتد به فرح جده «القائم» وسماه «عبد الله». وعندما توفي «القائم» كان «عبد الله» هذا في العشرين من عمره فتولى الخلافة بعد جده في الثالث من شعبان عام 467هـ الموافق 3 من رمضان 1075م، ولقب بالمقتدى بأمر الله.

الخلفاء العباسيون في العهد السلجوقي:

كان «المقتدى بأمر الله»، أول خليفة يتقلد منصبه في ظل «دولة السلاجقة»، وبذلك يكون الخلفاء الذين تولوا الخلافة في العهد السلجوقي - بعد «القائم بأمر الله» - ثمانية هم:

27 - المقتدى بأمر الله (عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله)

467 - 487 هـ الموافق 1075 - 1094 م.

28 - المستظهر بالله (أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله)

487 - 552 هـ الموافق 1094 - 1118 م.

- 29 - المسترشد بالله (أبو منصور الفضل بن المستظهر)
552 - 529 هـ الموافق 1118 - 1135 م.
- 30 - الراشد بالله (أبو جعفر المنصور بن المسترشد)
529 - 530 هـ الموافق 1135 - 1136 م.
- 31 - المقتضى لأمر الله (أبو عبد الله بن محمد بن المستظهر بالله)
532 - 555 هـ الموافق 1138 - 1160 م.
- 32 - المستنجد بالله (أبو المظفر يوسف بن المقتضى)
555 - 566 هـ الموافق 1160 - 1170 م.
- 33 - المستضى بأمر الله (أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله)
566 - 575 هـ الموافق 1170 - 1179 م.
- 34 - الناصر لدين الله (أبو العباس أحمد بن المستضى بأمر الله)
575 - 622 هـ الموافق 1179 - 1225 م.
- وقد شهدت خلافة «الناصر لدين الله» زوال ملك «السلجقة في عام 590 هـ الموافق 1194 م وبداية استقلال الخلفاء العباسيين بالسلطة في «بغداد» وما يحيط بها.

رابعاً : عصر ما بعد السلجقة 590 - 656 هـ الموافق 1194 - 1258 م:

تعاقب على منصب الخلافة في هذا العصر ثلاثة خلفاء هم:

- 35 - الظاهر بأمر الله (أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله)
622 - 623 هـ الموافق 1225 - 1226 م.

36 - المستنصر بالله (أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله)

623 - 640 هـ الموافق 1226 - 1242 م .

37 - المستعصم بالله (أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بالله)

640 - 656 هـ الموافق 1242 - 1258 م .

أما أول هؤلاء الخلفاء - وهو «الناصر لدين الله» - فقد حاول أن يضع حداً لطموح «علاء الدين تكش»، الذي أراد أن يتنازل له الخليفة عن السلطة المدنية في «بغداد»، وأن يكتفى بالسلطة الاسمية على العالم الإسلامي، فأشعل الخليفة فتيل الصراع بينه وبين سلطان الغور «غياث الدين محمد بن بهاء الدين»، ونشبت بينهما الحرب عام 594 هـ الموافق 1198 م وانتهت بهزيمة «تكش» ولم يكتف الخليفة «الناصر» بالاستعانة بالغوريين لإضعاف نفوذ الخوارزميين، بل إنه استعان بالإسماعيلية الباطنية، وطلب منه التتار (المغول) مساعدته في القضاء على نفوذ أمراء «خوارزم»، فكان «الناصر» كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ حيث قضى التتار على «الدولة الخوارزمية»، وقضوا على «الخلافة العباسية» أيضاً. وقد توفي الخليفة «الناصر» في أواخر رمضان عام 622 هـ الموافق سبتمبر 1225 م وعمره نحو سبعين عاماً، بعد أن استمر في الحكم سبعة وأربعين عاماً، وقد شهدت خلافته سقوط «دولة السلاجقة»، وظهور قوة المغول، وإسقاطهم «الدولة الخوارزمية»، وتهديدهم للعالم الإسلامي كله، وكانت الخلافة العباسية قد فقدت معظم أراضيها ولم تعد كلمة الخليفة مسموعة إلا في بعض «العراق»؛ فأصبحت الخلافة شكلاً بلا مضمون ووقفت عاجزة أمام هذه الأحداث التي زلزلت كيان الأمة الإسلامية كلها. وقد تولى الخلافة بعد «الناصر» ابنه «أبو نصر محمد» الملقب بالظاهر بأمر الله، وكان حسن السيرة، عادلاً، لكن خلافته لم تظل، فقد توفي في 14 من رجب عام 623 هـ الموافق 11 من يوليو 1226 م، فلم يدم في الخلافة عاماً.

وتولى الخلافة بعد الظاهر بأمر الله ابنه «أبو جعفر المنصور» الملقب بالمستنصر بالله، فسار على طريقة أبيه فى العدل والإحسان وتقريب أهل العلم والدين، وقمع المتمردين، ولكن الظروف القاسية التى أحاطت بالخلافة فى ذلك الوقت قيدت الخلفاء وشلت قدرتهم على العطاء، فقد تصاعد خطر المغول فى خلافة «المستنصر بالله» 623 - 640 هـ الموافق 1226 - 1242 م، وأصبح على أبواب «العراق»، حيث تعرضت «الجزيرة» فى شمال «العراق» لهجمات المغول المدمرة⁽¹⁾.

اجتمع على المسلمين فى هذه الفترة الخطر المغولى القادم من الشرق، والخطر الصليبي القادم من الشمال، وانشقاق البيت الأيوبي على نفسه عقب وفاة «صلاح الدين الأيوبي»، ولم يستطع الخليفة «المستنصر» أن يفعل شيئاً لعدم قدرته على ذلك. وبعد وفاة الخليفة «المستنصر» فى جمادى الآخرة عام 640 هـ الموافق نوفمبر 1242 م تمت البيعة لابنه «أبى أحمد عبدالله» الملقب بالمستعصم بالله، وهو آخر الخلفاء العباسيين فى «العراق»، وكان عمره حينئذ ثلاثين عاماً. ورغم أن «المستعصم بالله» كان موصوفاً بالصلاح والتمسك بالسنة فإنه لم يكن كأبيه «المستنصر» أو جده «الناصر» فى التيقظ والحزم وعلو الهمة.

ومما زاد الموقف سوءاً استعانتة منذ عام 642 هـ الموافق 1244 م بوزير غير ثقة هو مؤيد الدين «أبو طالب محمد بن أحمد العلقمى»، الذى وصفه المؤرخون بأنه كان حريصاً على زوال «الدولة العباسية»، ونقل الخلافة إلى العلويين، ويقال إنه راسل المغول وأطمعهم فى القدوم إلى «بغداد»، حتى ينجو من القتل عندما يدخلونها. وقد شهدت خلافة «المستعصم» حدثاً خطيراً كانت له آثاره البعيدة فى التاريخ الإسلامى هو انتهاء حكم «الأسرة الأيوبية»

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 88.

فى «مصر» وبداية حكم الممالىك، عام 648هـ الموافق 1250م، وكان الملك المعظم «توران شاه» آخر حكام الأيوبيين فى «مصر»، ولم يستمر حكمه شهراً، فقد تولى الحكم فى أول شهر المحرم عام 648هـ الموافق منتصف أبريل 1250م، وقتل فى السابع والعشرين من الشهر نفسه بتدبير زوجة أبيه «الملك الصالح» المعروفة باسم «شجر الدر» التى تولت الحكم بعده وتزوجت «المعز أىك التركمانى»، أحد ممالىك زوجها الراحل «نجم الدين أىوب»، ثم خلعت نفسها من الحكم بعد ثلاثة أشهر هى صفر وربيع الأول وربيع الثانى من عام 648هـ الموافق 1250م، وتولى زوجها «المعز أىك» حكم «مصر»، وكان ذلك بداية العصر المملوكى فى «مصر». وقد استمر الملك «المعز أىك» فى حكم «مصر» سبع سنوات، ثم قتل فى الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول عام 655هـ الموافق 10 من أبريل 1257م بتدبير زوجته «شجر الدر»، حين أراد الزواج عليها، فتولى الحكم بعده ابنه «الملك المنصور نور الدين على ابن أىك»، وكان صبىاً فى الخامسة عشرة من عمره، لا يحسن تدبير الأمور، فتم خلعه بعد ولايته بنحو ستين وثمانية أشهر فى 17 من ذى القعدة سنة 657هـ الموافق 5 من نوفمبر 1259م، وتولى زمام السلطة بعده «الملك المظفر سيف الدين قطز»، الذى كان له شأنٌ كبيرٌ فى الجهاد الإسلامى ضد المغول⁽¹⁾.

• سقوط بغداد فى يد المغول وانتهاء الخلافة العباسية فى العراق 656هـ - 1258م؛

تصاعد خطر المغول فى خلافة «المستعصم بالله»، وخرج قائدهم «هولاكو» - حفيد «جنكيزخان» - على رأس جيش يبلغ تعداداه مائتى ألف قاصداً «العراق»، وأرسل إلى الخليفة «المستعصم» يطالبه بالاستسلام والدخول فى طاعته، لكن الخليفة أرسل بعض الهدايا إلى «هولاكو»!! وقد وصل جيش «هولاكو» إلى «بغداد» فى شهر المحرم عام 656هـ الموافق 1258م وأحاط

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 91.

بعااصمة الخلافة، وكان جيش «بغداد» قليل العدد لا يبلغ عشرة آلاف فارس، بعد أن كان مائة ألف في عهد الخليفة «المستنصر»، ولم يصمد جيش «بغداد» طويلاً في مواجهة المغول، فاقتحمت قوات «هولاكو» «بغداد» في العاشر من المحرم عام 656هـ الموافق 17 من يناير 1258م، وقبض «هولاكو» على الخليفة «المستعصم» وأهل بيته، بتدبير من وزيره الخائن «ابن العلقمي»، كما تم القبض على عدد كبير من علماء «بغداد» وأعيانها وأمرائها، وتم قتلهم جميعاً، واستمر القتال في «بغداد» أربعين يوماً، وبلغ عدد القتلى أكثر من مليون شخص، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها وهكذا أسقط المغول «الخلافة العباسية» في «بغداد» عام 656هـ الموافق 1258م، بعد أكثر من خمسة قرون من قيامها عام 132هـ الموافق 749م، وقد ظن المغول أن سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق أمامه لاكتساح العالم الإسلامي ولكن آمالهم تحطمت على صخرة الجهاد الباسل في معركة «عين جالوت» بفلسطين في رمضان سنة 658هـ (= 1260م)، بقيادة سلطان «مصر» المملوكي «قطز»، مما مهد الطريق لإحياء الخلافة العباسية في «مصر» على يد السلطان «الظاهر بيبرس» عام 659هـ الموافق 1261م⁽¹⁾.

١ - د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف - نفس المرجع ص 92.

الفصل
الثالث

الحياة الإدارية

الإدارة العباسية فى العصر الأول:

١. نظام الحكم:

فقدت الخلافة معناها الإسلامى وأصبح منصب السلطان الإسلامى أكثر من الملك العضوض الذى كان فى عهد الأمويين فى حين أصبحت الخلافة التى كانت فى عهد أبو بكر وعمر وعثمان فى خبر كان أو مجرد ماض أو اسم بدون معنى . أقام العباسيون دولتهم عام 132هـ الموافق 749م وتولى أول خلفائهم «أبو العباس عبدالله بن محمد» السلطة بناء على وصية أخيه إبراهيم الإمام» بعد وقعه فى قبضة الأمويين، وقد حكم «أبو العباس» أربع سنوات، وقبيل وفاته عهد إلى أخيه «أبى جعفر المنصور» بولاية العهد من بعده، ومن بعد «أبى جعفر»، «عيسى بن موسى» وكتب العهد بهذا وصره فى ثوب وختم عليه بخاتم وخواتم أهل بيته وسلمه إلى «عيسى بن موسى». ومن هنا نلاحظ أن الحكم قد بدأ وراثيًا فى عهد «الدولة العباسية» منذ اللحظة الأولى، واقتصر على أهل البيت العباسى، كما أن أكثر الخلفاء كان يوصى بولاية العهد إلى أكثر من شخص؛ مما أدى إلى صراعات ساعدت على تصدع «الدولة العباسية». وحين تولى «أبو جعفر المنصور» الحكم واجه اعتراضًا من عمه «عبدالله بن على» الذى رفض مبايعته، ودعا لنفسه بالخلافة مدعيًا أنه ولى عهد «أبى العباس»، مما دعا «المنصور» إلى توجيه جيش له بقيادة «أبى مسلم الخراسانى» تمكن من القبض عليه والقضاء على دعوته. وقد نقل «المنصور» ولاية العهد من ابن أخيه «عيسى بن موسى» إلى ابنه «محمد»، الذى تولى الخلافة بعد أبيه «المنصور» عام 158هـ الموافق 775م ولقب بالهدى، واستمر فى منصبه حتى توفى عام 169هـ الموافق 789م؛ حيث تولى ابنه «موسى» الملقب بالهادى، ولم يمكث سوى سنة واحدة فى الحكم؛ حيث

تولى من بعده أخيه «هارون الرشيد»، ومنذ عهد «الرشيد» أصبح الصراع السياسى على السلطة إحدى السمات المميزة للعصر العباسى الأول، وكان الصراع بين «الأمين» و«المأمون» وقد انتهى بقتل «الأمين» وتولية «المأمون» الحكم

تنظيم الدولة:

ومنذ البداية كان جو المدينة الجديدة مختلفا عن جو دمشق. ولاشك فى أن بلاط المنصور كان يشاهد العرب يدخلون ويخرجون، ولكنهم لم يكونوا يحضرون، كما كان الحال على عهد عبدالملك، أمام الخليفة كما لو كانوا أمام شيخ من بينهم. فلم يعد ذلك الذى يقيم ببغداد شيخ قبيلة يمكن للجميع الوصول إليه ومناقشته فى الأمور التى تهم الجماعة. فالخليفة العباس أمام كل شىء، فهو رئيس الجماعة الإسلامية وأمام الصلاة. وعمل العباسيون الذين استندوا فى المطالبة بحقوقهم إلى رابطة القرابة بالنبي ﷺ على تأكيد هذه الصلة فى المناسبات كانوا يرتدون (البردة) التى كان يلبسها الرسول ﷺ. وبينما كانوا قد تعهدوا بجزء كبير من سلطانهم الزمنى إلى الوزير. فإنهم احتفظوا بسلطانهم الروحى الذى يرفعهم فوق جميع الناس. رآكن هذه السلطة الروحىة تختلف عن مثلتها عند الأمويين، بفضل مظاهر العظمة التى أحيطوا بها. فالخليفة العباس لا يظهر إلا فى مناسبات نادرة، وحيث يظهر محاطا بشعارات الملك. أما عن البلاط فهو عالم وحده فإلى جانب أفراد الأسرة الحاكمة، وآل البيت الذين يكونون طبقة الأعيان الممتازة، ثم كبار رجال الدولة والموالى والحرس الخاص، كان هناك القراء والأطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان هذا دون الكلام عن الحریم الكبير. لم يصبح إذن خليفة بغداد شيخ قبيلة عربية بل وريث ملوك فارس العظماء، وربما فاق لمعان بلاطه بلاط الأكاسرة والقيصرة. وفيما بعد

سيهتم الخلفاء أيضا بالكتب الفارسية التي تنظم حفلات البلاط الساساني، وستقوم محاولات لتقليدها في بغداد⁽¹⁾.

2. الوزارة،

لم تعد الوظائف والرتب في البلاط وفي الدولة وقفها وراثيا على الأشراف بل أصبحت تعطى وتمنح حسب مزاج الخليفة ورضاه، وأصبحت الثياب الرسمية (الخلع) التي لم يكن يعرفها الأمويون العلامة المميزة لصاحب الوظيفة أو الرتبة. كما أمر المنصور رجال الدولة بأن يلبسوا القلانس المفرطة في الطول. ومنصب الوزير من أهم المناصب التي تميز بها العصر العباسي فالوزير نائب حقيقى لولى الأمر الذى يعهد إليه بأهم جزء من سلطاته الدنيوية. فهو يملك لمحض اختياره تعيين وخلع العمال، وهو المسئول عن توزيع الأرزاق والمرتبات (التصرف فى إيرادات الدولة) وحشد الجيش وتوجيه الرسائل والاتصال بولاية الأقاليم. اتخذت هذه الوظيفة التي لم تكن مبدئيا سوى وظيفة الكاتب أهمية عظمى على عهد العباسيين. وكانت وراثية منذ مدة طويلة فى عائلة البرامكة، الذين كانوا من سلالة أسرة دينية تابعة للمعبد البوذى بالنوبهار «بيلخ» فى «تركستان»⁽²⁾. تعد الوزارة المنصب الثانى بعد الخلافة فى «الدولة العباسية» وقد قسم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين:

- وزارة التفويض: حيث يفوض الخليفة الوزير فى تدبير أمور الدولة برأيه واجتهاده، فتكون له السلطة المطلقة فى الحكم والتصرف فى شئون الدولة.

- وزارة التنفيذ: حيث يكون الوزير وسيطا بين الخليفة والرعية والولاية، ومجرد من أوامر الخليفة. وقد أحدث العباسيون نظام الوزارة فى بداية دولتهم

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 102.

2 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 95.

متأثرين فى ذلك بالنظم الفارسية، ولم تكن مسئوليات الوزير فى بداية الأمر تبعد كثيراً عن مسئوليات الكاتب، وقد حصر «أبو جعفر المنصور» مهمة الوزير فى التنفيذ وإبداء الرأى والنصح، ولم يكن له وزيراً دائماً، ومن وزرائه: «الربيع بن يونس» الذى اشتهر باللباقة والذكاء وحسن التدبير والسياسة. وقد ظهرت شخصية الوزراء إلى حد كبير فى عهد الخليفة «المهدي»، لما ساد الدولة من هدوء نسبي، ومن هؤلاء الوزراء الأقوياء «يعقوب بن داود». ثم صار للوزارة شأن كبير فى عهد «الرشيد»، و«المأمون» لاعتماد الأول على البرامكة، والثانى على «بنى سهل»، فمنح «يحيى البرمكى» وزير «الرشيد»، و«الفضل بن سهل» وزير «المأمون» صلاحيات وسلطات واسعة، جعلت نفوذهما يمتد إلى جميع مرافق الدولة، ولكن سرعان ما تخلص منهما⁽¹⁾.

3. الكتابة:

كانت طبقة الكتاب ذات أهمية كبيرة فى «الدولة العباسية»، وكان الكاتب ذا علم واسع وثقافة عريضة، لأنه يقوم بتحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخل الدولة وخارجها، كما يتولى نشر القرارات والبلاغات والمراسيم بين الناس، ويجلس على منصة القضاء بجوار الخليفة لينظر فى الدعاوى والشكاوى ثم يختتمها بخاتم الخليفة. ومن أشهر الكتاب فى العصر العباس الأول «يحيى بن خالد بن برمك» فى عهد «الرشيد»، و«الفضل» و«الحسن» ابنا «سهل»، و«أحمد بن يوسف» فى عهد «المأمون»، و«محمد بن عبد الملك الزيات» و«الحسن بن وهب»، و«أحمد بن المدبر» فى عهد «المعتصم» و«الواثق».

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 102.

4. الحجاب،

وهى وظيفة تقوم بمساعدة الحكام فى تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية فالحاجب واسطة بين الناس والخليفة يدرس حوائجهم، ويأذن لهم بالدخول بين يدى الخليفة أو يرفض ذلك إذا كانت الأسباب غير مقنعة؛ وذلك حفاظاً على هبة الخلافة وتنظيماً لعرض المسائل حسب أهميتها على الحاكم الأعلى للبلاد. وقد اقتدى العباسيون بالأمويين فى اتخاذ الحجاب، وأسرفوا فى منع الناس من المقابلات الرسمية، ولعل هذا هو السبب المباشر فى نشأة ما أسماه «ابن خلدون» «الحجاب الثانى»، فكان بين الناس والخليفة حاجزان عبارة عن دارين، أحدهما يسمى «دار الخاصة» والآخر «دار العامة»، وكان الخليفة يقابل كل طائفة حسب حالتها وظروفها فى إحدى هاتين الدارين تبعاً لإرادة الحجاب على أبوابها.

وإذا كان الأمويون قد اكتفوا بحاجب واحد ينظم الدخول لدى الخليفة فقد أصبح الخليفة الآن بعيداً، أكثر فأكثر، عن العامة وأصبح الجيش يزداد عدده مع الأيام، من الموظفين ورجال الحاشية. وانسحب الخلفاء تماماً من إدارة شئون الدولة تاركين ذلك لوررائهم، ولكنهم زاولوا دون وساطة حق الحياة والموت. فلقد أصبح «الجلاد أو السفاح» وهو الشخصية التى لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت فى الأدب العربى واقفاً باسمترار إلى جانب الخليفة، كما أصبح النطع والسيف قريبين دائماً من سرير الملك حتى صاراً رمزاً لسلطان الخليفة وشعاراً له⁽¹⁾.

5. ولاية الأقاليم،

والمقصود بالأقاليم: المناطق التى تتكون منها الدولة. وقد كان النظام الإدارى فى «الدولة العباسية» نظاماً مركزياً؛ حيث صار الولاية على الأقاليم

1 - د. سعد رغلول - المرجع السابق ص 74.

مجرد عمال للخليفة على عكس ما كانوا عليه فى «الدولة الأموية»، وقد قسم العباسيون الولاية على الأقاليم إلى قسمين، خصوصاً فى عهد «الرشيد»:

الأول: الولاية الكبرى وهى التى تكون لأحد أبناء الخليفة أو شخص مقرب من الخليفة؛ حيث يتولى هذا الوالى عدة أقاليم فى الدولة ويقوم بتصريف أمورها فى العاصمة، أو من أحد تلك الأقاليم بعد الرجوع إلى الخليفة، ويرسل إليها ما يشاء من الولاة.

الثانى: الولاية الكاملة: حيث يتمتع الوالى ببعض السلطات التى توسع دائرة نفوذه، مثل النظر فى الأحكام وجباية الضرائب والخراج وحماية الأمن وإمامة الصلاة وتسيير الجيوش للغزو. أما عن ولاية الأقاليم لأقاربه فكانت كالتى: استعمل أخيه يحيى بن محمد على الموصل الذى قتل الناس قتلاً ذريعاً لما أظهره من محبة بنى أمية ثم وليها عمه سليمان. واستعمل أخاه أبا جعفر المنصور والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية. ولى عمه داود بن على الكوفة ثم على المدينة ومكة واليمن حيث قتل من بها من بنى أمية، ولما مات داود ولى خاله زياد بن عبدالله الحارثى. ولى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بالكوفة. ولى الشام عمه عبدالله بن على. استعمل عمه اسماعيل بن على على الأهواز⁽¹⁾.

6- الدواوين:

ظهرت الدواوين فى «الدولة الإسلامية»، كبقية المؤسسات الإدارية، نتيجة لاحتياج المسلمين إليها، وقد جعل «ابن خلدون» وجود الديوان من الأمور اللازمة للملك. وللديوان أهمية كبرى فيما يتعلق بأمور الدولة وحقوقها وحصر جنودها ومراتبهم. ويرجع الفضل فى تنظيم الدواوين فى

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 53.

العصر العباسى إلى «خالد بن برمك». وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالدواوين؛ فكثرت اختصاصاتها وتنوعت بسبب التعاون الوثيق بين العباسيين والفرس، فقد أخذ العباسيون الخبرة الفارسية فى مجال الإدارة، كما احتفظوا ببعض تنظيمات «الدولة الأموية» خصوصاً فى الدواوين والدوائر الرسمية، كديوان المصادرات، وديوان الأئمة (المحاسبة) وديوان المظالم، وغيرها وقد اهتم المهدي بالمشروعات ذات المنافع العامة ومنها نظم ديوانا لذوى الحاجات من المجذوبين وأهل السجون فى جميع الجهات أشبه مايكون بنظام الضمان الاجتماعى وإلى المنصور أيضاً تدين الدولة العباسية بوضع نظمها الادارية. فلقد حافظ على نظام الديوان البيزنطى الساسانى الذى بدأ به الأمويون، وحاول الخليفة دائماً أن يضع على رأس كل ولاية حاكم صالح. ودون أن يهمل أفراد عائلته وأقاربه فى توزيع الوظائف، لم يتردد الخليفة فى أن يعهد إلى الموالى والعتقاء بأعلى وظائف الدولة⁽¹⁾.

7. القضاء؛

وهو من الوظائف المهمة فى «الدولة الإسلامية»، ويقوم على المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين جميع الطبقات، وحماية الأخلاق العامة، مستمداً أحكامه من الكتاب والسنة، ونظراً لأهمية هذا المنصب فقد وضع العلماء المواصفات التى يجب توافرها فى القاضى، منها: أن يكون رجلاً قوياً عاقلاً حراً مسلماً عادلاً، ويتمتع بالسلامة فى السمع والبصر، وأن يكون عالماً بأحكام الشريعة. وقد حظى القضاء فى العصر العباسى الأول بالتبجيل والاحترام، وكان تعيينهم وعزلهم يتم بأمر الخليفة، وأول من فعل ذلك الخليفة «المنصور»، فقد عين قضاة البلاد بأمره عام 136هـ الموافق 753م. وقد استقرت المذاهب الفقهية فى عهد «الدولة العباسية».

1 - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 74.

وتحددت مهام القضاة وكيفية الإجراء القضائي، وتوحد القانون وأصبحت جلسات القاضى علنية فى المسجد وخصوصاً فى عهد «المأمون». كما اهتم خلفاء العباسيين بالتبث من الأحكام، فعينوا جماعة من المزكين، وظيفتهم تتبع أحوال الشهود، فإذا طعن الخصم فى شهادة أحد الشهود سئل عنه المزكى، كما اهتموا بأحوال القضاة المادية حتى يعيشوا فى يسر ورخاء. وقد تطور القضاء بصورة ملحوظة فى العصر العباسى الأول، وظهر منصب «قاضى القضاة» وكان يقيم فى عاصمة الدولة، ويقوم بتعيين القضاة فى الأقاليم والبلاد المختلفة، وأول من لقب «قاضى القضاة» «أبو سيف يعقوب ابن إبراهيم»، صاحب كتاب «الخراج»، فى عهد «الرشيد»⁽¹⁾.

بفضل منظمة صاحب البريد التى كانت معروفة لدى الأمويين، والتى توسع فيها المنصور، أمكنه فرض رقابة دقيقة على إدارة الولايات. فقد كان على أصحاب البريد القيام بكل الاستخبارات، ولكن عملهم الرئيسى كان يتركز فى إمداد الخليفة بالمعلومات عن قيام الولاة بوظائفهم. وكانت تقاريرهم المنظمة الدقيقة لها أهمية خاصة، إذ أن معلوماتهم عن حالة المحاصيل كانت تسمح باتخاذ الإجراءات المناسبة فى السنوات الجدية. كما أن إحصاءاتهم عن محطات البريد كانت المصدر الذى استمد منه الجيل التالى علم الجغرافيا الذى ازدهر عند العرب، والذى بدأه ابن رسته الذى شغل وظيفة صاحب البريد بكتابة «المسالك والممالك» وفى ذلك قيل كان المنصور يقول: ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة أنفار لا يكون على بابى أعف منهم، هم أركان الدولة ولا يطمح الملك إلا بهم: أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ثم عض على إصبعة السبابة ثلاث مرات يقول فى

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع - ص 29 - 31.

كل مرة: آه آه، قيل ماهو يا أمير المؤمنين! قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة⁽¹⁾.

الإدارة العباسية في العصر الثاني:

كان لضعف الخلافة العباسية المركزية في العصر الثاني تأثير واضح على النظام الإداري في دولة الخلافة. وأوضح مظاهر هذا التأثير يبدو في نظام «الوزارة». فقد كانت الوزارة في العصر العباسي الأول - بصفة عامة - تابعة للخليفة خاضعة لنفوذه. وعندما كان الوزراء يحاولون التصرف بصورة مستقلة كانوا يجدون ما يردعهم من بطش الخليفة. أما في العصر العباسي الثاني فقد اختلف الأمر، فقد كان الوزراء أكثر استقلالاً ونفوذاً وطمعاً وتنامت ثروتهم لأنهم لم يكونوا يجدون الخليفة الحازم الذي يحاسبهم أشد الحساب، وهذا إذا استثنينا فترة صحوة الخلافة. فلما كانت السنوات الأخيرة في فترة نفوذ الأتراك بطل منصب الوزارة وحل محله منصب أمير الأمراء الذي جار تقريباً على كل سلطات الخليفة. فلما وقعت الخلافة تحت النفوذ البويهى زال أيضاً منصب أمير الأمراء. فلم يعد هناك للخليفة في كل شؤون الخلافة تصرفاً مطلقاً وحرّموا الخليفة حتى من سلطاته الشكلية، مع أنهم اتخذوا لأنفسهم وزراء. وفي فترة النفوذ السلجوقي عاد منصب الوزارة، وأصبح للخليفة وزيره، وللسلطان السلجوقي وزيره، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد السلطان السلجوقي ووزيره، رغم أن السلاجقة عاملوا الخلفاء بما يستحقون من توقير. وبعد زوال نفوذ السلاجقة أصبح للخلفاء وزراءهم المستقلون عن نفوذ الخليفة، ولكن الخلافة في هذه الفترة كانت في طريقها إلى الزوال الكامل - ولم تكد دولة الخلافة تتجاوز بغداد وبعض الأقاليم الأخرى المحدودة. وقد تطور منصب الكتابة في العصر العباسي الثاني تطوراً

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 75.

ملحوظًا، فاتسعت سلطة الكاتب وتنامى نفوذه. وكان الكاتب يرأس ديوان الرسائل الذى كان يعد من أخطر دواوين الدولة العباسية وكان صاحب هذا المنصب يقوم بكتابة الرسائل السياسية ويختتمها بخاتم الخلافة بعد عرضها على الخليفة، وكان ينوب عن الخليفة أحيانًا فى مكاتبه الملوك والأمراء. على أن من أهم التطورات التى شهدتها هذا المنصب فى العصر العباسى الثانى أنه لم يعد مقصوراً على الخلفاء بل بدأ الأمراء والسلاطين يتخذون لأنفسهم كتاباً أوسع نفوذاً من كاتب الخليفة. وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف منصب الخلافة فى هذا العصر⁽¹⁾.

ومع أن العصر العباسى الأول عرف نظام الحجابة فقد تطور هذا النظام كثيراً فى العصر العباسى الثانى. فقد كان الحاجب فى العصر العباسى الأول يقوم بمهمة أساسية هى حجب العامة عن السلطان، فلا يأذن أنه يستحق هذا الإذن. أما الحاجب فى العصر الثانى فقد تجاوز هذه المهمة المحددة وادعى لنفسه سلطات واسعة أصبح ينافس بها سلطات الوزير، وأصبح الحجاب يتدخلون فى أهم شئون الدولة. وقد فتح ذلك مجالاً للصراع بين الحجاب والخلفاء والوزراء. أما منصب الإمارة على البلدان - وهو من المناصب المهمة فى النظام الإدارى - فقد طرأ عليه أيضاً كثير من التطور فى العصر العباسى الثانى. فقد كان هذا المنصب منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية العصر العباسى الأول يخضع فى العادة لسلطة الخليفة؛ فهو الذى يملك حق الولاية والعزل. أما فى العصر العباسى فقد اختلفت الأمور تماماً، ذلك أن الخليفة أصبح يخضع لسلطة عليا من القوى الدخيلة، وهى التى تملك غالباً حق توليته وعزله، وهكذا تدخلت هذه السلطات أيضاً فى تعيين الأمراء (أو العمال) فى الأقاليم التى تخضع لنفوذهم وكان هذا التطور متمشياً تماماً مع ما آل إليه ذلك

1 - د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف - المرجع السابق ص 107.

العصر . وقد اتسع نظام البريد فى العصر العباسى الثانى اتساعاً كبيراً . فقد كانت مهمة البريد فى بداية نشأته توصيل رسائل الخليفة إلى عماله وولاته ونقل رسائلهم إليه وكذلك أخبارهم . ثم اتسعت مهمة البريد - وبالذات فى العصر العباسى الثانى - لتشمل أيضاً مراقبة العمال والتجسس عليهم ، وأن يقدم صاحب البريد إلى الخليفة تقارير دورية وافية بكل ما يحدث فى مكان عمله ، هذا إذا كان تابعاً للخليفة ، ويفعل الشئ نفسه إذا كان خاضعاً لنفوذ الدول المختلفة التى ظهرت فى هذا العصر . ولهذا أصبح نظام البريد فى ذلك العصر أشبه ما يكون بنظام المخابرات فى عصرنا⁽¹⁾ .

التخلص من أبو سلمة الخلال،

كان أبو سلمة الخلال هو حفص بن سليمان الهمدانى من أكبر قبائل اليمن واحداً من زعماء الدعوة فى الكوفة ، تولى أمرها بعد وفاة بكير بن ماهان عام 127هـ ، وأخلص لها ، وبذل جهوداً جبارة فى سبيل نجاح تلك الدعوة ، واستمر بها حتى نجحت الدعوة والثورة وأعلن قيام الدولة العباسية ، بل بعد قيامها عندما لقب بوزير آل محمد ، إذ كان أول من وقع عليه اسم الوزارة فى دولة بنى العباس كما يقول المسعودى . يقول المؤرخون «لما أخذ إبراهيم الإمام إلى مروان نعى نفسه إلى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس ، وبالسَّمع والطاعة له ، وأوصى إلى أبى العباس ، وجعله الخليفة بعده ، فسار أبو العباس ومن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة فى صفر عام 132هـ فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم وكنتم أمرهم أربعين ليلة من جميع القواد والشيعه ، وأراد أن يحول الأمر إلى آل أبى طالب لما بلغه الخبر عن موت إبراهيم الإمام ، فقال له أبو الجهم : ما فعل الإمام ؟ قال : لم يقدم بعد ، فألح عليه ، فقال : هذا ليس وقت خروجه

1 - د . عبد الشافى محمد عبد اللطيف - نفس المرجع - ص 109 .

لأن واسطاً لم تفتح بعد، وكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا، فلم يزل ذلك من أمره حتى دخل أبو حميد محمد الحميري من «حمام أيمن»، فلقى خادماً لإبراهيم يقال له: سابق الخوارزمي، فقال له: ما فعل إبراهيم الإمام؟ فأخبره أن مروان قتله، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس، واستخلفه من بعده، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته، فسأله أبو حميد أن ينطلق به إليهم، فقال سابق: الموعد بيني وبينك غداً في هذا الموضع، وكره سابق أن يدلّه عليهم إلا بإذنهم، فرجع أبو حميد إلى أبي الجهم فأخبره وهو في عسكر أبي سلمة، فعاد أبو حميد إلى الموضع، وانطلق الاثنان إلى أبي العباس وأهل بيته، فلما دخل عليهم سأل أبو حميد من الخليفة منهم؟ فقال داود بن علي، هذا إمامكم وخليفتمكم، وأشار إلى أبي العباس، فسلم عليه بالخلافة، وقال: مرنا بأمرك، ولما بلغ أبو سلمة ذلك ركب إلى الإمام وسلم عليه بالخلافة، فقال أبو حميد: على رغم أنفك يا ماص. بظر أمه، فقال له أبو العباس: مه، وأمر أبا سلمة بالعودة إلى معسكره. عندما علم أبو سلمة بوفاة إبراهيم الإمام، ويعد أن نجحت الثورة في خراسان رأى أن يحول الإمامة إلى العلويين فكانت بالفعل لثلاثة من زعماء العلويين هم على التوالي⁽¹⁾:

- 1 - الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.
- 2 - عبدالله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 89 وانظر: البلاذري / أنساب الأشراف / القسم الثالث ص ص 139 - 140، ابن الأثير / في التاريخ ج 4 ص ص 323 - 323 ، المقدسي / البدء والتاريخ ج 6 ص 68.

3 - عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وقد كتب إليهم أبو سلمة الواحد تلو الآخر، يدعو كل واحد منهم إلى قبول منصب الخلافة، إلا أنهم لم يستجيبوا لدعوته، ربما لعدم وضوح الرؤية بالنسبة لهم. أو لاعتقادهم بأن الوقت لم يحن بعد للتفكير جدياً في هذا الموضوع فكان كل واحد منهم متردداً في اتخاذ قرار حاسم حيال قبول تلك الدعوة من أبي سلمة، ولهذا آثروا التريث ريثما تستقر الأمور وتنجلي الغمة. وقد فاتهم بالفعل أن ما أقدموا عليه، وهو الإحجام عن قبول تلك الدعوة قد أضاع عليه فرصة ذهبية لا يمكن تعويضها، في حين استغلها بنو عمومتهم العباسيون. ويبدو أن تردد هؤلاء الثلاثة في قبول الدعوة هو عدم ثقتهم بولاء أبي سلمة للموالين. لأنه تبين لهم بأن ذلك الرجل كان شيعياً للعباسيين يؤيد هذا ما أشار إليه المسعودي من أنه عندما أرسل أبو سلمة خطاباً إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال جعفر للرسول: وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعي لغيري ولهذا فإن إحجام العلويين عن قبول بيعه أبي سلمة لأول وهلة إنما مرده هو عدم الثقة في أبي سلمة ليس إلا.

تحدث البعض عن الدوافع التي دفعت بالخلال للقيام بحركته تلك إذ يقول: «بالرغم من اختلاف المؤرخين في تفسيرهم لهذا الأمر إلا أننا نعتقد بأن الخلال لم يكن واثقاً من أبي العباس، حيث إن علاقته به لم تكن وثيقة كعلاقة الخلال بإبراهيم، وقد أدرك الخلال أن تسلم أبي العباس للسلطة ربما سيحد من نفوذه القوى الذي أخذ يتعظم خاصة بعد نجاح الثورة وسيطرة الخراسانية على الكوفة، ولذلك حاول الخلال أن يجد شخصية أخرى هاشمية غير عباسية ينصبها خليفة، ويحتفظ بنفوذه السياسي الكبير، ذلك لأنه سيكون صاحب الفضل على الخليفة الجديد، وسيلعب دور (صانع الملوك) في الدولة الجديدة. لقد باءت محاولة الخلال بالفشل لشك العلويين وحذرهم منه أولاً،

ولتردد الشخصيات العلوية بالمغامرة التي تتطلبها ثانياً، ولقوة الدعاة العباسيين في الكوفة ثالثاً، فقد اكتشف الدعاة مكان أبي العباس، وأعلنوا بيعته بين الناس، مما اضطر الخلال إلى الاعتراف بالأمر الواقع والبيعة وبالرغم مما حصل من أبي سلمة عندما أخفى الأمر عن العباسيين بعد نجاح الثورة، وبالرغم من تعاطفه مع العلويين والتواطؤ معهم ومحاولة صرف الأمر إليهم إلا أن أبا العباس قد استورره، ولقب بوزير آل محمد، فعل ذلك أبو العباس السفاح كله ريثما تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع، وحتى لا يتهم العباسيون بقتل وذررائهم، ومن حققوا لهم ملكاً، أما بعد ذلك - أقصد استقرار الأوضاع - فسوف يعمل ما من شأنه التخلص من أبي سلمة بأية طريقة تضمن لأبي العباس سرية ذلك.

الأمر اقتصر على ذلك - أقصد إخفاء الأمر عن العباسيين طيلة أربعين يوماً - بل إن أبا سلمة نفسه راح ضحية ذلك العمل حيث نقل إلى أبي العباس بعد أن تولى الخلافة خبر تلك المراسلات، فأسر ذلك في نفسه. فعندما افترض أمر أبي سلمة بالنسبة لإخفاء الأمر عن العباسيين حاول أن يحفظ ماء وجهه وذلك بالذهاب إلى أبي العباس وإخباره بنهاية الدولة الأموية، ومبايعته بالخلافة، إذ سلم عليه بها، وقبل يد أبي العباس وقدميه، واعتذر له عما بدر منه، فقبل السفاح عذره قائلاً: عذرناك يا أبا سلمة غير مغند وحقك لدينا معظم، وسابقتك في دولتنا مشكورة، وزلتك مغفورة. ومع هذا فإن الأمر قد فات في نظر أبي العباس كما يقول المقدسي لقد صمم أبو العباس على التخلص من أبي سلمة مهما كلفه الأمر، وأخذ يفكر في الأمر ملياً حتى هداه إلى الكتابة لأبي مسلم الخراساني شارحاً له في ذلك مراسلة الخلال للعلويين، ومبيناً ميوله تجاههم، ورغبة أبي سلمة في نقل الخلافة إليهم إذ قال له: إني وهبت جرمه لك، ثم أرسل السفاح في

استئصال شأفة ذلك الرجل . ويبدو أن ذلك أيضًا وافق هوى فى نفس أبى مسلم الذى أراد هو الآخر التخلص من شخص يعتبر من أبرز شخصيات الدولة العباسية ، ولعله رأى فى قتله ما يشبع رغبته ، وذلك بانفراده بالسلطة إن قدر له ذلك ، وأن لا يكون لأحد ذكر سواه ، لأن وجود أبى سلمة يزعج - ولا شك أباً مسلم ، حيث أن نفوذ أبى سلمة الواسع أصبح يشكل خطورة على أبى مسلم والخليفة أيضًا إذ يقول ابن قتيبة . وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين . ولا جدال فى أن أباً مسلم قد وجد فى استئصال شأفة أبى سلمة فرصة للانفراد بالنفوذ إذ يقول البعض : كان أبو مسلم أخاً لأبى سلمة فى الجنس ، ومنافسه فى الدولة ، ومحاول صرف الخلافة عن أهلها ليظهر وحده بسلطانها ، لذلك لا يكاد أبو مسلم يستشار فى هذا الأمر حتى يبعث إلى الهاشمية من يقتل أباً سلمة فى الليل ، وبذلك يريح الله الخلافة من كيد أبى سلمة ، ويريح أباً مسلم من منافسة أبى سلمة ، إلا أن أباً مسلم نسى أن النظر سيتحول إليه ، وأن التهمة ستتركز فيه ويضيف الدينورى إلى ذلك قائلاً : إنه كان ينفذ الأمر من غير مؤامرة يقصد أباً سلمة . ولهذا لا نستبعد رغبة أبى مسلم فى التخلص من أبى سلمة ، وموافقة الخليفة على استئصال شأفته عندما طلب منه الخليفة ذلك⁽¹⁾ .

يقول البلاذرى : كتب أبو العباس إلى أبى مسلم يعلمه الذى كان من تديره فى صرف الأمر عنه ، ونكته ببيعة الإمام ، فكتب أبو مسلم يشير بقتله ، فكتب إليه : أنت أولى بالحكم فيه فابعث من يقتله ، فوجه مرار بن أنس الضبى ، فلقية ليلاً فأنزله عن دابته ثم ضرب عنقه ، ثم جمع أبو الجهم بن عطية - وكان عينا لأبى مسلم يكتب إليه بالأخبار - جميع القواد فقال : إن

1 - عبد العزيز محمد الميلم - نفس المرجع ص 92 وانظر برائق : محمد أحمد : الوزراء العباسيون ص 53 الأخبار الطوال ص 368 .

حفصًا كان غاشيًا لله ورسوله والأئمة فالعنوه . ويقول ابن طباطبا: استوزر السفاح أبا سلمة وفوض الأمور إليه وسلم إليه الدواوين ، ولقب وزير آل محمد ، وفي النفس أشياء ، وخاف السفاح إن هو قتل وزيره أن يستغفر أبو مسلم ويتنمر ، فتلطف لذلك ، وكتب إليه يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ، ويقول له : إنني وهبت جرمه لك ، وباطن الكتاب يقتضى تصويب الرأى فى قتل أبى سلمة . بينما أشار الطبرى فى معرض حديثه عن ذلك من وجه آخر إذ يقول : تذاكر قوم ماصنع أبو سلمة ، فقال رجل منهم : ما يدريكم ؟ لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأى أبى مسلم ، فقال أبو العباس السفاح : لئن كان هذا رأى أبى مسلم إنا ليعرض بلاء إلا أن يدفعه الله عنه . كما أورد ابن قتيبة رواية شبيهة برواية الطبرى إذ يقول فيها :

لما قدم كتاب أبى العباس السفاح إلى أبى مسلم كتب إليه قائلا : إن كان رابك منه ريب فاضرب عنقه ، فلما أتاه الكتاب قال له وزراؤه : إنك لا تأمن من أن يكون ذلك غدرا من أبى مسلم ، وأن يكون إنما يريد أن يجد السبيل إلى ما تتخوف منه ، ولكن اكتب إليه أن يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه .

ومن يدري بالفعل ؟ فلربما دفع أبو مسلم بأبى سلمة إلى أن يسلك هذا المسلك مع العلويين حتى يوقع به بالتالى أمام العباسيين ، ويخلو له الجو بحيث يصبح هو الشخصية المرموقة فى الدولة العباسية بعد إزالة وزير آل محمد من طريقه ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فلعل أبا مسلم عندما كتب إلى أبى العباس يحرضه على قتل أبى سلمة إنما أراد بذلك أيضا أن يسجلها على العباسيين ويدينهم فى هذا ، إن قدر له أن ينجح فى مسعاه وهو الاستحواذ على السلطة . إذا فإشارة كل من الطبرى وابن قتيبة - فى رأى - لا تبعدان كثيرا عن الصواب . وهناك رواية أخرى انفرد بها كل من يعقوبى

والمسعودى تختلفان عن سابقتيهما وهى أن أبا مسلم وليس السفاح هو الذى أشار بقتل أبى سلمة إذ يقول المسعودى: وكان فى نفس السفاح من أبى سلمة شىء لأنه كان حاول فى رد الأمر عنهم إلى غيرهم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله ويقول له: قد أحل الله لك دمه لأنه قد نكث وغير وبدل، فقال السفاح: ما كنت لأفتح دولتى بقتل رجل من شيعتى لاسيما مثل أبى سلمة، وهو صاحب هذه الدعوة، وقد عرض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح إمامه، وجاهد عدوه. وقد كلمه أبو جعفر أخوه، وعمه داود بن على فى ذلك، وقد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله، فقال أبو العباس، ما كنت لأفسد كثير إحسانه، وعظيم بلائه، وصالح أيامه، بزلة كانت منه، وهى خطرة من خطرات الشيطان، وغفلة من غفلات الإنسان، فقالا له: فينبغى يا أمير المؤمنين أن تحترس منه، فإننا لا نأمنه عليك، فقال: كلا، إني لأمنه فى ليلى ونهارى، وسرى وجهرى، ووحدتى وجماعتى، فلما اتصل هذا القول من أبى العباس بأبى مسلم أكبره وأعظمه، وخاف من ناحية أبى سلمة أن يقصده بمكره، فوجه جماعة من ثقات أصحابه فى أعمال الحيلة فى قتل أبى سلمة. أما اليعقوبى فقد زاد على ذلك قائلا: بلغ أبو العباس عن أبى سلمة أمور أنكرها، وذكر له تدبيره، وما كان عليه وتأخير له، والتماسه صرف الدولة إلى بعض الطالبين، وكتب إليه أبو مسلم من خراسان: أن اقتل أبا سلمة، فإنه العدو الغاش، الخبيث السريرة، فكتب إليه أبو العباس: أن وجه أنت من يقتله، وكره أبو العباس أن يوحش أبا مسلم بقتله، أو يوجد سبيلا إلى الاحتجاج عليه به، فوجه أبا مسلم مراد بن أنس الضبى، فجلس على باب أبى العباس، فلما خرج ثار إليه فضرب عنقه. ومعنى هذا فإن كلا من اليعقوبى والمسعودى يشيران إلى أن أبا مسلم هو الذى يتحمل كامل المسؤولية فى قتل الرجل العظيم الذى قدم

الكثير من الجهد والمال لخدمة الدعوة والدولة، وكان هدف أبى مسلم من ذلك الإجراء الذى اتخذه معروفاً ولا يقبل الجدل⁽¹⁾.

وبالرغم من تواتر الأخبار لدى العديد من المؤرخين بالنسبة لتواطؤ أبى سلمة مع العلويين ومحاولة تحويل الأمر إليهم، إلا أن هناك من أورد خلاف ذلك إذ يشير ابن العمرانى إلى أن أباً مسلم وليس أبو سلمة هو الذى حاول تحويل الخلافة إلى العلويين إذ يقول عن سبب مقتل أبى سلمة:

«جرى بين أبى مسلم وأبى سلمة ملاحاة فى أمر من الأمور، فقال له أبو مسلم: هذه الدولة أنا أظهرتها، فإن لزمتم معى ما يلزمه التابع للمتبع وإلا أعدتها فاطمية، ثم ندم أبو مسلم على ما بدر منه، وخاف أن يوصله أبو سلمة إلى سمع السفاح، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح إلى هزيع من الليل فأوقف له أبو مسلم جماعة وبأيديهم السيوف، فلما عبر هناك قطعوه إرباً إرباً».

وهذا لا يمنع من أن أباً مسلم هو الآخر كان يتعاطف مع العلويين إلا أن المتعارف عليه لدى كثير من المؤرخين هو أن أباً سلمة هو الذى حاول صرف الأمر إلى العلويين بشكل واضح وجلى كما أثبتته أمهات كتب التاريخ. كما يجب أن لا يغيب عن البال بأن مركز أبى سلمة كان خطراً على الدولة العباسية وعلى الخليفة نفسه، لأن أباً سلمة لم يكن يدين لأبى العباس فى هذا المنصب، حيث إنه كان رئيساً للدعوة فى الكوفة قبل أن يظهر اسم أبى العباس على السطح، وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين كما يقول ابن قتيبة. وسواء كان مقتل أبى سلمة بمشورة السفاح أم برأى أبى مسلم فإن ذلك الرجل قد قضى نحبه، وقتل ضحية لسياسته تجاه

1 - عبد العزيز محمد الميلم - نفس المرجع ص 594 انظر مروج الذهب ج3 ص ص 284 -

285 تاريخ يعقوبى ج2 ص 352.

العباسيين، ولسياسة الدولة العباسية نفسها، وختمت حياته، وطويت صفحة من أعظم الصفحات فى تاريخ حياة ذلك الرجل، وفى تاريخ قيام الدولة العباسية نظير ما قدمه من أباد بيضاء فى العمل على نجاح الدعوة فالثورة فالدولة، كل تلك ذهبت أدراج الرياح. ويبدو بأن أبا سلمة يتحمل جزءاً كبيراً مما تعرض له على يد السلطة العباسية سواء عن طريق أبى العباس أو عن طريق أبى مسلم، لأن أبا سلمة أحسن مبتدئاً وأساء معقّباً، كما يقول المنصور عن أبى مسلم عندما رمى برأسه إلى أتباعه. ولهذا فإنه ليس أمام أبى العباس من خيار إلا استئصال شأفته حتى لا ينفطر العقد وتذهب جهود العباسيين سدى. وعلى العموم فإن ما أقدم عليه أبو العباس السفاح إنما كان سياسة تنم عن دهاء وحيلة وذلك بإبعاد التهمة فى قتل أبى سلمة عن بنى العباس، وإلصاقها بأبى مسلم الذى لم يكن هو الآخر محبوباً من العباسيين، لأنه أصبح - أى أبو مسلم - فى نظر العباسيين أقوى شخصية سياسية فى خراسان، بل وفى غيرها من المناطق، وكان تعيين الخليفة السفاح له والياً على خراسان بمثابة اعتراف بالأمر الواقع. ولقد وضحت طموحات أبى مسلم فى وقت مبكر قبل إعلان دولة بنى العباس ذلك أنه قتل نقيب النقباء، وداعى الدعاة «سليمان بن كثير الخزاعى» على مرأى ومسمع من أبى جعفر المنصور عندما زار خراسان إذ لم يستأذنه فى قتل سليمان بن كثير مع وجود أبى جعفر، وبالرغم كذلك من توصية إبراهيم الإمام أبا مسلم بأنه لا يعصى لسليمان بن كثير أمراً ولا يخالف له رأياً، وإن أشكل على أبى مسلم أمر فليرجع إلى سليمان، ومع كل ذلك فقد قتله أبو مسلم دون استشارة أحد من العباسيين⁽¹⁾.

1 - عبد العزيز الميلم - نفس المرجع ص 96.

يبدو أن إرسال أبي جعفر إلى خراسان إنما كان الهدف منه هو جس النبض، والتعرف عن كذب على نفوذ أبي مسلم ونواياه، بالرغم من أن سبب الزيارة في الظاهر إنما كان بقصد التشاور في أمر أبي سلمة الخلال، وانحرافه عن العباسيين إلى العلويين، وكذلك الرغبة في أخذ البيعة من أبي مسلم لكل من الخليفة وولي العهد، إلا أن أبا جعفر أثناء زيارته تلك قد زادت شكوكه في ولاء أبي مسلم لأمر رآها واضحة أمام ناظريه، ولعل من بينها قتل أبي مسلم لسليمان بن كثير دون استشاره أبي جعفر في الأمر على الأقل، هذا بالإضافة إلى شعور أبي جعفر بأن أبا مسلم لم يحتف به أثناء إقامته هناك بما يليق به، مما يضع علامات استفهام أمام أبي جعفر حيال ذلك الولاء. إن قتل سليمان بن كثير على يد أبي مسلم دون موافقة أبي العباس ودون استشارة أبي جعفر تدل دلالة واضحة على اعتداد أبي مسلم بشخصه، وقوة نفوذه، ولهذا نرى بأن أبا جعفر عندما عاد من خراسان قال لأبي العباس السفاح! إن أبا مسلم يفعل ما يريد، بل حرض الخليفة على قتله قائلاً له: تغده قبل أن يتعشاك، والله إن في رأسه لغدرة، ولكن أبا العباس أثر التريث في اتخاذ إجراء صارم ضد أبي مسلم على اعتبار أن الوقت لم يحن بعد للتنكيل به، ولأن هناك العديد من الأعوان والأتباع لأبي مسلم، والذين يخشى بأسهم إن قدر للعباسيين أن يتخذوا إجراء كهذا، وإضافة إلى ذلك فإن لدى أبي مسلم عيون على أبي العباس نفسه، يوافونه بكل صغيرة وكبيرة عما يجري داخل الخلافة. وهذا لا يعني أن أبا العباس لم يكن لديه الاستعداد للقضاء على هذا الرجل، ولكنه كان أكثر تعقلاً من أبي جعفر أو على الأصح أقل تسرعاً من أبي جعفر خاصة في مثل هذا الأمر. حيث يحتاج الموضوع إلى بعض الوقت. استمر الوضع على ما هو عليه بالنسبة لموقف العباسيين من أبي مسلم طيلة عهد أبي العباس، فلما تولى أبو جعفر الخلافة جد في

الأمر، وعمل على التخلص من أبي مسلم بأية طريقة، وقد تم له ما أراد، عندما استدرجه إلى العراق بالعديد من الوسائل حيث أن أبا مسلم قد أزمع الخروج إلى خراسان مجتمعاً على الخلاف، ولكن الخليفة تمكن من إقناعه بالحضور إلى العراق لأنه لو لم يدخل العراق لما استطاع أبو جعفر عمل شيء ضده، وعندما قدم أبو مسلم إلى العاصمة استقبله أبو جعفر وأعد له مسكناً خاصاً ما لبث أن حاكمه محاكمة تنم عن عزم المنصور على استئصال شأفته حيث أصبح خطراً على الخلافة بل الخليفة، وقد انتهت حياته على يد أربعة من حراس المنصور الذين اعتوروه بسيوفهم، عندما صفق المنصور بيديه معلناً إشارة البدء في قتله.

العباسيون وسياسة التخلص من الزعامات وأصحاب النفوذ،

ولم يقتصر الأمر على ذلك بالنسبة للإيقاع بزعامات المؤسسين للحكم العباسي من أمثال أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني، فلقد قاوم العباسيون تطلع المشاركة إلى النفوذ والسلطة بكل ما يستطيعون، فإضافة إلى ما ذكرنا نرى بأن الرشيد أيضاً ينكل بالبرامكة، وكذا المأمون عندما نكل بالفضل بن سهل وزيره. كل هذا دفع بالعباسيين إلى التنكيل بتلك الزعامات عندما تطلعت إلى السلطة والنفوذ أو مالات العلويين وأشياعهم، ولعل مما يؤيد هذا الكلام ما أشار إليه البعض إذ يقول: «وتبين لك أسباب استياء بعض طبقات الأمة العربية، وأكثر الأمم المغلوبة من سياسة بني العباس، ومحاولة إسقاط الدولة المذكورة، ولا نستثنى من بين هذه الأمم أمة واحدة، حتى الأمة الفارسية التي كان ينتظر أن تكون راضية عن حالتها في أيام بني العباس، وسعيدة بما طرأ على الإمبراطورية العربية من التغيير الذي أدى إلى انتقال عاصمة المملكة إلى جوارهم، وإشراك الطبقة العالية منهم في إدارة البلاد، واقتباس بعض أنظمتهم وعاداتهم القديمة، إلى غير ذلك من طرق

المجاملة والتزلف إليهم، ومع ذلك لم تكن المشاركة راضية عن حالتها فى خلافة بنى العباس عامة، وقد أخذ استيائهم يظهر بصورة جلية بعد نكبة البرامكة حين أخذت المشاركة تدرك أن سياسة بنى العباس نحوهم لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة أسلافهم، وأنهم لم يكونوا يجاملونهم ويقربونهم من أنفسهم فى أول عهدهم بالخلافة إلا لأنهم كانوا فى حاجة ماسة إليهم، ولأن مصلحة أسرته كانت تقتضى ذلك لا مصلحة المشاركة، ولولا ذلك لما قضا على حياة أبى مسلم الخراسانى الذى أجلسهم على كرسى الخلافة، وحياة كثيرين من عظماء المشاركة وقوادهم. ولهذا ولأسباب أخرى لم يمض على حكم بنى العباس زمناً طويلاً حتى أخذ المشاركة يشعرون بأن لا داعى لسرورهم من التغيير السياسى الذى تم بمساعدتهم فى الخلافة الإسلامية، وأنه لا أمل لهم فى تحسين شروط حياتهم الاقتصادية والحقوقية، لأنهم رأوا أن الأسرة الجديدة تتبع فى سياستها الداخلية سياسة الأسرة السابقة أى «سياسة السوط والسيف». هذا الكلام الذى قال به هذا الكاتب لا يخلو من مبالغة شديدة فى كثير من الآراء التى طرحها فليست أغلب الأمم المغلوبة عربية كانت أم غير عربية مستاءة من الحكم العباسى ومحاولة فى نفس الوقت إسقاط الدولة المذكورة. ونفس الشئ بالنسبة لأبى مسلم الخراسانى فليس أبو مسلم الخراسانى وحده هو الذى أجلس العباسيين على كرسى الخلافة - كما يدعى الكاتب بل هناك العديد ممن أسهموا فى قيام الدولة العباسية، وهم لا يقلون بحال من الأحوال عن أبى مسلم الخراسانى إن لم يزيدوا عليه. ولو عدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا أن الدعوة للرضا من آل محمد قد قامت فى نهاية القرن الأول الهجرى أو أوائل القرن الثانى الهجرى وقام بهذا الأمر العديد من الدعاة والنقباء ممن ضحوا فى سبيل نجاح الدعوة قبل أن يولد أبو مسلم الخراسانى، فأبو مسلم لم يشترك فى هذا الأمر إلا بعد مضى ما يزيد

عن سبعة وعشرين عامًا. كلها قام بها رجال أكفاء ربما يتوفر للبعض منهم إضافة إلى ما يتميز به أبو مسلم عنصر الإخلاص الذي افتقده أبو مسلم خصوصًا في نهاية الأمر⁽¹⁾.

التخلص من عبد الله بن علي عم المنصور

اعتلى حكم الخلافة بعد السفاح أخوه أبو جعفر عبد الله الملقب بالمنصور (المنصور بالله) وهو الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للأسرة العباسية. وأول مشكلة تعرض لنا بموت السفاح وإعلان خلافة المنصور هي مشكلة الأسرة الحاكمة وولاية العهد. ورغم تدخل أبي جعفر في الحكم تدخلًا مباشرًا مع أبي العباس وظهوره بمظهر الشريك لأخيه في الحكم - حتى قيل أنه كان أسن منه وكان أحق منه بالخلافة - رغم هذا ورغم أن السفاح عهد له بولاية العهد والخلافة من بعده وأخذ له البيعة، على أن يلي ابن أخيه عيسى ابن موسى، من الهاشميين وكبار رجال الدولة، فإن اعتلاءه لعرض الخلافة لم يتم دون منازعة. وربما كان طبيعيًا حدوث مثل هذا النزاع أول الأمر نظرًا لحدثة الدولة وعدم استقرار - أو بوجه أخرى عدم قيام - نظمها وتقاليدها. ولكن المسألة كانت أعمق من هذا إذ ستكون نقطة من نقاط الضعف الخطيرة، طيلة حكم الأسرة التي تظهر في شكل الصراع بين أفراد الأسرة من أجل الحكم. والحقيقة أنه لا ينبغي إلقاء تبعة ذلك على الأسرة الجديدة، إذ المسألة تاريخية ترجع إلى عهد الأمويين بل وأبعد من هذا إلى عهد الخلفاء الراشدين فالحكومة الإسلامية وهي السلطة الانتخابية القديمة التي أصبحت وراثية لم تتخل عن المبدأ الأول (مبدأ الانتخاب) عندما اتخذت المبدأ الثاني (مبدأ الوراثة) ولهذا تحملت نتائج عدم الدقة هذه حتى أيامنا. فالمبدأ الوراثة نفسه

1 - عبد العزيز محمد المصلي - نفس المرجع ص 99 وانظر: جوزي/ بندلي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام/ الجزء الأول من الحركات الاجتماعية ص 52 - 53.

لم يفرض حق الأولوية للأسن، وعلى ذلك ظل الباب مفتوحا دائما للأزمات الوراثية. فمنذ البداية وسيرا على نهج ما كان يحدث على عهد الخلفاء الراشدين (الانتخابيين)، أراد الأمويون أن يتحاشوا الخطر عن طريق تعيين من سيرثهم من أقاربه أثناء حياتهم، ثم العمل على إعطاء هذا الاختيار صفة عامة (عن طريق البيعة). ورغم هذا فإن هذا التعيين وهذا الاعتراف المقدم بخليفة الغد لم يحد من طمع المطالبين بالخلافة وجشع أتباعهم بل ومؤامرات الحريم. وفي عام 136هـ الموافق 754م عندما مات أبو العباس السفاح كان أبو جعفر على إمارة الحج وبصحبه أبو مسلم. وقام بأخذ البيعة لأبي جعفر عيسى بن موسى والى الكوفة، وهو ولى العهد التالى حسب وصية السفاح. وكتب عيسى إلى أبي جعفر يعلمه بذلك، كما كتب إلى الأمصار يطلب البيعة للخليفة الجديد. هذا ولو أن بعض النصوص تقول أن عم الخليفة عيسى بن على الذى كان بالأنبار حيث مقام أبى العباس دعا الناس لنفسه ولكنه اعتذر عند وصول أبى مسلم بأنه فعل ذلك من أجل ضبط العسكر وحفظ خزائن الأموال⁽¹⁾.

وكان عم الخليفة عبدالله بن على بطل موقعة الزاب ووالى الشام، قد سار على رأس الجيوش من أهل الشام وخراسان التى حشدت لحرب البيزنطيين (الصائفة). ولكن عندما وصله رسول عيسى بن موسى يخبره بموت السفاح ويطلب إليه البيعة لأبى جعفر توقف عن التقدم، ودعا الناس إلى بيعته هو نفسه. وكان لابد له من أن يبرر موقفه وأحققته فى المطالبة بالخلافة، فقال: إن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد لم يتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده. معنى ذلك أنه كان يرى أن قتال مروان الخليفة الأموى كان حقا للخليفة العباس الذى حل أو سيحل محله

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 55.

وحده، وأن انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر معناه نيابته عنه، وأنه لا يتنازل عن هذه النيابة، ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من العهد لغيره. وشهد لعبد الله بعض القواد وبائعوه. هذا على أنه يمكن النظر إلى المسألة من زاوية أخرى، وإخراجها من نطاق نزاع ضيق بين أفراد أسرة واحدة إلى نطاق أوسع هو الصراع بين الشام وخراسان بناء على هذا يمكن اعتبار خروج عبدالله بن علي، وإلى الشام على الخليفة الجديد، كرد فعل للولاية التي فقدت مجدها ومحاولة جديدة من جانب أهل الشام لاسترداد سلطانهم الضائع، وذلك بعد الثورات الضعيفة التي قضى عليها بسهولة من مبدأ الأمر - ولا شك في أن تشجيع أهل الشام هو الذي جرأ عبدالله بن علي على الثورة. وسار عبدالله بن علي حتى نزل حران وحاصرها. وعاد أبو جعفر من الحج ليجد نفسه أمام عصيان عمه، ولم يكن له ملاذ غير أبي مسلم رغم ما كان يضمرة له من حقد، وما أظهره رجل الدولة الكبير من تعال، وما كان يشعر به في قرارة نفسه من الخدمات الكبيرة التي أداها للدولة حتى غلب على أبي جعفر أمير الحج. وأمر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبدالله، والظاهر أن عبدالله خشي خيانة جنده من الخراسانية الذين كانوا يخلصون لأبي مسلم فتخلص منهم تقول الرواية أنه قتل منهم حوالي 17 ألف ولم يبق له إلا أهل الشام، وهذا يؤيد فكرة الثورة الشامية⁽¹⁾.

تقدم أبو مسلم فانسحب عبد الله من «حران» إلى «نصيبين» وتحصن هناك. ولم يرد المنصور أن ينفرد أبو مسلم بهذا الأمر فاستدعى القائد الشهير الحسن بن قحطبة من «أرمينيا» (وكان واليا عليها)، وأمره أن يوافي أبا مسلم فلحق به بالموصل. وسار أبو مسلم حتى نزل بناحية «نصيبين» قريبا من عبدالله وأهل الشام. والظاهر أن مراكز الشاميين كانت حسنة التحصين صعبة

١ - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص 56.

المنال فلجأ أبو مسلم إلى خطة سليمة لزعزعتهم من مراكزهم الاستراتيجية فكتب إلى عبد الله أنه لم يأت لقتاله ولكنه الخليفة ولاء الشام وأنه سيتوجه إليها. عندئذ خشي أهل الشام من أصحاب عبد الله على ديارهم وطلبوا التوجه إلى الشام لحمايتها، وكان عبد الله يعلم أن هذا لم يكن إلا حيلة من أبي مسلم وأنه لابد آت لقتالهم. ولم يقتنع الشاميون فارتحل عبد الله معهم نحو الشام. عندئذ تحول أبو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن علي في الموضع الاستراتيجي المحصن واضطر عبد الله إلى العودة والنزول في موضع عسكر أبي مسلم. واستمر الصراع بين الجانبين مدة طويلة (حوالي 5 خمسة أشهر). وكان أهل الشام أكثر فرسانا، ورغم حصانة المواقع التي احتلها أبو مسلم فإنه بعد شهر من بدء المناوشات وجه الشاميون هجمة قوية نحو المعسكر العباسي، وتمكنوا من زحزحته عن مواضعه. وكان أبو مسلم من جهته يقوم بالإشراف شخصيا على العمليات الحربية إذ أقام عريشا (مراقبة) كان يجلس عليه إذا التقى الناس، فينظر إلى القتال فإن رأى خلا في الجيش سده عن طريق إرسال الرسل إلى مختلف القواد لاتخاذ الخطة المناسبة. وفعلا لم يستفد أهل الشام من انتصارهم المحلي. وفي يوم 7 من جمادى الثاني عام 137هـ الموافق آخر نوفمبر سنة 754م. وقعت المعركة الفاصلة. وتتلخص خطة الوقعة في أن أبا مسلم أمر الحسن بن قحطبة أن يعبئ الميمنة أكثرها. إلى اليسرة ويترك في الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ولما رأى أهل الشام ذلك كشفوا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم. وأمر أبو مسلم رجال القلب والميمنة بالحملة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليهم فحطموهم، وانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم. واكتفى أبو مسلم بالانتصار فأمن الناس بعد الهزيمة وأمر بعدم الانتقام منهم. ولما كتب إلى المنصور يعلمه بالنصر والاستيلاء على معسكر عبد الله أرسل المنصور مولاة

أبا الخصيب ليحصى الغنائم، فكان ذلك سبباً في غضب أبي مسلم وازدياد التوتر بينه وبين الخليفة، وإذ قال: «أنا أمين على الدماء خائن في الأموال». وشم المنصور. أما عن عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي فإنهما فرا. توجه عبدالله إلى أخيه سليمان بالبصرة فأقام عنده زمناً متوارياً حتى عام 139هـ الموافق 756م عندما عزل سليمان بن علي عن البصرة، فطلب المنصور إلى سليمان أن يبعث إليه بعبد الله بعد أن آمنه، ولكن الخليفة سجنه، والظاهر أنه انتهى بقتله فيما بعد. وكذلك انتهى الأمر بعبد الصمد الذي كان قد التجأ إلى موسى بن عيسى بالكوفة وطلب إليه الأمان⁽¹⁾.

التخلص من أبي مسلم:

انقلب ذلك التعاطف إلى نقمة، زادت حداثتها عندما بدأت تناقضات الأرستقراطية الخراسانية من المشرق الإسلامي مع الأرستقراطية العربية تبرز على السطح السياسي. واستطاعت تلك الطبقات أن تخفي حقيقة صراعها لتجر وراءها العامة، مصورة الصراع على أنه دفاع عن الانتماء الإقليمي بكل طبقاته. وقد أدى تدنى مستوى الوعي الاجتماعي لدى الجماهير إلى نجاح الأرستقراطيين في تسويق دعواهم مستفيدين من موقف الكتاب الذين غدوا الصراع الشعبي بشكل أو بآخر. إن الصراع السياسي بين العرب والموالي لم يظهر إلا في مؤسسات الدولة حيث كان تغلغل المشاركة في وظائفها ومراتبها أمراً ظاهراً. غير أن ذلك الصراع العنيف اقتصر على الفئات الصاعدة في السلطة وفي ملكية الثروة، من الموالى، فالحظوة والصعود في سلم الوظائف مرتبطان بالخدمة والتأييد. تم لالتقاء المصالح الطبقية بين العباسيين والأسر المشرقية (ذات النسب العريق) والدهاقين. غير أن ذلك التعاقد - الضمني على الأقل - لم يكن ليستمر، نتيجة تغلب النزعات السياسية المستندة إلى مصالح

1 - سعد رغلول - نفس المرجع ص 58.

الأسرة والعشائرية فبدأت سلسلة من الصراعات على المصالح، كانت بداياتها لصالح العباسيين، فرغم إشراكهم المباشر لمواليهم فى السلطة، إلا أنهم حافظوا على طابع الخلافة الوراثى لهم وحده. ولم يولوا مواليهم أكثر من الوزارة، وبالتالى فإنهم حافظوا على جوهر الخلافة العباسى، وزاد من حصانتهم، هالة التقديس والأبهة التى أحاطوا بها حكمهم. وباعتبار أن الخليفة أمير المؤمنين - ولا اعتبارات أخرى - لم يجرأ أمد أعدائهم على المطالبة بالخلافة أو تنحيتهم عنها. والمقصود بالأعداء طبعاً، فى داخل السلطة، أى المعارضة الداخلية فى الدولة. نجحت الدعوة العباسية فى الوصول إلى أهدافها السياسية بفضل مساعد الموالى فاعتبروها ثورتهم التى ستحقق أهدافهم فى القضاء على مخلفات الحكم الأمويين، ويحل العدل والمساواة بين المسلمين كافة، فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فكان من الطبيعى أن يجزى العباسيون قادة أهل خراسان فى المشرق الإسلامى الذين استسلموا فى الحرب لصالحهم. لذلك عين أبو العباس أبا مسلم الخراسانى والياً على خراسان، ولكن مجد الانتصار ومكانة العز اللذين تذوقهما أبو مسلم، أدبا به إلى نتائج وخيمة حيث بدأت تخرشاته منذ السنوات الأولى لقيام الدولة العباسية. ولكن نواياه فى حب التفرد والاستقلال، وتدخله فى شؤون الأسرة العباسية، لم تظهر إلا فى حكم المنصور حين عرض على ولى العهد عيسى بن موسى أن يتعاوناً سوية لتنحية الخليفة وتنصيب عيسى خليفة للمسلمين، فأنكر عيسى ذلك وحذره من مغبة هذه الخطة وإمكانية فشلها. وتبين الرسائل التى كان يوجهها أبو مسلم إلى الخليفة المكانة المهمة التى توصل إليها، وتحديه الواضح للخليفة العباسى وخوف السلطة المركزية منه. ربما كان منشأ ذلك الخلاف، تشكل رأى عام معارض لدى الموالى، بدأ من تقييم النتائج التى آلت إليها الثورة العباسية، والموقع الذى اتخذته العباسيون

من ممارسة أفكارهم ومبادئهم التي كانوا ييشرون بها الناس ويجمعونهم حولها للقضاء على الأمويين. كما ظهر للموالى أن العباسيين تفردوا بالحكم واستبعدوا شركاءهم الشرعيين العلويون الذين لاقوا أكثر مما لاقوه من عذاب الأمويين، بل إن العباسيين كانوا يتسترون بالتجارة ولا يظهرون⁽¹⁾.

نرى أن أبا مسلم استند إلى تلك الأسس فى كسب أنصاره وشيعته من أهل خراسان فأعلن العصيان. ولكن الأمر الأكثر وضوحاً أن أبا مسلم كان مغترا بدوره فى الثورة على الأمويين. وزاد فى تدعيم شوكته قول إبراهيم الإمام القائد الأول للدعوة العباسية إنك رجل منا أهل البيت. فاحفظ وصيتى، هذا فضلا عما تضيفه القيادة العسكرية من الإفراط فى الطموح وحب المغامرة. والمعروف أن أبا مسلم - بمباركة من السلطة المركزية - بدأ بتصفية وجوه الدعوة العباسية الذين تشبثوا بمبادئها الأولى وأعلنوا رفضهم لسياسة العباسيين. ويبدو أن ذلك تم باتفاق مع الخلفاء المنتصبين فى العراق. فقد قضى على سليمان بن كثير الخزامى وابنه محمد الذى كان نقيب الدعاة وكانت له شيعة واسعة، خاف أبو مسلم من مزاحمته فقتله متعذرا بوصية إبراهيم الإمام حينما قاله له «من شككت به فاقتله». وقضى على بن جديع الكرمانى وأخيه عثمان اللذين كان لهما دور كبير فى خدمة الدعوة العباسية وكسب نصره القبائل اليمانية التى شكلت جزءا كبيرا من الجيش الخراسانى. كما قضى على ثورة شريك بن شيخ المسهرى الذى ثار فى مدينة «بخارى» ورفع شعارا سياسيا معارضا لسلطة العباسيين (ما على هذا اتبعنا آل محمد على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق...)، وهو معروف بتشيعه للعلويين، انضم إليه ولاية عرب مثل والى بخارى ووالى خوارزم، وقال أن أبا مسلم أسر أصحابه وجعلهم عبيدا، هكذا تبدأ الثورة تأكل أبناءها. بدأت تلك

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 149 وانظر الطبرى 450/7.

العلاقة بحذر شديد مع شيء من المجاملة، فقد أرسل أبو مسلم إلى أبي جعفر المنصور يهنؤه بالخلافة قائلا: إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك واصفى نصيحة لك، وحرصا على ما يسرك مني⁽¹⁾.

انتصر المنصور على أول صعوبة قابلته ألا وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبدالله وذلك بفضل أبي مسلم الذي لن يلبث أن يلاقى نكران جميل الخليفة الجديد. والحقيقة أنه كان يمكن التنبؤ بمصير دام لأحد الرجلين على يدى الآخر، فكلاهما تَوَاق إلى العمل والمجد، غيور على الظهور لا يرغب أن يشاركه فى ذلك أحد، فكان من الصعب أن يعيشا فى وفاق. فالمنصور يرغب فى أن يكون الأمر له والنهى، وأن تكون الكلمة الأخيرة فى كل شأن للخليفة، وأبو مسلم يشعر شعورا عميقا بالخدمات التى أداها للدولة ويود أن يحتفظ لنفسه بمركز ممتاز فيها. ويرجع التصادم بين أبي جعفر وأبي مسلم إلى عام 132هـ الموافق 749م، أيام السفاح عقب مقتل أبي سلمة، عندما أرسل السفاح أبا جعفر إلى أبي مسلم بخراسان ومعه عهد أبي مسلم بخراسان، وبالبيعة للسفاح والى أبي جعفر بعده، فلم يهتم به الخراساني كما كان ينبغي، فعاد أبو جعفر يقول للسفاح: «لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله... والله ما يصنع إلا ما أراد». وظهرت قوة أبي مسلم فى نفس الوقت عندما أرسل السفاح عمه عيسى بن على كوال له بفارس، فتصدى له عمال أبي مسلم هناك، إذ أراد محمد الأشعث الذى ولاه أبو مسلم قتل عيسى، ف قيل له: هذا لا يسوغ لك، فقال: بلى أمرنى أبو مسلم أن لا يقدم أحد على يدعى الولاية من غيره إلا ضربت عنقه، ثم ترك عيسى خوفا من عاقبة قتله. والحقيقة أنه كان طبيعيا أن يفكر السفاح وأبو جعفر فى التخلص من أمير آل محمد (أبو مسلم) ما داما قد تخلصا من «وزير آل

1 - د. محمد نجيب أبوطالب - نفس المرجع ص 149.

محمد» (أبو سلمة) حسب السياسة التي رسمهاها. والظاهر أن السفاح وافق على التلخص من أبي مسلم ولكنه عاد فأرجأ ذلك لفرصة أخرى.

طلب أبو مسلم في عام 136هـ الموافق 754م إلى السفاح إمارة الحج إلى مكة وأن يكون نائبه يوم عرفة. ولكن السفاح لم يرد له هذا الشرف، بل جعله تحت رئاسة أخيه أبي جعفر الذي أخذ الأمرة (إمرة الحج) لنفسه وحضر من أرمينية لذلك. فتأثر أبو مسلم وحقد على المنصور، وتعهد أن يكون واضح الظهور إلى جانبه «فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطريق وكان الذكر له». ثم أنه عندما علم في طريق العودة بموت السفاح لم يسارع ببيعة المنصور إلا بعد أن لفت هذا نظره إلى ذلك في كتاب أرسله إليه. وبعد ذلك وأثناء قتال عبدالله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة أن أبا مسلم كان يهزأ بالكتب التي تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك إلى الوزير (أبي أيوب) وزاد التوتر عندما أرسل المنصور مولاه ليخصي الغنائم التي استولى عليها أبو مسلم في معسكر أهل الشام. شعر المنصور إذن بخطورة الرجل الذي تدين له الأسرة الهاشمية بكل شيء. وعمل على إقصائه عن خراسان مركز سلطانه القوى فعرض عليه ولاية الشام ومصر، وطلب إليه المسير إليها، ولم يقبل أبو مسلم ما عرض عليه، وعزم على العودة إلى خراسان. ولكن المنصور رغبه ورهبه. أنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت النبي ﷺ فلا تخالف إمامك ولا ترجع إلا بإذنه⁽¹⁾.

لكنه رفض ذلك الأمر واستدعاه مرة أخرى فتلكأ عن الحضور معتذرا. وبدأت سلسلة من المراسلات بين الشخصين حتى بعث إليه المنصور قائلاً: «فلا تغتر بمن معك من شيعة وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة.. فرد عليه أبو مسلم

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 60.

ردا عنيفا مشككا فى شرعية خلافته : ولكنى يا عبدالله بن محمد (لم يلقيه بأمر المؤمنين) كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأنتم بأخوين لك (إبراهيم الإمام وأبو العباس) من قبل، ثم بك من بعدهما، فكنت لهما شيعة متأولا أحسبني هاديا مهتديا، وأخطأت فى التأويل، وقديما أخطأ المتأولون.. وإن أخاك السفاح ظهر فى صورة مهدي وكان ضالا فأمرنى أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل العشرة. فوترت أهل الدنيا فى طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من جهلكم، ثم إن الله سبحانه تداركنى بالندم واستنفذنى بالتوبة.. ويبدو أن المنصور - داهية العرب - كان يريد من خصمه أن يصل إلى ذلك الموقف الذى يبرر له تصفيته، فرد عليه واتهمه بسفك الدماء وتبذير الأموال والخروج على الدولة، ولقبه (بالمجرم العاصي). وختم رسالته بإعلامه عن قرار عزله وتولية أحد أتباعه على خراسان، يقول الطبرى. إن أبا جعفر كتب إلى أبى داود حسين اتهم أبا مسلم: «إن لك إمرة خراسان ما بقيت»⁽¹⁾.

وأخيرا أغرى أبو مسلم فسار إلى المنصور ليعتذر إليه، وكان المنصور قد سار من الأنبار إلى المدائن. وقابل رسل المنصور أبا مسلم بالإجلال وطمأنوه، ثم دخل على المنصور نفسه فأقبل عليه المنصور يعاتبه وعدد له هفواته وأخطائه الجسيمة. واعتذر أبو مسلم عن ذلك ببلائه وما كان منه، ولكن رد عليه المنصور، قائلا: «لو كانت أمة مكانك لأجازت، إنما عملت فى دولتنا وبريحننا، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلًا». وأمر به فقتل تحت ناظريه فى 25 من شعبان 137هـ الموافق 755م. وعند مقتله قال أحدهم للمنصور جعفر

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 150 وانظر الطبرى - 472/7 - ابن كثير 68/

ابن حنظلة: «عد من هذا اليوم خلافتك». وخطب المنصور بعد مقتله يحذر الناس من الخروج من أنسى الطاعة إلى وحشة المعصية . . ويرر موقفه من الرجل الذى أبلى فى سبيلهم خير البلاء، فقال: «ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه»

نتائج مقتل أبى مسلم:

ولم يمر موت أبى مسلم بسلام، إذ قامت بخراسان ثورة تطالب بالأخذ بدمه. تزعم هذه الثورة رجل من نيسابور اسمه سونباذ (سنباد) الذى قال بعودة أبى مسلم الذى أفلت من الموت عندما لفظ اسم الله الأكبر، واستجاب له كثير من الناس وتمكن من الاستيلاء على «نيسابور» و«قوس» و«الرى»، كما قام بأعمال العنف والنهب (إلا التجار)، ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همدان والرى وانتهى الأمر بقتله. ولكن خراسان لن تهدأ إذ ستظل هذه البلاد حيث كان الإسلام يلتقى بالأفكار البوذية والسمنية، وحيث كان دين المشرق الوطنى له نفوذًا قويًا، أرضا صالحة لقيام حركات مذهبية تهدد أمن الدولة وسلامتها.

فى عام 141هـ الموافق 758م قام فريق من الخراسانية بمن يدينون بأفكار أبى مسلم ويعتقدون فى تناسخ الأرواح ونادوا بالوهية المنصور هو ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم، وهؤلاء هم «الراوندية». وساروا من خراسان إلى الهاشمية حيث قصر الخليفة. واستعمل الخليفة معهم السياسة واللين حتى يعدلوا عن موقفهم، ولكنه لم يوفق فاضطر إلى التشدد معهم وحبس زعماءهم. ولكنهم لجأوا إلى العنف وكسروا السجن وأخرجوا أصحابهم. وهناك تفاصيل طريفة تقول أنهم أخذوا نعشا، وساروا به حتى باب السجن ثم انقضوا عليه، واتجهوا نحو المنصور الذى اضطر إلى البطش بهم وقتلهم جميعا. وأظهر المنصور فى قتالهم شجاعة شخصية نادرة إذ خرج ماشيا

يشجع الناس على قتالهم. وسيظل حزب أبى مسلم قائما وينضم إلى أتباعه كثير من دعاة الحركات الشيعية بكيفية ما فى فران وما وراء النهر فى المشرق الإسلامى، وذلك باسم أبى مسلم، كما كانت حركة المقنع على عهد الخليفة المنصور. وكانت علامات هذا الحزب المميزة له (أيام الثورة العلنية طبعا) الملابس البيضاء، وهكذا أصبح أتباع حزب أبى مسلم الذين كانوا يتخذون الراية السوداء من قبل شعارا للنصر أصبحوا يسمون «المبيضة» بعد أن كانوا «المسودة». هذا، كما أن البلاد عرفت عددا من الثورات المختلفة تمكنت جيوش الخليفة من القضاء عليها مثل ثورة الخوارج بالجزيرة 7 - 138هـ الموافق 755م التى أخمدت بمجهود شاق وثورة القائد الذى هزم سباد، وهو جمهور بن مرار العجلي الذى استولى على ما فى عسكره وكان فيه خزائن أبى مسلم، ثم هزمه محمد بن الأشعث فى «الرى» و«أصبهان». وثورة والى خراسان عبد الجبار بن عبدالرحمن الأزدي 1 - 142هـ الذى قتل جماعة من القواد واتهمهم بالدعاء إلى العلويين، كما أخذ الأموال، فلما طلبه المنصور أظهر العصيان فسار إليه المهدي بن المنصور وقضى عليه بسهولة. ولم يرض المنصور أن تضيع نفقات الحملة سدى فوجهها إلى طبرستان هذا، ولما خلع والى السند، أرسل إليه حملة قضت عليه. وكذلك أخضع الديلم (جنوب بحر قزوين) عندما ثاروا. وهذه الحملات الأخيرة رغم أنها لم تجلب إلى الدولة أراض وسكان جدد إلا أنها صانت حدود الدولة الخارجية⁽¹⁾.

وهكذا انتهت حياة ذلك القائد، الذى خدم الدعوة العباسية، أول أمرها، أكثر من دعااتها. وبالتالي انتهى صراع الدولة العباسية مع أحد خصومها البارزين نهاية مأساوية. وبعد ذلك الصراع الدامى، بإمكاننا أن نتساءل: كيف أن نهاية أبى مسلم، القائد الخراسانى الشجاع، والداعى، ثم

1 - د. سعد رغلول - المرجع السابق ص 62.

الوالى العباسى الذى لاينارح، تمت بمثل تلك السهولة دون أن تقوم أية ردة فعل من أهل خراسان (شيعة)؟ وإذا كان الصراع السياسى فى جهاز الدولة بين العباسيين والموالى صراعا شعوبيا، أو صراعا عصبويا، ألم يكن من المفروض قيام ثورة أو احتجاج - على الأقل - على مقتل أبى مسلم، من قبل شيعة وأنصاره؟ الجواب على هذا السؤال تبوح به الأحداث والوقائع. إذ لم تظهر أية ردة فعل على ذلك الحدث البارز فذلك ما يؤكد أن الصراع كان قائما فى بنية الدولة بين قادة الدعوة العباسية وخلفاء دولتها، بين وزرائها وأمرائها. وهو ما يؤكد أن الجماهير من الموالى كانت مندمجة مع الجماهير من العرب المستقرة فى شرقى الخلافة، أنها كانت تخوض صراعا من نوع آخر، فحركات الخوارج والشيعة، والبابكية فيما بعد، ضمت فى صفوفها أعدادا واسعة من جماهير الموالى التى كانت تتحرك فى إطار الرابطة الاجتماعية (الوضع الطبقي)، والرابطة الدينية (الوضع السياسى الإسلامى الداعى إلى المساواة). ذلك ما ينفى، بشكل من الأشكال، دعوى بعض المؤرخين بأن الحركة الخرمية والبابكية ثارت ضد مقتل أبى مسلم⁽¹⁾.

التخلص من البرامكة:

نورد نبذة عن أسرتين أصبح لهما شأن كبير فى الدولة العباسية، نظراً لأهمية الدور الذى قامت به كل منهما فى تسيير نظام الحكم فى الدولة العباسية، ومن اتهم به هؤلاء من ممالاة للعلويين أكدها الكثير من المؤرخين. هاتان الأسرتان هما البرامكة، وآل سهل، نرى ضرورة الحديث عن هاتين الأسرتين لما لهما من ارتباط وثيق بكل من العباسيين والعلويين على حد سواء. فالبرغم مما أظهره العباسيون من عطف على هؤلاء وإيثارهم بالمناصب

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 150 وانظر الطبرى ج 472/7 ابن كثير

ج 10 ص 69.

القيادية فى الدولة، عسكرية وسياسية وإدارية، والاعتماد عليهم فى تسيير دفة الحكم فى الدولة، وما حصلوا عليه من جاه ونفوذ نعموا به فى عهد كل من الرشيد والمأمون من ولاية وعزل، فهل أخلص هؤلاء لمن أسدى إليهم معروفًا، وأوصلهم إلى تلك المناصب الحساسة فى الدولة؟ أم أنهم كانوا يستهدفون من تظاهروا بهم بالمساندة والمؤازرة منافعًا لهم؟ أو اتخذوا ذريعة للوصول إلى أغراض معينة أيًا كان لونها وحقيقتها؟ أو لما قد يقال من تشيعهم لبعض العلويين، فإنهم فى كل الأحوال كانوا متهمين لدى خلفاء بنى العباس، وليس هذا مما طرأ عليهم منذ قصة العباسية أو قضية الدس النافذ الذى اقترفه آل سهل فى عصر المأمون، وإنما هو قائم ومجسم منذ اعتلى السفاح عرش الخلافة العباسية، وأن القضاء على أبى مسلم الخراسانى، والإيقاع بالبرامكة، والإطاحة بالفضل بن سهل وقلته، ليست إلا نتائج لتلك الحركات المضادة للخلافة العباسية، بل إن جميع الحركات التى نشبت ضد الخلافة العباسية واعتبرها العباسيون خطرًا جسيمًا يستهدف قلب نظام حكمهم، وإبداله بحكم علوى عربى، ومن ثم كانت تلك القوة البالغة فى قمع تلك الحركات الانقلابية التى بدت نذرها، وأسفرت عن أغراضها ومراميها منذ الخليفة الأول أبى العباس السفاح حتى العهود التالية له نجدها إنما كانت بسبب الصراع الجبار على السلطة إذ كان الخراسانيون من المشرق الإسلامى وغيرهم تشرئب أعناقهم إلى استعادته سيادتهم تحت أى نظام، وكان هذا بالطبع مرفوضًا كل الرفض من الجانب العباسى. فالواقع أن هؤلاء لم يخلصوا للعباسيين لحظة واحدة بل كان ولاؤهم الظاهرى للعلويين لأنهم شيعتهم، ولأن ولائهم لهم أكثر من ولائهم للعباسيين الذين احتضنهم، وأسبغوا عليهم من النعم الشيء الكثير، إذ عملوا على تحويل الخلافة من العباسيين للعلويين، ويتجلى هذا واضحًا فى محاولة أبى سلمة الخلال - وإن لم يكن من البرامكة أو آل سهل - قبل مبايعة

السفاح بالخلافة، وتأخيرها للمبايعة بما يقرب من أربعين يوماً، وقد لقي هذا الرجل حتفه على يد أبي مسلم بأمر من أبي العباس. ونفس الشيء بالنسبة للبرامكة عندما أطلقوا سراح خصم لدود للرشيد ذلك هو «يحيى بن عبد الله العلوي» إذ أطلقه جعفر البرمكي بالرغم من تشديد الرشيد على التحفظ عليه لدى جعفر. وكذلك تأثير الفضل بن سهل على المأمون بتولية الإمام على الرضا عليه السلام ولاية العهد - بصرف النظر عن قناعة المأمون بذلك من عدمها - كل هذا حياً في العلويين⁽¹⁾.

ولعل ما يؤيد هذا الرأي هو ما أشار إليه مؤرخ معاصر إذ يقول: بالرغم من تأييد الخراسانيين في المشرق الإسلامي للعباسيين إلا أنهم وجدوا من جور عمالهم الشيء الكثير، كما لاحظوا تنكيل العباسيين بزعمائهم فانقلبت ميولهم مع خصومهم العلويين، ولدينا شواهد على ذلك كاحتفاء الخراسانيين العظيم للإمام على الرضا عليه السلام، وكما حصل بعد مقتل الفضل بن سهل حين شغب الخراسانيون على المأمون وهجموا على داره ولم يهدأوا إلا بعد أن طلب منهم الإمام على الرضا عليه السلام أن يتفرقوا لابد لنا قبل الحديث عن سياسة الرشيد في فترة حكمه من معرفة أهل البرامكة وكيفية وصولهم إلى تدبير أمور الدولة العباسية، وإدارة شؤونها. يعود أصل البرامكة إلى برمك، وهذا هو من مدينة «بلخ» قاعدة طخارستان عند نهر جيحون في تركستان في المشرق العربي. ولما بلغت الدعوة العباسية خراسان تحمس لها خالد بن برمك باعتبارها دعوة للرضا من آل محمد من العلويين، وصار من أكبر دعايتها وعند نجاح الدعوة استعان به أبو العباس أول من شغل المنصب منهم هو خالد ابن برمك، ذلك بعد مقتل أبي سلمة إذ عينه السفاح وزيراً له أو بوجه أدق كاتبه الأول. وعلى عهد المنصور احتفظ خالد بالإدارة المالية (ديون الخراج)

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 158.

وأظهر كفاءة شخصية فى بناء مدينة بغداد (أمين العمارة)، ولكنه كان فى نفس الوقت قائدا عسكريا ممتازا: وهو لم يقاتل أيام شبابه فقط تحت إمرة أبى مسلم وقحطبة، ولكنه فى المدة من 148 - 152هـ الموافق 765 - 769م عندما كان واليا على «طبرستان» قضى على آخر ولاية وطنية هناك فى «مصموغان»، كما أنه كان قد اشترك علاوة على ذلك فى الحروب ضد بيزنطة عند كهولته. وإذا كان - مثل كل الموظفين - قد وجد الفرصة للشراء الشخصى فإن هذا يعتبر أمرا طبيعيا. ولهذا السبب تركه المنصور قبل وفاته (وفاة المنصور) بقليل يستولى على 3 ملايين درهم (بقى عليه منها 300 ألفا درهم حسب ابن الأثير)، ثم أعطاه ولاية الموصل، وكانت مهمته صعبة نظرا لجوار الكرد المضطربين دائما. وقام ابنه يحيى فى نفس الوقت بولاية أذربيجان. وعلى عهد المهدي استدعى من جديد إلى بغداد. ثم اختاره المهدي عام 162هـ الموافق 778م كاتباً ووزيراً لابنه هارون الرشيد، يدبر أمره ويرعى مصالحه، والرشيد لا يناديه إلا بـ «يا أبى». وكان يحيى يرافق الرشيد فى حله وترحاله، فذهب معه عام 163هـ الموافق 779م. فى غزوة الصائفة، ولما ولى المهدي ابنه هارون الرشيد المغرب عام 164هـ الموافق 780م أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك عنه. وظل يحيى حتى ولاية الهادي الذى أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، لكن يحيى بن خالد حرضه على التمسك بحقه والتهرب من تلبية طلب الهادي، ولولا وفاة الخليفة المفاجئ لذهب يحيى ضحية إخلاصه للرشيد⁽¹⁾.

ولما تولى الخلافة هارون الرشيد كافأه بأن قلده الوزارة - وزارة تفويض - قائلا له: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وامض الأمور

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 63 وانظر الفخرى فى الآداب السلطانية ص 198.

على ما ترى»، ودفع إليه خاتمه. وكان ليحيى أربعة أولاد هم: الفضل وجعفر ومحمد وموسى، برزوا جميعاً في عهد الرشيد وصاروا موضع ثقته. فبرهن الفضل عن حسن سياسته عندما ولاه الرشيد بلاد «الديلم» إلى أن ولاه عام 178هـ الموافق 794م خراسان وثغورها. فغزا ما وراء النهر. واشتهر جعفر بن يحيى بفصاحته ولباقته حتى نال إعجاب الرشيد، فولاه عام 176هـ الموافق 792م مصر وأفريقية والجزيرة الفراتية إلى جانب أعماله في بغداد. أما موسى بن يحيى فقد اشتهر بالشجاعة والبأس، وأظهر للرشيد الشيء الكثير من حصافة الرأي وقوة العزيمة. أما الرابع وهو محمد فقد عرف بعلو الهمة وسماحة الخلق. وهكذا عملت أسرة البرامكة في خدمة العباسيين منذ بدء الدعوة بأمانة، وكفاية، حسبما أوجزنا أعلاه، حتى نكبتهم هارون الرشيد أحب الخلفاء إلى أنفسهم. فما هي أسباب نكبتهم؟⁽¹⁾.

تفانم نفوذ المشاركة في عهد الرشيد ممثلاً في البرامكة، وبدا للناس أن بيدهم مقاليد الأمور، وأنه ليس للخليفة العباسي من شيء، ومع ذلك فقد تغافل الرشيد في أول الأمر، ولم يعطه شيئاً من الأهمية، على اعتبار أن مرضعته برمكية، وأن زوجها يعتبر أباً له بسبب ذلك، وأن رجال البرامكة ممن بيدهم أمور السلطة إخوته من الرضاعة، ومن ثم فلانستبعد ما كاد يجمع عليه المؤرخون من أن الرشيد سلم خاتم الدولة للبرامكة، لأنهم كما أشرنا آباؤه وأمهاته وإخوانه فليسوا غرباء عنه، بالإضافة إلى أن أمه الخيزران هي قريبة لهم «أي أنها مشرقية» وهم عمد المشرق الإسلامي في هذا الزمن، ومن هذا المنطلق فلم يكن من بأس أبداً على الرشيد أن تصبح أمور الدولة كلها تقريباً في يد أبيه وإخوانه، وليس غريباً أن يسلم الرشيد خاتم الدولة لهم، إذا عرفنا موقف يحيى بن خالد البرمكي من تولية الرشيد العهد، ونصحه للهادي

1 - إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 64.

حينما حاول خلع الرشيد من ولاية العهد، وتولية ابنه قائلا: يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الإيمان هانت عليهم إيمانهم، وجرأتهم على حل العقود، أما لو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله، وببيع لجعفر من بعده، كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت ولى في هذا تدبير. ولعل للرشيد بعض العذر في إسناد الكثير من المهام إلى البرامكة، فإضافة إلى ما ذكرنا عن علاقة الرشيد بهم، هناك سبب رئيسى فى اعتماد الرشيد عليهم، وثقته بهم. هذا السبب هو ما قام به يحيى البرمكى من محاولة لبقاء الرشيد فى ولاية العهد عندما حاول الهادى خلعه تكللت بالنجاح، وزيادة على ذلك فإن الرشيد ما زال بحاجة ماسة إلى الخبرة فى مجال الإدارة والسياسة والتي لا تتوفر إلا فى أمثالهم. ويؤكد هذا ما قاله البعض بأن تشبث يحيى بحق هارون فى ولاية العهد كان أكثر من حرص هارون، وهو صاحب الحق فى استمراره فى ولاية العهد وبهذا يتأكد لنا ما كان يطمح إليه يحيى لأنه سيخسر كل شئ فيما لو نجح الخليفة الهادى فى إبعاد الرشيد عن ولاية العهد، ولهذا عمل جاهداً على بقاء الرشيد ولياً للعهد⁽¹⁾.

إلا أن البرامكة مع كل هذا قد تمادوا فى غيهم، وسلبوا الخليفة الكثير من سلطاته، ومالوا أعداء العلويين من آل البيت من أحفاد رسول الله ﷺ، فما كان من الرشيد، إلا أن نكل بهم شر تنكيل وجعلهم عبرة لمن اعتبر.

لم يكن صراع العباسيين مع خصومهم من الموالى مقتصرًا على الأفراد والقيادات فى المشرق الإسلامى بل كان يشمل العائلات العريقة التى مثلت الأرستقراطية المشرقية وتحصلت على امتيازات كبيرة (ازدياد ثروتها ومشاركتها الفعلية فى الحكم). فقد شملت تلك الامتيازات كلا من آل برمك وآل الربيع

1 - عبد العزيز الميلم - المرجع السابق ص 161 وانظر: ابن العبرانى/ الانبياء فى تاريخ الخلفاء ص 73.

وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات إذ احتل أبناء تلك الأسر مراتب متفاوتة فى الدولة العباسية، منذ نشوئها حتى أواخر حكم المعتصم، عندما حل النفوذ البويهى التركى محل النفوذ البرامكة والخراسانيين. ويعتبر عصر هارون الرشيد، البداية الحقيقية للصراع بين العباسيين وحلفائهم من الأرستقراطية المشرقية، فكان صدامهم مع البرامكة مثالا جليا للصراع وتحولا كبيرا فى سياستهم. ويبدو أن الجهود التى بذلها يحيى البرمكى فى إيصال الرشيد إلى الخلافة جعلت له شيئا من الدالة عليه، فأسند إليه الرشيد معظم المناسب وأطلععه على أسرار الدولة وقربه منه كثيرا، فاستعان يحيى بأولاده وأقربائه فى إدارة الدولة وتجمعت لديهم ثروة طائلة. ولكن ذلك أثار حفيظة أعدائهم، فحرضوه ضدهم وخوفوه من نقمة العامة، حتى وصل به الأمر إلى قتل جعفر البرمكى، وسجن أقربائه ومصادرة أموالهم وهدم منازلهم. وقد عرفت تلك الحادثة لدى المؤرخين بـ «نكبة البرامكة». والظاهر من الأحداث والمواقف أن الفقهاء وخاصة أصحاب الانتماء الحنبلى (السنى) منهم، وقفوا وقف المحرض على البرامكة وما آلوا إليه من التحكم والتفرد، ومعروف أن كثيرا من هؤلاء وغيرهم من الكتاب والموظفين الكبار (من العرب) كانوا يمثلون انتماء اجتماعيا طبقيا معيناً، إلا وهو الانتماء الأرستقراطى العربى، الذى ثار فى وجه التيار المشرقى المتسلط شيئا فشيئا. وقد استطاع ذلك المذهب أن يؤثر على سياسة الدولة تجاه البرامكة، كما استطاع أن يجر وراءه رأى العام الشعبى، الذى يتعاطف بشكل كبير مع المذهب السنى، ويظهر لنا ذلك التحريض ضد البرامكة من خلال ما رواه ابن العماد (الحنبلى) أن أحد الأشخاص أرسل إلى الرشيد قائلا⁽¹⁾:

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 152.

هذا ابن يحيى قد خذا ملكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
ونحن نخشى أنه وارث ملكك أن غيبك اللحد

ذكر أن الرشيد أسند إلى الفضل وجعفر التحفظ على يحيى العلوى بعد أن استدرجه الفضل من «الديلم» واستطاع أن يأتي به إلى الرشيد، فأمنه على أن يظل في حبسه حتى يقضى فيه بأمره، فيقال إن جعفرًا أطلق سراحه. ويقال أيضًا إنه حينما ثار يحيى العلوى ضد الرشيد بعث إليه يحيى البرمكى بمائتى ألف دينار، فقال له الرشيد: ما حملت على أن حملت إلى يحيى بن عبدالله بالديلم مائتى ألف دينار؟ فقال: أردت أن تقوى شوكة يحيى فيظفر به الفضل بعد قوة فيكون أحظى له عندك. هذا التبرير الذى أورده يحيى البرمكى للرشيد يعتبر فى الواقع تبريرًا هزيلًا وغير منطقي، فقد رفضه الرشيد جملة وتفصيلا، قائلا له: فما يؤمنك أن تقوى شوكته فيقتل الفضل ويقتلنى؟ وكان الرشيد يعتقد فيما يبدو أن يحيى العلوى لو ترك وشأنه لأزاله عن عرشه، كما حاول محمد النفس الزكية إزالة جده المنصور عن أريكته، فاليوم والرشيد حفيد المنصور، ويحيى أخو النفس الزكية لا يقل عن أخيه خطراً، بل ربما يزيد عنه لأنه فى منطقة أمنع من المنطقة التى حارب فيها النفس الزكية المنصور. إذا ففرار يحيى من المعتقل لا بد أن يكون بوسيلة ميسرة، وبعلم القائم على سجنه الذى كلف بذلك، فإطلاق سراحه إذا كان بأمر جعفر هذا، وربما كان متفقاً معه فى الباعث والهدف، والرشيد لا يعلم إلا بعد فرار يحيى، أو تسهيل عملية فراره، لأن البرامكة كانوا ينافقونه وبراءونه بالإخلاص المصطنع بينما هم فى واقع الأمر وحسبما تأكد لدى الرشيد من عيونه ومستشاريه إنما يريدون إزالة الخلافة العباسية، وإسناد الأمر إلى آل البيت من العلويين أحفاد رسول الله محمد ﷺ، إما لإخلاصهم لهم

وإيمانهم بأحقيتهم، أو لأنهم سيكونون أكثر نفوذاً في عهدهم، وأكثر جنيًا
لثمار الحكم الجديد منه في أيام العباسيين.

خرج يحيى العلوى ببلاد الديلم على الرشيد، فما كان من الخليفة إلا
أن انتدب له الفضل الذى استطاع استدراجه وبذل الأمان له، والقدوم به إلى
الخليفة الذى أسند إلى جعفر مهمة الحفاظ عليه وسجنه، وبعد إطلاق سراحه
تغيرت نظرة الرشيد إلى البرامكة، وتأكد له ما قيل له عنهم من ميلهم
للعلوين من آل البيت. على أن الأمر الواضح جداً فى موقف الرشيد أنه كان
منفعلاً إلى أقصى الحدود من البرامكة حتى ليقال إن أم جعفر والفضل وهى
فى نفس الوقت أمه من الرضاعة عندما علمت بعزمه على الإيقاع بأولادها
وشيعتهم، وكل من يمت إليهم تذكره بماضى طفولته وهو بين أحضانها
وتدليل زوجها له، وسائر ما هنالك من ذكريات تذيب الصخر⁽¹⁾.

لكن الرشيد رغم ذلك كله تجهّم فى وجهها وأعلن أنه مصر على ما
عزم عليه، ولا يقبل فيه شفيعاً ثم قال:

إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكذب

إليه بوجه آخر الدهر تقبل

ولما عازمت على الانصراف يائسة من تلبية الرشيد لمطالبها، رفعت
رأسها وهى غاضبة وفى كثير من الانفعال والتأثر فقالت له:

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كف تبدل

فرد عليها الرشيد بكلمة واحدة وقال: قد رضيت فانصرفت وهى يائسة
من مراجعته مرة أخرى. وبالفعل فقد أنفذ الرشيد كل ما ارتآه من استئصال
لكل البرامكة حتى ليقال: إنه كان يتقصى عن أشياعهم ليعرف مبلغ تعلقهم

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 163.

بهم. فكان أعوانه يعتدون أحيانا على رجال ونساء يذهبون ليلا إلى قبورهم، فيذرفون الدموع ويتحبون حتى الصباح، فيأخذونهم ويعاقبونهم على هذا، وربما ألحقوا بهم من ضروب التعذيب ما يلحق بهم أضرارا بغية الزجر لغيرهم، وهذا هو منتهى القسوة الذى يخرج عن جادة العقوبة إلى مجال إلحاق الأذى بالأبرياء الأوفياء لمن أحسن إليهم وأسدى إليهم معروفاً ما ولكن هذه الأمور كلها تعطينا فكرة عن مدى انقلاب الرشيد على البرامكة بعد حادث إطلاق سراح يحيى العلوى، وبالرغم من أن ذلك ثابت فى كتب التاريخ، أجهد المؤرخون أنفسهم فى تعليل نكبة البرامكة، وتقصى أسبابها الحقيقية فمنهم من قال: أن نكبة البرامكة ليست إلا مظهراً مألوفاً من مظاهر الحكم العباسى. فالخلفاء العباسيون دأبوا منذ نشأة دولتهم على الخيانة ونكران الجميل وقتل الذين عملوا معهم بإخلاص وتفانوا فيها، والأمثلة كثيرة على ذلك: فقد سبق لأبى العباس أن اغتال أبا سلمة الخلال - وزير آل محمد - بعدما تفانى فى تثبيت دعائم الدولة العباسية، وكذلك يرجع قتلهم إلى حبهم للعلوين من آل البيت أحفاد رسول الله محمد ﷺ.

وأوقع أبو جعفر المنصور بأبى مسلم الخراسانى الغنى عن التعريف به، ثم أوقع بوزيره أبى أيوب المورىانى، وعندما تولى المهدي الخلافة أوقع هو الآخر بوزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار. لهذا، لم تكن نكبة البرامكة على يد الرشيد بشيء جديد لمن يعرف تاريخ العباسيين. ويفسر بعض المؤرخين نكبة البرامكة فى ضوء طبيعة الحكم ونفسية الحاكم، ذلك أن الحاكم أى حاكم يجب أن يستعين بالمخلصين من رجاله، ولكنه يكره أن يرى أحدهم وقد ازداد نفوذه إلى درجة تتقصص من مكانة الحاكم نفسه. فمن الثابت أن البرامكة بلغوا فى عهد الرشيد نفوذاً واسعاً ومكانة عالية. وهو ما جعل الشعراء يتسابقون إلى مدحهم والتغنى بكرمهم، كما تزاحم أرباب الحاجات

على أبوابهم. هذا إلى جانب الثروة التي جمعوها والدور التي بنوها، والآثاب والرياض التي اقتنوها، عدا الخدم والحشم. والبذخ والترف في أمور كثيرة، حتى أزعج غناهم الرشيد نفسه فقال: «إن ضياعهم ليس لولدى مثلها، وتطيب نفسى لها». كما أثار وضعهم هذا حسد الحساد، فكثرت الوشائيات فيهم من اتهامهم بالزندقة حيناً، وبالعمل على نقل الخلافة إلى العلويين أحياناً. وفريق من المؤرخين ومن بينهم الطبرى يرجع أسباب نكبة البرامكة إلى قصة العباسة أخت الرشيد. وملخص هذه القصة: أن الرشيد كانت له أخت اسمها العباسة، تتمتع بثقافة واسعة جعلت الرشيد يحب مجالسها، كما كان يحب مجالسة صديقه جعفر بن يحيى البرمكى. ولكى يجمع بينهما فى مجلس واحد عقد لجعفر على أخته زواجاً صورياً كى ينظر إليها ويتحدث معها فى مجلسه فقط. ولكن حدث ما لم يكن فى الحساب إذ اتصل جعفر بالعباسة اتصال الأزواج، فحملت منه، وولدت غلاماً خبأته فى مكان بعيد - مكة - خوفاً من افتضاح أمرها أمام الرشيد. وظل الأمر مستوراً حتى وقع الخلاف بين العباسة وبعض جوارىها فأشاعت إحدى الجوارى ما كان سراً حتى انتهت الأخبار إلى مسامع الرشيد، فأغضبه الأمر وبدأ يتحرى عن مكان الصبى فى مكة عندما حج فى تلك السنة، وأرسل فى طلبه ومن معه. وقد سأل اللواتى - الحاضنات - معه لما أخبرنه عن قصته، فأخبرنه بمثل القصة التى تناهت إلى مسامعه من الجارية فى الحج ليتقم من البرامكة. وكانت عودة الرشيد من الحج عام 187هـ الموافق 803م وهو متوتر الأعصاب غاضباً لما حدث من صديق عزيز على قلبه خانه مع اخته التى شغلت حيزاً كبيراً فى قلبه أيضاً، فما أن وصل الأنبار حتى دخل إلى فراشه مبكراً على غير عادته⁽¹⁾.

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 6 وانظر الطبرى 295/8 ومروج الذهب 379/3.

وكان عنده جعفر بن يحيى فانصرف. وما كاد ينصرف حتى أرسل الرشيد وراءه كبير خدمه - واسمه مسرور - وأمر بضرب عنقه، ثم أمر الرشيد في الحال بالقبض على يحيى البرمكى وأولاده الباقين وجميع أفراد أسرته وصادر أموالهم كلها. وقد صلب جسد جعفر بن يحيى البرمكى ثم أحرق. وأرسلت الكتب إلى جميع العمال في مختلف أقاليم الدولة العباسية بقبض أموال البرامكة وحجز وكلائهم. وأعلن في البلاد أن لا أمان لمن آواهم، باستثناء محمد بن خالد بن برمك وولده لأن الرشيد استثناهم لتأكد الرشيد من براءتهم. بما اتهم به بقية البرامكة.

ولكى نقف على الحقيقة بشكل واضح يحسن أن نوجز ما أثبتته الرواة والمؤرخون بعد نكبة البرامكة. يقول ابن طباطبا: إن الرشيد قال: لقد استبد يحيى بالأمور دونى فالخلافة فى الحقيقة له، وليس لى منها إلا اسمها. ومن هذا يتبين أن الرشيد قد أبدى تخوفه من البرامكة وخطرهم على الدولة فى شخص يحيى قبل جعفر والفضل. ويتابع ابن طباطبا حديثه عن أسباب النكبة قائلاً: إن أعداء البرامكة أمثال الفضل بن الربيع - متسلم ديوان الخاتم ومن سلالة ذات نزعة عربية - ما زالوا يسعون بهم إلى الرشيد، ويذكرون له استبدادهم بالملك، واحتياجهم للأموال، حتى أوغروا صدره، فأوقع بهم، كما أن جعفرًا والفضل ابنى يحيى قد ظهر منهما من الإدلال ما لا تحتمله نفوس الملوك، فنكبهم لذلك ويقول ابن الأثير: سأل الواثق بعض أصحابه قائلاً:

من منكم يعرف السبب الذى وثب به جدى الرشيد على البرامكة؟ فقال عزون بن عبد العزيز الأنصارى: أنا والله أحدثك يا أمير المؤمنين، كان سبب ذلك أن الرشيد أراد شراء جارية بمئة ألف دينار، وأرسل إلى يحيى بن خالد أن يعطيه ذلك، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء، إذا أخذ ثمن جارية بمئة ألف

دينار فهو أخرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل إليه يحيى أننى لا أقدر، فغضب الرشيد وقال: لابد منها، فأرسل إليه يحيى قيمتها دراهم ليستكثرها الرشيد. ولما وضعت بين يديه استكثرها وأمر برد الجارية، وقال لخدام له: أضمم إليك هذا المال، واجعل لى بيت مال لأضم إليه ما أريد.

ويضيف ابن الأثير قائلا: بأن الرشيد أمر لأبى العود بثلاثين ألف درهم يدفعها له يحيى فمطله بها يحيى، فأوغر أبو العود صدر الرشيد على البرامكة، وأنشده متمثلا قول عمر بن أبى ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ليت هندا أنجزتنا ماتعد
واستبدت مرة واحد إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد: أجل إنما العاجز من لا يستبد، ثم جد الرشيد فى أمر البرامكة حتى أخذهم. أما المسعودى فقد قال هو الآخر: ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد أفضى بالوزارة إلى البرامكة، فاحتاروا الأموال دونه حتى كان يحتاج إلى القليل من المال فلا يقدر عليه. كما يتفق ابن خلدون أيضاً مع ما أشار إليه المسعودى فى قوله: وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجازهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسر من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، زاحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم. وبعد فما هى السياسة التى اتبعها الرشيد خلال فترة حكمه؟ مر حكم الرشيد بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: 170 - 174 هـ الموافق 786 - 791 م تولى هارون الرشيد الخلافة ليجد أمه «الخيزران» صاحبة الكلمة المسموعة فى الدولة، والناس

يقصدونها لقضاء حوائجهم. وهذا النفوذ نعتت به منذ خلافة زوجها محمد المهدي. وقد استمرت تسيطر على الأمور في أول أيام خلافة ابنها موسى الهادي، وتستبد بالأمر والنهي حتى وجه لها الهادي ذلك الخطاب المشهور الذي أوقفها عند حدها من التدخل لفترة قصيرة. وما أن تولى الخلافة ولدها هارون الرشيد حتى عاودت تدخلها في شؤون الحكم، وصارت هي صاحبة الكلمة المسموعة الأولى والأخيرة في هذه المرحلة، فكان يحيى البرمكي يعرض عليها الأمور ويصدر تعليماته بعد أخذ رأيها، وهكذا حتى كانت وفاتها عام 174هـ الموافق 790م.

المرحلة الثانية 174 - 187هـ الموافق 791 - 803م بعد وفاة الخيزران -
والدة الخليفة الرشيد - انفرد بالحكم، وصار له الرأي والتدبير، فهذا ليس بجديد لأن الرشيد في كتاب تقليده، الوزارة ليحيى البرمكي، قال: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى». فقام يحيى بأمره خير قيام، ودبر أموره أحسن تدبير. كما تولى أولاد يحيى البرمكي المناصب الكبيرة في الدولة. وصاروا موضع ثقة الخليفة حتى نكبهم الرشيد فجأة عام 187هـ الموافق 803م.

المرحلة الثالثة: 187 - 193هـ الموافق 803 - 809م. تولى الرشيد في
هذه المرحلة أمور الحكم بنفسه، فنراه يتنقل في أرجاء دولته ويتجول بين الناس في الأسواق مستتراً يستمع إلى شكاوى الشاكين. ويتفقد ما هم بحاجة إليه. كما قاد الجيوش ضد الثائرين وقام بالغزوات ومهما يكن من أمر فقد واجه الرشيد كآسلافه في خلافة العباسيين متاعب كثيرة⁽¹⁾.

1 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص 66 وانظر: الطبري 295/8 - مروج الذهب 379/3.

يشير البعض إلى أن سبب نكبة البرامكة إنما هو سياسى وهو تحزبهم لأهل البيت من أحفاد رسول الله محمد ﷺ، فقد قال الرشيد يوماً لأبى معاوية: هممت أنه من يثبت خلافة الإمام على بن أبى طالب فعلت به وفعلت به ويقول آخر: قال إسماعيل بن يحيى الهاشمى لجعفر البرمكى حينما ولاه الرشيد ولاية خراسان: أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير، واسعة الأقطار، عظيمة المملكة، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لك عنده. فلما قلت ذلك نظر إلى مغضباً وقال: والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضل ولا قامت هذه الدولة إلا بنا، ما كفى إنى تركته لايهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته، وقد ملأت بيوت أمواله أمولا، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها، حتى يمد عينيه إلى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع، والله لئن سألنى شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعاً. فقلت والله ما كان مما ظننت شيء، ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف، قال: فما هذا الفضول منك؟ وقد كتب الخادم - الذى وهبه الرشيد لجعفر - إلى الرشيد بما كان بينى وبينه، وما تكلم به من الكلام الغليظ، فلما قرأ الكتاب، احتجب ثلاثة أيام متفكراً فى إيقاع الحيلة على البرامكة. ويضيف قائلاً: قال الرشيد لإسماعيل بن يحيى الهاشمى: أنظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب، وليس على باب دارى أحد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله أن لا يعلق بنفسك شيء من هذا، فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك وبابه باب من أبوابك، فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون؟ فقال: والله إن البرامكة قد امتلكوا الدولة، واحتجزوا أموال الجباية، وانصرفوا عن خدمتى إلى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم وأنا لا أصبر على ذلك ويظهر من ذلك إحساس الرشيد بقوة نفوذ

البرامكة ممثلاً في جعفر، وممالاتهم للعلويين من آل البيت عليهم السلام وامتعاضه من تصرفاتهم التي لم يستطع الصبر عليها، بل باح بما يكنه ضميره تجاههم لإسماعيل الهاشمي، هذا بالإضافة إلى ما قاله ابن كثير أيضاً متهما البرامكة بالزندقة، ويكيدهم للإسلام إذ يقول: إن البرامكة أرادوا إبطال الخلافة وإظهار الزندقة. أما ابن قتيبة فيقول: كان البرامكة يرمون بالزندقة إلا من عصم الله تعالى منهم، وفيهم قال الأصمعي⁽¹⁾:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

يقول الطبري عن أسباب نكبة البرامكة: «ذكر أبو محمد اليزيدي قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تصدقه، ذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا آويت محدثاً، فرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال: وكيف أذهب؟ ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك، فوجه معه من أداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، فدخل على الرشيد فأخبره، فقال الرشيد: وما أنت وهذا لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري، فانكسر الفضل، وجاء جعفر إلى الرشيد، فقال له الرشيد: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال، قال:

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 170 وانظر: الكرملي / خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه إلى يومنا هذا (مخطوط) ص 126. الاتليدي / إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ص 143.

بحياتي فأحجم جعفر، وكان من أدق الناس ذهنًا، وأصحهم فكرًا، وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره قال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أن لا حياة به، ولا مكروه عنده، قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي، فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان. لهذا لا نستغرب إذا ساءت العلاقة بين الرشيد والبرامكة، ولعل من أذكى هذه الجفوة وزادها تعقيداً هو الفضل بن الربيع وغيره من أمثال زبيدة، التي كانت هي الأخرى تكره البرامكة وتربص بهم، نتيجة لموقفهم من ابنها الأمين وميلهم إلى المأمون، إذ كانت تعتقد أن الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون بولاية العهد الثانية بتأثير من يحيى البرمكي ليس إلا. أما عن نهايتهم فقد أشار إلى ذلك اليعقوبي إذ يقول:

قال الرشيد لإسماعيل بن صبيح: إني أريد أن أفشى إليك سرًا، لئن سمعته من أحد من الناس لأضربن عنقك، قال: إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعًا ما أوقعته بأحد وأجعلهم أحدوثة ونكالا إلى آخر الأبد، فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وأرشد أمرك، ثم حال الحول، وحال حول ثان ثم حال ثالث، فلما كان رأس الحول الرابع قتلهم، وكان قتل جعفر في صفر من عام 188هـ بدير العمر، وهو موضع من الأنبار بغير أمر متقدم، وأصبح فحملة إلى بغداد فقطع ثلاث قطع، وصلب على جسر بغداد، وحبس يحيى بن خالد وولده وأهل بيته، واستصفي أموالهم، وقبض ضياعهم. والغريب في الأمر أن الرشيد لم يكشف عن السبب الذي دفع به إلى نكبتهم حيث لم أجد من أشار إلى هذا من بعيد أو قريب من المؤرخين، ولعله احتفظ بهذا السر لنفسه لأمر لا يود الكشف عنها أو التصريح بها. ويؤيد هذا من أن الرشيد لم يكشف النقاب عن قصة نكبة البرامكة ما أشار إليه اليعقوبي إذ يقول: قال

الرشيد: لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها، وأكثر الناس في أسباب السخط عليهم مختلفين⁽¹⁾.

يقول ابن خلكان: قالت عليّة بنت المهدي للرشيد: ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفرًا فلا شيء قتلت؟ فقال لها: يا حياتي لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته ويشير البعض إلى أن تكتم الرشيد عن الإفصاح بشيء حيال نكبة البرامكة، وسكوت البلاد هو الذي سمح للشائعات أن تدخل في درج الحقائق، وللحقائق أن تشتبه بالشائعات. ويقال بأن يحيى ابن خالد كتب إلى الرشيد وهو في سجنه قائلاً: يا أمير المؤمنين إن كان الذنب خاصاً فلا تمنع بالعقوبة فإن الله عز وجل يقول: ﴿...وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾ [الأنعام]. وقد كتب يحيى كتاباً إلى الرشيد يستعطفه ويسأله أن يخفف عنه من القيد والغل فكتب على ظهر الرقعة أبياتاً وختم بالآية الكريمة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل].

فلما قرأها يحيى وهو في السجن أخذته الحمى وئس من الحياة، وعلم أنه ليس له مما هو فيه مخلص. من الباحثين المحدثين من يرجع تلك الأسباب إلى رد الفعل الديني ومنهم من يرجعها إلى خشية العباسيين من تعظم نفوذ آل برمك والتنافس بين الأرسطراطيين العرب والمشاركة ورغبة الرشيد في مصادرة أموالهم. ومن الذين عاصروا الحدث من اعتبر أن سببها حادثة كشف العلاقة السرية بين جعفر بن يحيى البرمكي وبين العباسية أخت الرشيد. ولم يذكر ابن خلدون هذه القصة في كتابه (التاريخ)، ولكنه أوردها في (المقدمة)

1 - عبد العزيز محمد اللبيلم - نفس المرجع ص 172: وانظر المصدر نفسه والجزء ص 422،

ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص 41.

للرد عليها، حيث يدحض الروايات المتداولة دحضا علميا: ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه «وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من أولادهم وصنائعهم واجتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم. فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسربت إلى خزائهم في سبيل التزلف والاستمالة، أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القراية العطاء وطوقوهم المن وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا لما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصولات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحققوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية.». إن ابن خلدون كان أكثر قدرة على استنباط الأسباب الحقيقية لنكبة البرامكة، فاستبعد الأسباب الواهية، التي إذا صح وجودها، فإنها لا تعدو أن تكون الأسباب الظاهرة. وهكذا فإن موقف الخليفة المفاجئ والعنيف، كان يمثل محاولة لاسترداد سلطته المفقودة وثروة دولته المهدورة. فهو يفصل لنا مظاهر الحظوة والامتياز التي حصل عليها البرامكة وأدت إلى تفردهم بالسلطة وتحديثهم للخليفة وكيفية رد الرشيد عليهم عندما حاول إنقاذ الموقف المتدهور الذي عبر عنه المتنبي فيما بعد مصورا حالة

الغربة التي بدأ العرب يشعرون بها أثناء سيطرة الموالى من المشرق الإسلامى فقال بيته الشهير⁽¹⁾ :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
هذا الموقف من البرامكة وغيرهم يبين لنا القوة التى كانت تتمتع بها الدولة فى شخص الخليفة، وكيف أنه يستعمل أقصى إجراءات الشدة، حتى مع أقرب مساعديه، فى حالات الخطر الذى يهدد سلطانه، كما يبين لنا ذكاء السلطة العباسية (دهاءها السياسى) فى استدراج خصومها وتصفيتهم بشكل لا يثير لها المتاعب.

ويقول البعض عن سبب النكبة: إن التهم الموجهة إلى البرامكة كانت كفيلة وكافية لغضب الرشيد عليهم خاصة ما يتصل منها بسلطانه وملكه وإحساسه بمشاركتهم له فى أمور الدولة، هذا الإحساس جعله أذناً صاغية لكل واش وحاقد، وكانت الكلمة الواحدة تطرق أذنه تحمل معنى التدخل، وتدفعه إلى عدم المبالاة بإنزال العقاب بهم بل وتمزيقهم شر ممزق، والشواهد على هذا كثيرة فى قديم التاريخ وحديثه. ومما يؤخذ على الرشيد أنه هو الذى مهد لهم الطريق، بل وفرشه لهم بالحرير بتفويضهم لإدارة شؤون الدولة، وإشرافهم دون رقيب على كل مظاهر الحياة فيها. وبالرغم من الأسباب العديدة التى أوردها المؤرخون لنكبة البرامكة إلا أن هناك من الأسباب ما أوغر صدر الرشيد عليهم ذلك أن الوشائيات ضدهم من أناس نقموا عليهم نفوذهم وسلطتهم فى وقت كانوا يطمحون للاستئثار بهذه السلطة وذلك النفوذ، والحلول محلهم، كان لها دوراً بارزاً بالإطاحة بهم، إذ عمل العديد من

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 153 وانظر: ابن خلدون - المقدمة ص 16

والطبرى ج 94/8.

الحاقدين عليهم على السعاية بهم لدى الرشيد، لعل من أبرزهم الفضل بن الربيع الذى عمل جاهداً على تتبع هفواتهم، وإيصالها إلى الرشيد أولاً بأول. ثم زبيدة أم الأمين وزوج الرشيد التى لم تكن هى الأخرى راضية عما يتمتع به البرامكة من نفوذ وثراء عريض. هذه الأسباب مع الأسباب السابقة الأخرى مجتمعة أدت إلى نقمة الرشيد عليهم والتنكيل بهم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر⁽¹⁾.

الواقع أن نكبة البرامكة لم تكن مفاجئة كما كان يتصور البعض، ولم تكن نتيجة ثورة عاطفية أو عصبية، بل تمت بعد تفكير طويل وتدبر أطول. ولعل ما سقته عن البرامكة وما اتهموا به أمام الرشيد، مما ذكره المؤرخون يبين لنا بوضوح بأن الرشيد لم يتسرع فى القضاء عليهم، بل تروى مدة أطول قبل أن يقدم على ذلك الإجراء الخطير. ولعل ما اتهم به البرامكة أمام الرشيد كان كافياً للإيقاع بهم واستئصال شأفتهم. إذا فمسألة نكبة البرامكة لم يستوف بحثها بل إنها بحاجة إلى مزيد من الدراسة لاستجلاء ما غمض منها، لأنه ليس من السهل تقبل كل ما أسند إلى الرشيد أو البرامكة أو العلويين من أمور تفاعلت مع النكبة. بل ربما هناك مسائل لم يكشف المؤرخون عنها، ولم يصل إليها استنتاج الباحثين بعد، بل إن الموضوع سيظل حقبة أخرى كقضية تاريخية معروضة للحوار والمناقشة. وإذا كان قدماء المؤرخين، ومنهم ابن طيفور وابن قتيبة واليعقوبى، وكذا الطبرى والمسعودى وابن الأثير وغيرهم كثير قد أثبتوا غالبية ما أشرت إليه من روايات تعليلاً لهذه الأحداث التى لا بست نكبة البرامكة، فإن الموضوع ما زال بحاجة إلى مزيد من الدراسة لهذا

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 174 وانظر: الأتليدى/ أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس ص 150. نصار/ عبد المقصود: نظرات حول العصر العباسى الأول ص 116.

الحدث الخطير . ومن المحتمل أن هناك أشياء لم يشكف عنها البحث العلمى حتى الآن⁽¹⁾ .

التخلص من آل سهل

سيرة المأمون فى عهده تشابه بعض الشىء سيرة والده هارون الرشيد، يمكن أن نميزه فى عهده دورين مختلفين : الدور الأول كان فيه المأمون تحت سلطان وزيره الفضل بن سهل ؛ يوجه الفضل بن سهل السياسة كما يريد، ويطلع المأمون من الأمور على ما يريد، ويخفى عنه ما يشاء . هذا الدور ينتهى عام مئتين واثنين للهجرة . فسمند عام مئتين وثلاثة يبدأ دور آخر كان المأمون فيه سيد أمره، قائماً بأمور الخلافة يوجهها كما ينبغى . يشبه المأمون والده أيضاً فى بعض طبعه ومزاجه ويخالفه فى بعضه الآخر : المأمون حى ، وفى ، كريم ، يحب الناس ، ويحب من الناس أن يحبوه . وهو فى هذا يشبه والده . ولكنه إلى جانب الحياء والوفاء حلیم مترو فى الأمور فى ساعتها . أما المأمون فيبلغ منه التروى أنه يؤجل حلها حتى يستقر على رأى صحيح فيها ؛ وهو عميق فى تفكيره عمق العالم ، وقد كان عالماً بالفعل . كان ينظر إلى الأمور من القريب والبعيد ، وإن حلت الآن فماذا ينتج عن ذلك ؟ وإن تأخر الحل فماذا يحدث ؟ فما كان يستقر على أمر إلا بعد أن يرى ظروفه وأبعد ما فيها ؛ وكان إذا فاجأته حادثة ، أخر حلها حتى يستقيم له الرأى فيها ، وهو على كل حال يحل المسائل هادئاً ، دون أن يكون فى الأمرة إثارة أو استشارة ، ليس فيه عنف ولا قسوة ، يرغب فى أن يكون حلاً هادئاً ناعماً لطيفاً . لعل الناس فى عصره ما كانوا يشعرون بأهمية الحل ، ولا يقدرّون قيمته قد يلجأ فى هذا الحل إلى السم أو إلى قتل الناس . ولعله كان يفعل ذلك لصالح الدولة ، ولعله كان يفضل الحلول الهادئة هذه على إرسال الجيوش وقتال

1 - عبد العزيز محمد الميلم - نفس المرجع ص 175 .

الناس . وكان بعد أن يوعز بالسّم ويقتل من يقتل ، يتبرأ من هذا الفعل ،
ويعلن سخطه عليه ، بل يحاول أن يخفى تدبيره وراء ترتيب جديد ، ينعم
على أهل الشخص المقتول ، ويضفى عطفه على اسم المسمول واسم ذويه .
وفى هذا يخالف المأمون سيرة أبيه ، فالرشيد قتل جعفر بن يحيى البرمكى
جهاراً ، وألقى أهله فى السجن ، وتركهم فيه حتى وفاتهم . الرشيد لم يذكر
فى لحظة من لحظات حياته بعد مقتل البرامكة أنه نادم على ما فعل . وكان
يتتبع البرامكة وأصدقاءهم حتى آخر عمره . أما المأمون فلا تبدو منه رغبة فى
فجيرة أى إنسان ، ولا يظهر من وراء أولئك الذين يفسون السّم ، أو الذين
يقتلون ، وإذا رأى أنه سينكشف أمره ، فإنه لا يتردد أن يتخلص أيضاً من
صنيعه الذى لعب دوراً فى المؤامرة⁽¹⁾ .

تتسبب هذه الأسرة إلى سهل الذى يقال بأنه كان من أسرة عريقة فى
المشرق الإسلامى ، إذ أسلم فى أيام المهدي ، وقيل فى أيام الرشيد كما يقول
ابن طباطبا . وكان الفضل بن سهل - الذى أصبح فيما بعد وزيراً للمأمون -
قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكى إذ أعجب به يحيى وقال له : إنى أراك ذكياً
وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأسلم حتى أجد السبيل إلى إدخالك فى أمورنا
والإحسان إليك ، فاستجاب الفضل لرغبة يحيى قائلاً : نعم أصلح الله
الوزير ، أسلم على يدك ، فقال له يحيى : لا ، ولكن أضعك موضعاً تنال به
حظاً من دنيانا ، ودعا سلاماً مولاه وقال له : خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى
جعفر وقل له : يدخل على المأمون حتى يسلم على يديه . وكان المأمون آنذاك
فى حجر جعفر بن يحيى ، وتم الأمر كما أراد يحيى . وظل الفضل ملازماً
لكل من المأمون وجعفر بن يحيى منذ ذلك التاريخ وإذا غادرنا ما حدث
للبرامكة الذى يوضح الكثير من توتر العلاقات بين الخلافة العباسية ممثلة فى

1 - يوسف العش - عصر الخلافة العباسية ص 91 .

شخص الرشيد، وبين المشاركة ممثلة فى أشخاص زعماء البرامكة، وحاولنا استكناه الأسباب التى جعلت المأمون يركن إلى المشاركة، وهل هى سياسة؟ أم هى لحمه الصهر والقربة كما يقولون؟ الواقع أننا نرفض أن نعلل الأحداث الكبرى فى الدول العظمى بأمور فردية أو شخصية ليست ذا بال فى توجيه التاريخ، فليس من المعقول مثلاً أن تكون أم المأمون سبب تمرزه فى «مرو» لأنه استلان الحياة بين أخواله. وإنما المعقول أن نتبع الأحداث، ونحاول تحليلها تحليلًا علميًا يتسق مع جلال وخطورة تلك الأحداث، فالدولة العباسية تضم بين جنباتها أقطاراً شاسعة من الأرض وجموعاً غفيرة من البشر. هذه الدولة ذات الجيوش الحارقة والمرافق الضخمة فى جميع المجالات، ليس من المعقول أن نعلل بقاء المأمون - رئيس هذه الدولة - فى مرو لمجرد أن أخواله هناك. ولكن ينبغى أن يقال: إن مصلحته ومصلحة الدولة وسياستها العامة كانت تفرض عليه ذلك. والمتبع للتاريخ منذ ولى المأمون عهد الخلافة فى حياة أبيه إلى أن ولى أخوه الأمين الخلافة، وما نشب بينهما من صراع انقسمت الأمة بسببه شطرين⁽¹⁾:

1 - شطر العرب وجمهورتهم مع الأمين.

2 - شطر المشاركة وجمهورتهم مع المأمون.

ثم ما أعقب ذلك من محاولة الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد والنكث بعهد أبيه. إن هذا التصرف من الأمين هو الذى حدا بالمأمون إلى اختيار مدينة «مرو» عاصمة وقتية ريثما تستقر الأمور وتنجلي الفتنة، ولأن هذه المنطقة هى التى ولأه عليها أبوه الرشيد فى حياته عندما وزع الصلاحيات بين أبنائه الثلاثة. إذاً فبقاء المأمون فيها كان ضرورة ملحة لأنه قد تركز بها منذ مدة طويلة أثناء خلافة والده الرشيد وأخيه الأمين، وكون له أعواناً

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 202.

وأنصاراً وجنداً هناك، فليس من المعقول والحالة هذه، والخلاف مستحكم بينه وبين أخيه الأمين، ثم ما أعقب ذلك من قتل الأمين بيد جند المأمون، أقول ليس من المعقول أن يهجر منطقة ركز فيها جنده وقواته فترة طويلة.

ولكن عندما نساير العهود التالية، نجد الكثير من مضايقات رجال المشرق للعباسيين، نذكر على سبيل المثال: ما حدث بعد الرشيد مع ابنه الأمين والمأمون. جعل هؤلاء من زعماء العرب وزعماء المشرق ميداناً للصراع حتى تتمزق وحدة الأمة والدولة، ثم انتهى الأمر بمصرع الأمين بيد طاهر بن الحسين وبجيش من المشرق الإسلامي، وببيع للمأمون في «خراسان» في المشرق الإسلامي، وولى الحسن بن سهل ولاية العراق مع وجود من هو أجدر منه في هذا الميدان، ولا شك بأن للفضل بن سهل - أخى الحسن - دوراً في هذه التولية، مما أوجد تدمراً لدى سكان العاصمة بغداد على الأقل، إذ يقول البعض عن ذلك:

«ثم دخلت سنة 201هـ وكانت فيها مراودة أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة يأبى ذلك، فأرادوه على الأمرة عليهم على أن يدعو للمأمون بالخلافة، وقالوا: لانرضى بالمجوسى بن المجوسى «يعنى الحسن بن سهل» فأجابهم إلى ذلك. نعم لقد تمكن الفضل بن سهل وأعوانه من ضرب حصار على المأمون وتوجيهه الوجهة التي يريدونها وذلك بإيعاز صدره على العرب وكل من عدا آل سهل، وأخذوا يزينون له البقاء في مرو، ويخوفونه من بغداد، بل ويحذرونه من كل عربى فيها، وامتدت أيديهم إلى كل من يحاول تقديم صورة حقيقية للأحداث وظروفها وطبيعتها إلى الخليفة المأمون، فكانوا ينزلون العقاب بكل من يصل إلى مسامعهم أنه اتصل بالمأمون أو أفضى إليه بشيء. لقد اعتقد الفضل بأن تأييده بل ومشورته للمأمون بتولية الإمام على الرضا عليه السلام وأمله في أن يتمكن أخوه الحسن من إخماد الثورة في العراق

والقضاء على القادة الذين يخشى خطرهم. كل تلك ستبقى السلطة بيد آل سهل وفي «مرو» بالذات وهذا هو ما سعى إليه الفضل، ولهذا رأى أن لا حاجة لأخبار الخليفة بما يجرى في بغداد من التذمر والغليان وبقاء الخليفة في «مرو». ولعل من أربك خطط الفضل هو «الإمام على الرضا عليه السلام» الذي كشف الحقيقة للمأمون والتي أفسدت على الفضل مخططاته، وكانت سبباً رئيسياً لنهاية الفضل وانتقال الخليفة إلى بغداد⁽¹⁾.

الصراع بين الأمين والمأمون:

الأمين والمأمون، أو الفضل بن الربيع والفضل بن سهل، كانا يمثلان قطبي الصراع السياسى داخل الدولة العباسية منذ أواخر أيام الرشيد. فكلما ذكر الأمين والمأمون، ابنا الرشيد، إلا وذكر معهما «الفضلان»، الوزيران اللذان تميز كل منهما إلى أحد الأخوين، وأثارا بينهما صراعا شديدا انعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وهكذا فإن نكبة البرامكة كان لها علاقة مباشرة بالصراعات الجديدة بين الأخوين، بل إن صراع الأخوين كان استمرار للصراع القديم، وكان الرشيد يخاف من سعى البرامكة بين الأمين والمأمون، فكان يقول: «أعليناهم وأفقروا أولادنا، ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضياع البرامكة. ولم يبق لأبنائه شيء سوى أنهما أصبحتا العوبة في أيدي المتصارعين لكسب شرعية سلطتهم في المرحلة اللاحقة بعد غياب الرشيد. ولكن الأمر لم يسر كما توقعه البرامكة، إذ تم القضاء عليهم، وحل محلهم الفضل بن سهل الذى مثل اتجاه المشرق الإسلامى المؤيد للمأمون. كان الصراع يدور فى تلك الفترة بين الطبقات المستفيدة من المراكز الإدارية والسياسية المهمة، والمحدثة بسبب إعادة ترتيب سياسة الاحلاف مع المشرق الإسلامى والأسر والقبائل العربية بعد القضاء على البرامكة. وكان الصراع الطبقي الدائر

1 - عبد العزيز محمد الميلم - نفس المرجع ص 204.

بين ربحى الطبقات والفئات المسيطرة على الثروة والسلطة، يتسم بسمتين أساسيتين تبهتان فرزه وتضعفان تطوره مما انعكس على تماسك البنية الاجتماعية والاقتصادية، وهاتان السمتان هما⁽¹⁾:

1 - حدوث تحالف بين طبقة الإقطاع وطبقة التجار والمرايين، تجسد فى تبادل المصالح والأدوار وتسهيل الأعمال العقارية والتجارية، مما انعكس على الواقع السياسى. وقد أدى ذلك إلى استمرار المصالحة السياسية على الأسس (الثروة - الجاه أو النسب - المشاركة فى السلطة. لكن ذلك تغير فى المرحلة الموالية، أى بعد عصر المتوكل حينما ظهر الإقطاع العسكرى وسيطر على الدولة.

2 - تبلور نوع آخر من الصراع القائم بين الثنائية العصبية عرب ومشاركة، مما أدى إلى تبلور طبقتين أرستقراطيتين متميزتين تجسدت بشكل واضح فى الجهاز البيروقراطى المتضخم للدولة. وأصبح التأثير على القرار السياسى هدفا أساسيا لكل منهما يفوق أهمية الثروة لديهما. ورغم أن بوادر هذا الصراع كانت قائمة منذ نشوء الدولة العباسية، لكنه كان مختلفا نظراً لطبيعة التطورات الاجتماعية والسياسية، إلا أنه بدأ بالتبلور من خلال ظهور ممثلين بارزين له فى المجالين السياسى والثقافى. كما انعكس ذلك على المستوى الإدارى أيضاً. إن الصراعات السياسية بين مراكز القوى فى السلطة العباسية وكثرة الثورات والحروب والانشغال بمحاربة الدولة البيزنطية، لم تترك فرصة أمام قوى الإقطاع والتجارة لتوطيد نفوذها، لذلك فإنها لم تستطع تقوية دعائم الطبقية بسبب وجود دولة مركزية تتدخل باستمرار، على أن قوة دور العصبية فى المجتمع العباسى، وضعف الفرز الطبقي القائم على

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 155 وانظر: أحمد أمين - ضحى الإسلام ص 66.

الأسس الاقتصادية، وصراع الأرستقراطيتين العربية والمشرقية. لم ينف وجود تشكيلة اقتصادية اجتماعية واضحة المعالم. هذه التشكيلة تظهر لنا من خلال النظرة التاريخية العامة للصراع الاجتماعي بمختلف أبعاده. وبالتالي من خلال سيورة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. لقد تجسد ذلك فى احتكار الدولة وممثليها رغم اختلاف طبيعة هؤلاء الممثلين وعلاقتهم بالأرض، باختلاف المراحل السياسية للملكية الأرض بدرجة أساسية، وباقى قوى الإنتاج، وخضوع جماهير الفلاحين والحرفيين لعلاقات التبعية الإقطاعية وانحلال النظام العبودى وضعف دوره، واتساع نطاق حركات التمرد فى صفوف الفلاحين فى الريف والحرفيين وصغار التجار والعبيد فى المدن، وتبلور الصراع فى البنى «المفرد: بنية» الفوقية فى النشاطات المذهبية والسياسية⁽¹⁾.

ويمكن استنتاج ذلك على ضوء المحاور التى جرت بين الفضل بن سهل ونعيم بن حازم يحسن أن نقلها من الجهشياري إذ يقول:

كان المأمون قد جد بأخذ البيعة على الناس والكتابة إلى الأقاليم فى إبطال السواد، وأن يلبس الناس الخضرة، ويجعل الأعلام والقلانس خضراً وهو شعار ولون رسول الله محمد ﷺ وأحفاده من آل البيت العلويين، ويطالب الناس بذلك، ويكتب فيه جميع عماله. وكان المأمون قد قال للفضل: ينبغى أن تحضر نعيم بن حازم فإنه وجه من الوجوه، وله سابقة وجلالة ورياسة، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الأمر، فأحضره الفضل بحضرة المأمون وعرفه بما عزم عليه ورغبه فيه وذكره ما يلزم من الانقياد له، فأبى نعيم، وذكر ما كان منه ومن سلفه فى نصرة الدولة الهاشمية، وما وصلوا إليه بها من العز والأمن والثروة والجاه، وما بلغوه فيها من الحماية وبذل المهجة ومقاومة الأعداء، وأنه لا يقبل الضيم، ولا يسمح بطاعة من كان

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - نفس المرجع ص 66.

يسفك دمه ويدفعه عما يلتسمه ويقارعه دونه، فكلمه الفضل فى ذلك وخلط له لنا وغلظة، فقال له نعيم:

«إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس إلى آل البيت من العلويين أحفاد رسول الله محمد ﷺ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة الإمام على وولده عليهم السلام وهى البياض إلى الخضرة، ثم أقبل على المأمون فقال:

الله الله يا أمير المؤمنين، لا يخذعك عن دينك وملكك فإن أهل خراسان لا يجيبون إلى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه، فقال له المأمون: انصرف ولم يظهر له غضباً، وأقبل على الفضل فقال له: ماترى؟ قال: أرى أن يخرج هذا عن خراسان فلا خير فى مقامه معنا. ولعل مما يؤيد ذلك ويؤكد ما رواه اليعقوبى من أن رسول المأمون الموفد إلى الإمام على الرضا عليه السلام كان قرابة للفضل بن سهل إذ يقول:

«وأشخص المأمون علياً الرضا من المدينة إلى خراسان وكان رسوله إليه رجاء بن أبى الضحاك قرابة الفضل بن سهل، فقدم بغداد ثم أخذ به على طريق ماه البصرة حتى صار إلى مرو، وباع له المأمون بولاية العهد من بعده، وكان ذلك يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان عام 201هـ وألبس الناس الأخضر مكان السواد، وكتب بذلك إلى الآفاق، وأخذت البيعة للرضا، ودعى له على المنابر، وضربت الدنانير والدراهم باسمه وعلى أية حال فإنه إذا كان الفضل بن سهل قد أشار بهذا رأى على المأمون، إذ أن نقل الخلافة إلى علوى يعنى البقاء فى خراسان ولو لمدة، وبأن الفضل بن سهل عندما أشار على المأمون بتولية الإمام على الرضا عليه السلام بولاية العهد إنما يقصد من وراء ذلك أن يضمن بقاء العلويين رضوان الله عليهم فى خراسان، كما أن الخراسانيين من المشرق الإسلامى قد شعروا بما لقيه زعماءهم على يد

العباسيين من قبل . ولهذا لا نستغرب إذا كانت ميول علوية من أحفاد الرسول محمد ﷺ .

وخير شاهد على ما كان يكنه الخراسانيون للإمام على الرضا عليه السلام من الاحترام ما قاله البعض: من أنه حينما قتل الفضل بن سهل شغب الخراسانيون على المأمون، وهجموا على داره ولم يهدأوا إلا بعد أن طلب منهم الإمام على الرضا عليه السلام أن يتفرقوا. وعمن قتل على يد الفضل بن سهل القائد المشهور الذى شارك بشكل فعال فى محاربة الأمين وتحقيق الانتصار للمأمون مع القائد طاهر بن الحسين، ذلك هو هرثمة بن أعين، والذى يعتبر من الرعيل الأول فى الدولة العباسية، وعمن له مكانة مرموقة فى المجتمع سواء فى عهد الرشيد أو فى عهد المأمون، فلقد حاول هذا القائد الاتصال بالمأمون وإخطاره بما يحوى حيث دخل هرثمة على المأمون وواجهه صراحة بالصراع الدائر ضد العرب بتدبير الفضل بن سهل. لقد أدرك هرثمة ما كان يدبره الفضل بن سهل ضد قضية العرب من استنثاره بالسلطة، وتحويل الخلافة إلى آل البيت من العلويين أحفاد الرسول محمد ﷺ، وأحس بأن المأمون أصبح فى عزلة محجوباً عن الاطلاع على سير الأحداث فى الدولة العباسية، ولهذا قرر بعد الانتهاء من قمع ثورة أبى السرايا أن يتجه إلى مرو لمقابلة الخليفة ليشرح له أسباب العديد من الثورات المتلاحقة ضد حكمه، ولينقذه من استبداد الفضل.

وقد تلقى هرثمة أثناء سيره تعليمات من «مرو» بالتوجه إلى الشام أو الحجاز، ولكنه رفض الإذعان لتلك الأوامر، وأبى أن يذهب لولايته دون رؤية الخليفة إدلالاً منه عليه لنصحه للخليفة ولآبائه، أراد بذلك كله أن يطلع المأمون بما يدبره الفضل، وما يكتُم عنه من الأخبار، وأن لا يدعه حتى يقنعه بالعودة إلى بغداد موطن آبائه وأجداده⁽¹⁾.

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 206.

عندها أدرك الفضل ما تنطوى عليه نية هرثمة من قدومه إلى المأمون، لهذا أخذ يوغر صدر الخليفة ضد هرثمة قائلاً له: بأن ثورة أبى السرايا إنما كانت بتدبير هرثمة، وأنه جاء معانداً عاصياً لأوامر الدولة، وأنه إن ترك كان مفسدة لغيره، فاستمع الخليفة لتلك الوشاية، وتغير قلبه على قائده وبات ينتظره. ولما قرب هرثمة من «مرو» خاف أن يحول الفضل بينه وبين الخليفة، لهذا أمر بدق الطبول عند دخول «مرو» العاصمة كي يسمع الخليفة ذلك، فقال الخليفة: ما هذا؟ قال الفضل: هذا هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق، فازداد المأمون غضباً وأمر بإدخاله، فلما مثل بين يديه صاح فيه قائلاً: مالأت أهل الكوفة والعوليين وداهنت ودسست إلى أبى السرايا حتى خرج وعمل ما عمل، وكان رجلاً من أصحابك، ولو أردت أن تأخذهم جميعاً لفعلت، ولكنك أرخيت خناقهم وأجرت لهم رسنهم. وعندما أراد هرثمة الكلام والاعتذار، وأن يدفع عن نفسه ما اتهم به لم يقبل منه الخليفة ذلك، وأمر به فوجئ على أنفه وديس بطنه، وسحب من بين يدي الخليفة، ثم حبس فمكث أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا: إنه مات كما يورد الجهشيارى القصة من وجه آخر إذ يقول:

«قدم هرثمة بن أعين إلى المأمون مغاضباً لذي الرياستين، وكان ذو الرياستين يجلس على كرسى مجنح، ويحمل فيه إذا أراد الدخول إلى المأمون فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسى، ونزل عنه فمشى وحمل الكرسى حتى يوضع بين يدي المأمون ثم يسلم ذو الرياستين ويعود فيقعد عليه، وكان فيمن يحمل الكرسى سعيد بن مسلم ويحيى بن معاذ قال: وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك إلى مذهب الأكاسرة، فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل فى مثل ذلك الكرسى ويتولى حمله اثنا عشر رجلاً من أولاد الملوك. فدخل هرثمة فى أصحابه دار المأمون فوجد ذا

الرياستين جالساً على الكرسي في الدار، والمأمون في دار أخرى، فلما انتهى إلى موضعه قعد ولم يسلم على ذي الرياستين، وفي يدي ذي الرياستين كتاب يكتبه وهو مقبل عليه فلما فرغ منه التفت إلى هرثمة فقال: مرحباً وأهلاً وسهلاً يا أبا حاتم، أسعدك الله بمقدمك، وعظم بركته عليك، فلم يرد عليه هرثمة شيئاً، ثم قال: إني قد عرفت أمير المؤمنين أعزه الله خبرك وأن ما حملت نفسك عليه من الدخول بغير إذن لغير معصية منك وصرفت ذلك إلى أحسن الجهات فقبل ذلك ورجع عما سبق إلى قلبه منه فلم يكلمه هرثمة، ثم قام ذو الرياستين فدخل إلى المأمون ثم خرج وقال: يا أبا حاتم، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك والحال التي أنت عليها من العلة، وأنه لا يمكنك الوصول إليه إلا على الحال التي وصلت عليها إلينا، فلم يكلمه⁽¹⁾.

ثم أذن له المأمون، فدخل عليه، فبره وأقبل عليه، وأمر بأن يطرح له كرسي بجانبه، وأقبل عليه بوجهه يحدثه ويسأله ويدعوه بكنيته، ودخل ذو الرياستين فطرح كرسيه وقعد عليه، قال، فقال المأمون: يا أبا حاتم: ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، تجشمته لأقضى حق الله على في طاعتك، وأنبهك على أمرك، وأقول بالتنصح لك فقال: يا أبا حاتم، ليست بك حاجة إلى هذا وأنت تعب فانصرف إلى منزلك، قال: كلا يا أمير المؤمنين، ما تجشمت طول السفر لأنصرف إلى منزلي، قال: بلى يا أبا حاتم، أحب أن تنصرف إلى منزلك وتدع ذكر ما لا نحتاج إليه، وما أنت عنه غني، قال: لا يا أمير المؤمنين، أو أقضى الحق على في نصحك، لأنني لا آمن أن يحدث علي في هذه الساعة حادثة فألقى ربي مقصراً في حق إمامي، ثم التفت وقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت هذا المجوسى - يعنى ذا الرياستين - في هذا المجلس على كرسي» ثم

1 - عبد العزيز محمد الميلم - نفس المرجع ص 208.

قال: يا أمير المؤمنين، ما لمسرور وسلام يحبسان من غير ذنب ويأخذ هذا المجوسى أموالهما وأمتعتهما فيبيعها ويمزقها؟ قال له: ياهرثمة، أمنعك عن ذكر ما لا نحتاج إليه، وغضب المأمون، فقال: لا والله أو يدفع إلينا هذا المجوسى فنزل به ما يستحقه، فقال له ذو الرياستين: وما أنت وهذا ياعلج، خذوا برجله وجروه، فتبادر الناس إلى هرثمة، وأخذوا برجله وجروه من بين يدى المأمون، وحبس ثمانية أيام وقتل، ثم أخرج فى اليوم الثامن ميتاً فى «لبادة» لقد حرص الفضل بن سهل على إخفاء الكثير مما يجرى فى الدولة العباسية عن المأمون، فكان لا يسمح لأحد بالدخول على المأمون يتوقع منه أن يدلى بمعلومات حقيقية عما يدور فى الدولة دون علم المأمون إذ يقول ابن طباطبا: كان الفضل بن سهل قد قطع الأخبار عن المأمون، ومتى علم أن أحداً قد دخل عليه وأعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقبه، فامتنع الناس من كلام المأمون، فانطوت الأخبار عنه، فلما ثارت الفتنة ببغداد وخلع المأمون، وبويع لإبراهيم بن المهدي، وأنكر العباسيون على المأمون فعله، كتم الفضل بن سهل ذلك عن المأمون مدة.

طويت صفحة ذلك القائد العربى هرثمة الذى أخلص للمأمون ومن قبله الرشيد، وكافح فى سبيل توطيد دعائم حكم العباسيين فى كل من المغرب العربى وخراسان والعراق والأهم من ذلك كله أنه حقق للخليفة المأمون الكثير من الانتصارات ضد أخيه الأمين متعاوناً مع طاهر بن الحسين وذهب ضحية تلك السعاية التى سعى بها الفضل بن سهل لأنه يعرف حقيقة ذلك الرجل، وأنه سيطلع الخليفة على الكثير من الأمور التى أخفاها عنه الفضل والتى سينكشف فيها الفضل أمام المأمون، ولهذا سعى جاهداً على استئصال شأفته وإيغاز صدر الخليفة ضده حتى لا يسمع منه أنباء ستكون لها نتائج وخيمة على الفضل فيما إذا عرف المأمون حقيقة الموقف. نعم لقد

صدقت نبوءة ذلك الرجل عندما قال للمأمون: إننى لا آمن أن يحدث على فى هذه الساعة حادثة، فلقد حدث ما كان يخشاه إذ كانت عيون الفضل وأعوانه أسرع إلى الرجل، وانتهت حياته بالقتل على يد الفضل بالأسلوب الذى أشار إليه الجهمشيارى، ولم يكن هرثمة فى يوم من الأيام ضد الخليفة المأمون، بل كان يهدف من وراء لقائه بالخليفة أن يطلعه على ما يجرى فى دولته التى خفى عليه الكثير من أحداثه نتيجة لتمويه الفضل على المأمون، وإخفاء الكثير من الحقائق التى غابت عن ذهن الخليفة. ويحسن أن أترك الحديث لمسكويه لتفصيل ما حدث⁽¹⁾:

إذ يقول عن سبب خروج المأمون من مرو إلى بغداد:

«أخبر الإمام على الرضا عليه السلام المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يستره عنه من أخبار الناس، وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون: إنه مسحور مجنون، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا عمه إبراهيم بن المهدي فى الخلافة، فقال له المأمون: إنهم ما بايعوه بالخلافة، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم على ما كان أخبره به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وإبراهيم بن المهدي، وأن الناس ينقمون عليك مكانه، ومكان أخيه، ومكان بيعتى من بعدك، فقال: ومن يعلم هذا من أهل عسكرى؟ فقال له: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، فقال له: أدخلهم على حتى أسألهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه مع جماعة آخرين فيهم على بن أبى سعيد، وهو ابن أخت الفضل، فسألهم المأمون عما أخبره به على بن موسى الرضا، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل ألا يعرض لهم، وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطه ودفعه إليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن،

١ - عبد العزيز محمد المليم - نفس المرجع ص 210.

وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليهم وقواده فى أشياء كثيرة، وبما موه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأن هرثمة إنما جاء لنصحه وليس له ما يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله حين أراد نصح الخليفة، وأن طاهرًا بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى وافتتح له ما افتتح، وقاد إليه الخلافة مدمومة، حتى إذا وطأ له الأمر أخرج من ذلك كله، وصير فى زاوية من الأرض بالرقعة، وقد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره، وشغب عليه الجند، ولو أنه كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك، ولم يجترأ عليه بمثل ما اجتريء على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها، وأن طاهرًا بن الحسين قد تنوسى فى هذه السنين منذ قتل محمد بالرقعة لا يستعان به فى شيء من هذه الحروب، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد وقالوا: إن بنى هاشم والموالى والقواد لو قد رأوا غرتك سكنوا، ونخعوا بالطاعة لك، قال:

فلما تحقق ذلك عنده أمر بالرحيل إلى بغداد، فلما أمر بذلك علم الفضل ببعض أمرهم، فتعنتهم حتى ضرب بعضهم بالسياط، وحبس بعضًا، ونتف لى بعض. فعاود الإمام على الرضا عليه السلام المأمون فى أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمائه لهم، فقال له: إنى أدارى أمرى، وسأبلغ ما فيه الصلاح بمشيئة الله، ثم ارتحل من مرو، فلما أتى سرخس شد قوم على الفضل وهو فى الحمام فضربوه بالسيوف حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان عام 202هـ، وقد قتله أربعة أنفار من حشم المأمون وهم: غالب الأسود المسعودى، وقسطنطين الرومى، وفرج الديلمى، وموفق العقيلى.

ورأينا أن المشاركة أرادوا أن يكون لهم مركزاً فى الدولة وأن يكون السلطان فى أيديهم، حاولوا ذلك أولاً قاصدين جعل الخليفة العباسى تحت سلطانهم، فساعدوا العباسيين على الاستيلاء على الحكم ووزروا لهم، وتولوا

أمورهم ؛ لكن العباسيين لم يشاؤوا أن يستسلموا للمشاركة فكانوا من حين إلى آخر يقتلون وزراءهم المشاركة، وينكلون بهم ؛ إن جل ما استطاع المشاركة الوصول إليه هو الإشراف على المرافق الأساسية للدولة، لكن إشرافهم هذا كان يضطرب مع نكبة وزرائهم، فيتقلص نفوذهم إلى حين وكانت آخر محاولة حاولوها هي الالتفاف حول المأمون والتأثير عليه، فقد ظنوا أن الأمر استتب لهم معه ؛ لكنه كان كأمثاله من الخلفاء العباسيين، ضربهم ضربة قضت على نفوذهم، ولو أنه مالاهم في ظواهر الأمور على عادته، وانتهى الأمر بالمضارقة إلى أن فكروا أنه لا محالفة لهم مع العباسيين. وأنهم إن حالفوهم فلن يصلوا إلى شيء كبير، وستكون القضية معهم شخصية، يستفيد الوزير منها إلى حين؛ ففكروا ووصلوا إلى قرار: هو أن يستقلوا عن الحكم العباسي شيئاً فشيئاً، فساروا في هذا الطريق، وتشكلت الدولة الطاهرية في خراسان، وتبعتها دول مشرقية أخرى⁽¹⁾.

وقتل الفضل وله ستون سنة، فهرب الأربعة وجعل المأمون لمن يجيئ بهم عشرة آلاف دينار، فجئ بهم، فسألهم المأمون، فقال بعضهم: إن عليا بن أبي سعيد بن أخت الفضل بن سهل دسهم، وقيل: إنهم قالوا للمأمون: أنت أمرتنا بذلك، فأمر المأمون بقتلهم فضربت أعناقهم، وقد جعل المأمون مكان الفضل أخاه الحسن ويبدو أن غالب المسعودي كان زعيم تلك المؤامرة بدليل ما أشار إليه اليعقوبي إذ يقول: «دخل غالب الرومي صاحب ركاب المأمون على الفضل بن سهل، فقال له الفضل: لك مائة ألف دينار فقال: ليس بأوان تملق ولا رشوة وقتله» والذي يعيننا من ذلك كله إنما هو محاولة زعيم المشاركة في ذلك الوقت «الفضل بن سهل» السيطرة على الخليفة نفسه، وعلى جميع مقاليد الحكم في الدولة، فأوغر صدور كثيرين مما دفع بالإمام

1 - يوسف العشى - المرجع السابق ص 99.

على الرضا عليه السلام أن يذكر للخليفة تفاصيل كل الأحداث التي اقترفها الفضل،
وحينما عاد الإمام على الرضا عليه السلام إلى الخليفة مخبراً إياه ماتم على يد
الفضل من تعذيب لمن أعطاهم المأمون الأمان مقابل أن ييؤحوا بما لديهم من
أسرار قال: أنى أدارى أمرى وسأبلغ ما فيه الصلاح بمشيئة الله، مما يفرض
وضع علامة استفهام كبيرة على نهاية الفضل، بل وغيه ممن تخلص منهم
المأمون إبان تلك الفترة أمثال الإمام على الرضا عليه السلام، فقد قيل بأن المأمون دبر
أمر قتله «أى الرضا». ومما يثير الشكوك حول مقتله ما أشار إليه البعض من أن
المأمون كتب لأهل بغداد حينما خلعه وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي مخبراً
إياهم بموت الإمام على الرضا عليه السلام قائلاً: إنما نقمتهم على بسببه وقد مات⁽¹⁾.

ومما قاله البعض من المؤرخين عن تسلط آل سهل على الخلافة إبان
وجود الخليفة المأمون فى «مرو»: «كانت دولتهم فى جبهة الدهر غرة، وفى
مفرق العصر درة، وكانت مختصر الدولة البرمكية، وهم صنائع البرامكة»
ومما يثير الشكوك فى إخلاص الفضل للعباسيين ما أشار إليه ابن طباطبا أيضاً
إذ يقول: قال مؤدب المأمون للفضل بن سهل أيام الرشيد: إن المأمون لجميل
الرأى فىك، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألف ألف درهم،
فاغتاظ الفضل وقال: والله ما صحبته لأكتسب منه مالا قل أوجل، ولكن
صحبته ليمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب، قال: فوالله ما طالت
المدة حتى بلغ ما أمل. ويضيف الجهشيارى قائلاً: ما صحبت هذا الأمير
لأكسب معه مالا قل أو كثر، وإن همى لتتجاوز كل مايجوز أن يملك،
وأخرج خاتمة من يده ثم قال: ليجوز طابع هذا فى الشرق والغرب، لهذا
خدمته، ولهذا صحبته، فما طالت المدة حتى بلغ الأمل، وقد بلغ من نفوذ

1 - عبد العزيز محمد المليم - المرجع السابق ص212 وانظر: أبو الفداء / المختصر فى أخبار

البشر ج3 ص32.

الفضل وأخيه الحسن أن عمل كل منهما على ضرب دينار له صفته الرسمية دون ذكر اسم الخليفة عليه، لإبراز كيانهما، وليس بالأمر الغريب أن تكون نهاية الفضل كنهاية البرامكة وهو القتل على أيدي أربعة من أعوان المأمون بسرّخس بعد أن شعر الخليفة بأن الفضل قد خرج عن إرادته، وتحرك نحو أهداف بعيدة عن سياسته. ويقول آخر: «تخلص المأمون من وزير منافق (يقصد الفضل بن سهل) اشتهر بالمكر والخديعة، واستطاع بأساليبه أن يسيطر على الدولة العباسية أربع سنوات كاد في نهايتها أن يجرها إلى الخراب ومعها سيده ومولاه⁽¹⁾».

إن كثيرا من الوقائع السياسية والظواهر الاجتماعية كانت تتكرر بشكل أو بآخر، رغم أننا لسنا مع القول بأن التاريخ يعيد نفسه، فكل ظاهرة وكل حادثة تختلف عن سابقتها المشابهة لها، أو لاحقتها. غير أن ما يثير الانتباه، التشابه في الوقائع، ولا بد أن يكون لذلك التشابه دلالة المفيدة في كشف حقائق الصراع وملابساته. إن الباحث في التاريخ السياسي العباسي، يستغرب التحولات السياسية المفاجئة التي تعترضه خلال استعراضه الوقائع والمواقف. فقد أصبح من العادة تحول القادة البارزين في ثورة أو حركة أو حزب أو تيار إلى أعداء بارزين لها مستقلين عنها، وهذا ما عرف بـ (أكل الثورة أبناءها)، وتكون نهايتهم مأساوية. على سبيل المثال نرى أنه بمثل تحول أبي مسلم الخراساني من خادم أمين للثورة العباسية إلى عدو لدود ومنافس خطير، بمثل ما نرى قائد المأمون على خراسان، إلى معارض قوى للمأمون عندما أسقط اسمه من خطبه ولمح إلى بغيه وجوره منذرا بالاستقلال. أما الظاهرة الأخرى

1 - عبد العزيز محمد المليم - نفس المرجع ص 213 وانظر: الفخرى في الآداب السلطانية ص 220.

التي لاحظنا أنها كانت تتكرر بين فترة وأخرى، فهي تلك العهود في تولية الخلافة، حينما أصبح الخليفة بعد غياب سلفه، يسندها لمن يشاء من أبنائه ومقربيه⁽¹⁾.

والحقيقة أن ذلك على أهميته، ليس بالأمر الغريب فحينما يكون الحكم فرديا استبداديا فإنه يكون عرضة للمفاجأة وتجاوز أعراف الدولة وقوانينها، أما بالنسبة لخروج قادة الحركات عن أهدافهم وابتعادهم عن حلفائهم، فإنه محكوم بمدى التطبيق والممارسة لأهداف تلك الحركات بعد تحقيق نصرها السياسى على خصومها، ولعل سيطرة النزعة الفردية والتعلق بمباهج السلطان وأمجاد الانتصار، فى إطار ضعف الرقابة والتنظيم، كانت الأسباب الكامنة وراء تلك المفاجآت. ولا يفوتنا الانتباه إلى أن الصراع الذى دار بين الأخوين ومن وراءهما كان يشوبه الالتباس والتداخل فى جوهر التكتلات. يدل على ذلك موقف الشخصيات المشرقية من تأييد كلا الاتجاهين. إذ شمل الاتجاه العباسى (الأمين) وجوها مشرقية بارزة كالفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان، وهما مشرقيان، كما شمل الاتجاه الخراسانى المشرقى (المأمون) وجوها عربية بارزة كطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين إلى جانب الوجوه المشرقية من أمثال الفضل بن سهل وغيره. هكذا نستنتج أن الصراع بين الطرفين كان قائما على المصالح المادية والسياسية أكثر من قيامه على العصبية. بل ربما كان الأساس العصبى - رغم حرص الطرفين على استبعاده - يستخدم كوسيلة لكسب الأصدقاء والمشايخين، ويظهر ذلك من خلال التشبث بمناطق النفوذ وظهور كلا الطرفين بمظهر المدافع عن الرعية. وقد استمرت العصبية المشرقية فى محاولات السيطرة والظهور بمظهر القوة بعد الضربات القوية التى تلقتها

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 160.

فى المستوى السياسى . وأخذ ذلك شكل ردة الفعل المتحدية ، يقول أحد الشعراء من المشرق الإسلامى وهو من ندماء المتوكل⁽¹⁾ :

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائز إرث ملوك العجم
ومحسبى إلى باد من عزهم وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم أنم
معى علم الكابان الذى به ارتجى أن أسود الأمم
فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرماح ح طعنا وضربا ، بسيف خدم
وأولاكم الملك أبأونا فما أن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ، ورعى الغنم
فإنى سأعلوا سرير الملك بحد الحسام ، وصوف القلم
ولكن ذلك الاتجاه لم تصدق توعداته وآماله ، لأن العباسيين بدؤا فى البحث عن حلفاء جدد وبدؤوا يسدلون الستار على الدور الفارسى فى حكمهم .

وأخيراً فقد عرف الخليفة المأمون ما كان يهدف إليه الفضل بن سهل من محاولة الاستحواذ على السلطة الفعلية فى البلاد ، كما أدرك فى نفس الوقت حقيقة ذلك السياج الحديدى الذى فرضه عليه الفضل ، وتبينت للخليفة جوانب تلك السياسة التى سار عليها الفضل ، والتى كانت فى مجملها تتعارض مع مصالح الخليفة والخلافة . تلك السياسة التى كان من نتائجها -

1 - د . محمد نجيب أبو طالب - نفس المرجع ص 161 وانظر أمين أحمد - ضحى الإسلام - ص 65 .

بعد علم المأمون بما كان يدور حوله - أن قرر الرحيل إلى بغداد، مصطحباً معه الفضل بن سهل، وولى العهد الإمام على الرضا عليه السلام، وجميع الحاشية. وفى الطريق يتم التخلص من كل من : الفضل بن سهل، والإمام على الرضا عليه السلام بالصورة التى تحدثت عنها سابقاً. وبهذا تتأكد للخليفة المأمون - بعد تركه «المرو» ووصوله إلى بغداد وفرار إبراهيم بن المهدي منها - سلطته الفعلية، بعد أن تخلص من ذلك الكابوس الذى كان يقض مضجعه كلما نام أو انتبه - أقصد الفضل بن سهل - وعادت الأوضاع فى الدولة العباسية إلى سابق عهدها. كل هذا أوضح للخليفة المأمون صدق تلك الشكوك التى حامت حول رجالات المشرق والتى أثارها أسلاف المأمون، وتأكدت له فيما بعد على الواقع يقول البعض: وقد أكدت سياسة بنى سهل للخليفة المأمون شكوك أسلافه فى ولاء الأرستقراطية المشرقية فنكل بهم. وبذلك فشلت آخر محاولة للتعاون الوثيق بين العباسيين وبين أرستقراطية المشرقيين، وأصبح كل منهم يخشى الآخر. ثم إن رجوع المأمون إلى بغداد، واقتفاءه خطة أسلافه خيب أمل جماهير المشرق فى إحياء العدل الذى وعد به العباسيون، ولذلك حصل بعض الوئام بين مصلحة الأرستقراطية المشرقية ومصلحة الجماهير ضد السيادة العباسية. كل هذه الأحداث التى جرت فى السنوات الأولى من خلافة المأمون والتى كان للفضل بن سهل القدح المعلى فى تصريف شؤون الدولة، بالإضافة إلى ما يتعلق بتولية الإمام على الرضا عليه السلام ولاية العهد والتى كان للفضل دور كبير بمشورته للخليفة بتولية الإمام على الرضا عليه السلام (1).

1 - عبد العزيز محمد الميلم - المرجع السابق ص 215 وانظر الدورى/ دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص 107.

العصبية التركية فى الإدارة العباسية:

لم يكن للحاكم العباسى إذا حليف قوى يستند عليه فى تمكين سلطانه، والمأمون فى الدور الثانى من عهده استطاع أن يمكن ذلك السلطان بدهائه وقوته وحسن تفكيره. أما المعتصم الذى حل بعده فلم يستطع أن يفعل شيئاً من ذلك، وقد خيل إليه أنه سيكون فى مهرب الريح إن بقى بعيداً عن التحالف، وكان ابن أم تركية، فوجد حلفاءه الطبيعيين بين الأتراك، فاتخذهم خدماً له وعبيداً وجيشاً وقوادا. وهنا ندخل فى دور جديد من أدوار الخلافة العباسية، وعلينا أن نبحث قليلاً فى الأتراك، فهم عنصر كان فى ذلك العهد قوى الشكيمة كل القوة، وكانوا متمرنين على أعمال الغزو، وعلى ركوب الخيل، وعلى الأسلحة والفروسية. أصلهم من شمالى وغربى الصين، أتوا إلى ما وراء النهر، فكانت لهم حصونهم وقلاعهم، وقد أتوا إليها للكسب مهاجرين من الأمكنة التى لا يستطيعون أن يعيشوا فيها. هؤلاء الأتراك لم يكونوا مثقفين أبداً؛ بل كانوا شبه أميين وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة، ولم يكونوا متحضرين كما كان العرب والفرس، وجل شأنهم السلاح والمقدرة الحربية، فظن المعتصم أنهم محالفون غير خطرين، فاستقدمهم وأكثر من شرائهم، وأرسل فى طلبهم، حتى كان له - على ما يقال - سبعون ألف فارس تركى فى خدمته. وهكذا تخيل المعتصم أنه ركز قوته على عنصر مهم، وأن الأمر سيستقيم له بهذا العنصر. وكان المعتصم قوى الشكيمة، قوى الجسم قوة هائلة، بحيث كان يحمل الأبطال الهائلة، وكان يقاتل بأحسن أنواع القتال، وكان يمسك بالعود من الحديد، فيثنيه مرات إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التى اشتهر بها فى ميدان القوة. كان يحب الترك لقوتهم أيضاً، لكنه لم يكن يدع لهم مجالاً فى السيطرة عليه، وبقي هو المسيطر عليهم، إنما هم عنده عبيد وخدم؛ غير أنه شعر بخطرهم عندما أخذ أهل

بغداد يتدمرون منهم، فقد كانوا ينزلون بخيولهم إلى الأسواق فيطؤون الصبيان والعجزة، فيثور عليهم العامة، ويقتلون منهم، ويذهب دم المقتولين هدرًا. زاد استياء الناس منهم حتى وجد المعتصم أن الحالة لا يمكن أن تستمر ففكر وأدى به تفكيره إلى أمر خطير وهو أنه رأى أن من واجبه أن يتقل من بغداد إلى مدينة أخرى يقر فيها أتباعه، فيكون قد أبعد جنده عن كافة الناس وتحصن هو من العلويين⁽¹⁾.

والمسألة التي أعارها المعتصم اهتمامه الكبير هي مسألة اقتناؤه الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر - جيحون - وخاصة بلاد «سمرقند» و«فرغان» و«أشروسنة» و«الشاش» و«خوارزم». والذي جعل المعتصم يفكر في جعل جيشه منهم هو: أن الأتراك في تلك النواحي اتصفوا بالشجاعة والقوة البدنية فضلًا عن جمال الصورة. إن المعتصم نفسه جندي قوى شجاع. إن جنود الأبناء لم يعد يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وتقبلهم لهذه الأسباب عنى المعتصم باستحضار هؤلاء الأتراك، إما عن طريق الشراء، وإما عن طريق الأسر في الحروب. أو عن طريق الهدايا التي اعتاد أن يقدمها له - على شكل رقيق أبيض - ولادة تلك الأقاليم. وهكذا أسكن المعتصم جنوده الأتراك بغداد، واستغنى عن الجنود العرب وأسقطهم من كافة الدواوين، بحيث لم يبق مرتزق لعهدده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء. واستخدم المعتصم قومًا من حوف اليمن وسماهم المغاربة امتاز الجنود الأتراك بزيهم عن سائر جند المعتصم، ورفع من قدرهم حتى صار بأيديهم مستقبل الخلافة، واصطنع منهم قوادًا بلغوا درجة كبيرة من النفوذ وعلو الكلمة في الدولة، من مثل: الأفشين الذي قضى على ثورة بابك الخرمي، فكافأه المعتصم باستقباله أفضل استقبال وتخصيصه في كل يوم بفرس وخلعة ووشاحين بالجواهر حتى أصابه الغرور

1 - د. يوسف العشي - المرجع السابق ص 101.

وحدثته نفسه بالاستقلال ببلاده «أشروسنة» عن المعتصم الذى أحس بمؤامراته، فقبض عليه وحبسه إلى أن مات. ومن القواد الأتراك الذين بلغوا مرتبة رفيعة فى عهد المعتصم «أيتاخ» الذى استمر على مكانته طوال عهد المعتصم إلى أن قتل أوائل عهد الواثق على يد أحد رجال جعفر الكردي الذين قاموا بثورتهم ضد المعتصم فى عام 227هـ الموافق 841م. وأشناس الذى بلغ هو الآخر مكانة عالية عند المعتصم حتى أجلسه على كرسى، وتوجه وبقي فى عهد الواثق على مكانته هذه حتى توفى عام 230هـ الموافق 844م⁽¹⁾.

التخلص من الأفشين؛

فشلت مؤامرة العرب ضد الترك إذن وانتصر الأفشين على أعداء الخليفة مرة أخرى إلا أن المعتصم تنبه إلى عظم شأن قائده. وكما هو المعتاد سيلقى الأفشين من الخليفة مالا قاه عظام القواد الذين أدوا خدمات كبيرة للأسرة العباسية منذ قيام خلافة بغداد. وكان من السهل على الخليفة التخلص من رجل الدولة حسب الطريقة التقليدية بأن توجه إليه تهمة المروق عن الدين أو الزندقة، كما كان من السهل أن توجه إليه تهمة القيام بنشاط سياسى معاد للخلافة. وتبرع أعداء القائد بعدد من هذه الاتهامات: اتهمه عبد الله بن طاهر بأنه كان يوجه هدايا أهل «أذربيجان» و«أرمينية» إلى موطنه الأصيل «أشروسنه»، كما اتهم بالتواطؤ مع مازبار (ملك طبرستان)، ومكاتبته وكذلك تشجيع قائده منكبجوه على الثورة وغير ذلك من التهم مثل تدبير قتل المعتصم. أما عن التهمة الرئيسية والتقليدية التى اتهم بها الرجل وهى الزندقة فرغم أن المعتصم كان أميا تقريبا (كان يقرأ بصعوبة) فإنه اهتم - حسب وصية أخيه المأمون - بالحالة الروحية لرعاياه، واستمر فى الأخذ برأى المعتزلة بخلق القرآن، وامتنحن الفقهاء بذلك. وكان نصيب أحمد بن حنبل الشىء الكثير

1 - د. إبراهيم أيوب - الرجوع السابق ص 94 وانظر مروج الذهب 476/3 والسيوطى ص 336.

من الجلد والتعذيب. أما الأفشين فبعد القبض عليه يتكون من محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، ابن أبى داود، إسحق ابن إبراهيم صاحب الزنادقة أيام المأمون، وغيرهم من الأعيان. هذا المجلس وجه إليه تهما أخرى، منها: أنه ضرب مؤذنا وإماما أقاما مسجدا «بأشروسنة»، ورد المتهم على ذلك بأن معاهدة بينه وبين ملك الصغد اشترطت أن يترك كل قوم على دينهم وأن الرجلين وثبا على بيت للأصنام وحولاه إلى مسجد. ثم وجهت إليه تهمة ثانية هى حيازة كتاب محلى بالذهب والجواهر فيه الكفر بالله، ورد الأفشين بأنه ورث هذا الكتاب الذى يحوى آداب العجم وكفرا وأنه كان يأخذ منه الآداب ويترك الكفر. وتقدم بعض الشهود من مواطنى المتهم ينسبون إليه كراهية كل ما يفعله المسلمون وكذلك عدم الاختتان، ورد الأفشين بتجريح الشاهد لأنه ليس ثقة فى دينه، ولكنه لم ينكر عدم الاختتان واعتذر بخوفه أن يموت لو فعل⁽¹⁾.

وجهت إليه تهمة أن أهل «أشروسنة»، بلده، كانوا يكتبون إليه «إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان». «فقال: كانت هذه عادتهم لأبى وجدى، فلما دخلت فى الإسلام كرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم».

وأخيرا اتهم بأن الغرض من نشاطه السياسى المعادى مع «مازيار» ثم «مكنجور» إنما هو إعادة دينه إلى ما كان عليه أيام العجم. وانتهت المحاكمة بإدانته فرد إلى السجن، وفشلت محاولاته فى استعطاف الخليفة إذ كتب إلى المعتصم يقول مثلى ومثل أمير المؤمنين كرجل ربى عملا حتى أسمنه وكبر وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلون من لحمه». ومات الأفشين فى السجن بعد قليل جوعا؟ ثم أخرج وصلبه وأحرق بالنار فى شعبان عام 226هـ. وبذلك تمكن الخليفة من التخلص من رئيس الحرس التركى فى أول حلقة من

١ - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص 150.

سلسلة الصراع بين الخلافة وقوادها الأتراك. وبدأ هذا الصراع يلخصه ما ينسب إلى المعتصم من أنه قال لأحد رجاله: «اصطنع أخى المأمون أربعة فأفلحوا: طاهر بن الحسين، وعبد الله بن طاهر، وإسحق بن إبراهيم، وأخوه محمد بن إبراهيم، اصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم: الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ووصيف، فقبل له نظر أخوك إلى لا أصول فاستعملها فأنجبت واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب إذ لأصول لها. هذا النص يعبر عن فكرة الصراع بين الترك من جهة والخراسان والعرب من جهة أخرى وهو يتحيز لجانب الأخيرين ضد الترك، والحقيقة أن الخلافة العباسية كانت قد تدهورت إلى حد كبير فانحطت هيبتها إلى درجة لم يعرف لها نظير من قبل. فبعد أن فقدت العرب وشكت في درايا الخراسان وجدت نفسها وحيدة أمام استبداد الترك فانطوت على نفسها ووقفت موقف المتفرج تنظر إلى الصراع بين المتغلبين على أملاكها وتبارك المتصرين منهم في جانب الطاهريين في خراسان سيظهر الصفاريون، وفي ما وراء النهر سيقوم العثمانيون ثم يأتي الغزنويون ويتبعهم الغوريون. وبطبيعة الحال كان المشرق مسرحاً لحوادث دامية عند اضمحلال كل أسرة منها وقيام أسرة جديدة. لم تكن القوة المنتصرة ترث أملاك سابقتها في المشرق فقط بل كات ترث أيضاً نفوذها وسلطانها في بغداد. أما عن الخلافة فتكون قد انتهت فعلاً بعزل المقتدر على مهدي أمير الأمراء ثم بتغلب البويهيين على الديلم والأذريجان الشيعة وفرض وصايتهم على الخليفة مما سيمهد لمجيء ترك السلاجقة⁽¹⁾.

سياسة المتوكل المناهضة للترك:

جاء المتوكل إلى الخلافة فوجد أن الأمر على ما وصفنا، حاول أن يوقف ذلك التيار، ووضع خطة لذلك، وظن أنه قادر على تنفيذها، ذلك أنه

1 - د. سعد رغلول - نفس المرجع ص 151.

أبعد نفسه عن الأتراك، وبحث عن حليف جديد، فوجد حليفه فى أهل العراق من أهل بغداد. وأهل بغداد - كما قلنا - عرب أكثرهم سنيون، ولا يقبلون بالاعتزال، فكان على الخليفة المتوكل أن يحارب الاعتزال ليرضيهم، فضرب الاعتزال ضربة شديدة، وأطلق المسجونين من أهل السنة الذين كانوا قد أوقفوا لعدم قولهم بخلق القرآن، وأطلق سراحهم وقربهم إليه وأبعد المعتزلة واضطهدهم، بل كان يشترط فى فداء الأسرى المحجوزين عند الروم أن يقر الأسير بأن القرآن غير مخلوق، وأن يقر بمخالفته لأهل العدل والتوحيد. وأن المعتزلة كانوا ميالين إلى الفكرة العلوية. حارب المتوكل تلك الفكرة بمحاربته المعتزلة، واضطهد آل البيت من العلويين أحفاد الرسول محمد ﷺ باضطهاده للمعتزلة، وتشدد وتزمت فى تعصبه للدين، واضطهد أهل الذمة اضطهاداً شديداً وهدم كنائسهم المحدثه، وأبعدهم عن دواوينه، ولم يقبل بتعيين أحد منهم فيها، وفرقه عن الشعب والمسلمين، فجعلهم لا يركبون إلا البراذين والبغال، دون الحمير والخيول، وألزمهم بأن يضعوا على أبواب بيوتهم صوراً وتمائيل للشياطين، وألزمهم بأن يقتصروا على السروج الخشبية. وهكذا ضيق عليهم كل التضيق، وهو فى ذلك يحاول أن يتقرب من عامة الناس الذين كانوا يضيقون صدرا بأهل الذمة. قرب المتوكل التجار والصناع والفلاحين وأغدق عليهم الأموال، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنعة، بل تقرب من الناس بشيء عزيز على نفوسهم، هو أنه أجل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر، لكن هذا الإصلاح لم يدم، فقد عاجلته المنية قبل تنفيذه فالتوكل إذا تقرب من الشعب، وجعل الشعب حليفة، وحالف أيضاً العرب، بل إنه استقدم إلى بغداد من العرب عدداً كبيراً، أدخلهم فى جيشه أو بالأحرى فى جيش ابنه المعتز، وقصد أن يرجع بهم على كفة الأتراك. كل هذا ليقف أمام الأتراك وليضربهم. حاول أيضاً أن

يوقع بين الأتراك أنفسهم، فجعلهم يتفرقون شيعاً وأحزاباً، وصرب بعضهم ببعض، بل ضرب أحدهم ضربة شديدة. بعد أن تمكن من الأمر، وهو «أيتاخ» فإنه حسن له أن يذهب إلى الحج، ولما سار إلى الحج عين بغا مكانه، ولما رجع إلى بغداد ألقى القبض عليه، وسجنه وبقي في السجن إلى أن مات⁽¹⁾.

ثم إن المتوكل أراد أن يبتعد كل البعد عن الأتراك، وأن يسيطر عليهم من بعيد، فنقل عاصمته إلى دمشق بين العرب وأقام فيها؛ واتخذ حزبه من أهلها. غير أنه لم يفلح في هذا، فالأتراك ثاروا عليه في العراق وطالبوا بأرزاقهم، وكادت تحصل فتنة لولا أن «بغا» وقف إلى جانبه، وأصلح الأمور. ووجد المتوكل أنه أطلق زمام الأمر في العراق إلى الأتراك، ولبت بعيداً عنهم؛ فعاد إليهم ليراقبهم منها، لكنه لم يرض بأن يعود إلى سامراء، وأن يكون رهينة بين أيديهم، بل عمر مدينة لنفسه قريبة من سامراء وسماها باسمه المتوكلية، وأقام فيها جنده وحاشيته بكل ذلك تخيل المتوكل أنه يستطيع القضاء على سلطان الأتراك، وهو ما كان باستطاعته أن يقضى عليهم قضاء نهائياً؛ لأنهم كانوا في جدران عاصمته بالذات، وكانوا أقوياء، وكانوا ينتظرون منه الخطأ القليل لينقضوا عليه. أخطأ هو كما أخطأ من سبقه كالوائق والمعتصم فبدد أموال الدولة ببناء القصور وإكمال بناء سامراء وبناء المتوكلية حتى أنه كان يعجز بعض العجز عن تأدية أعطيائهم. وجد الأتراك عندئذ أن مصلحتهم أن يجتمعوا بعد أن يكون المتوكل قد فرقهم، ويتألبوا عليه بعد أن يكون قد ظن أنه أوقع بهم في الخصام. ثم أخطأ خطأ كبيراً، ففعل كما فعل جده الرشيد، وعهد بولاية العهد من بعده لأبنائه الثلاثة القصر الصغار، واحد بعد الآخر: المنتصر فالمعتز فالمؤيد. وقسم الدولة بينهم، وأعطى المنتصر

1 - د. يوسف العشى - المرجع السابق ص 106.

أكبرهم حصة الأسد. وهكذا أوقع أولاده فى الخلاف فيما بينهم، وسار هو بعد ذلك مع ميوله وعاطفته، فوقف إلى جانب المعتز، وصار يصدق عليه الأموال، وأهمل ابنه المنتصر، وعهد للمعتز بخزن بيوت الأموال ودور الضرب، وكان يتهم على المنتصر ويستبعده، فاضطرب المنتصر لذلك، ووجد الأتراك بغيتهم فتقربوا إلى المنتصر، وتحالفوا معه، وأوغروا صدره على والده؛ وكان موغراً قبل ذلك؛ ولما تبين لهم أن المتوكل يريد أن يقتل «وصيفاً» و«بغا» وهما رئيساهم المفضلان، تجمعوا له وأقبلوا على المنتصر يحرضونه على والده، وساروا إلى المتوكل جميعاً، فوجدوه يشرب، فقتلوه وهو على مائدة الشراب. وهكذا أصبح الأتراك قتلة الخلفاء. وأصبح الخلفاء يخشون شرهم ومن أتى من الخلفاء من بعد ذلك ساروا حسب إرادتهم، وانضموا إلى لوائهم، فلم يجد ما فعله المتوكل معهم، ولم تنفعه شخصيته القوية ومهارته وحكمته لأنهم قد تمكنوا فى العراق، وأصبحوا أصحاب الأمر فيه⁽¹⁾.

العصبية التركية:

لقد كان الاعتماد على عصبية مؤيدة يعتبر الإجراء الوحيد الذى يلجأ إليه الخلفاء فى حالات الخطر التى تهدد سلطانهم. وجرت العادة أن يكون الاختيار منصبا على عصبية ناهضة قوية لم تضعفها الأهواء. هذا ما فعله المعتصم (أخو المأمون) عندما أوكلت له الخلافة، خيل إليه أنه سيكون فى مهرب الريح إذا لم يدخل سياسة الأحلاف. فكان أن اعتمد على الأتراك الذين بؤوا يحتلون مكانة مهمة فى جيش الخلافة. وزاده تصميماً على ذلك الموقف نسب أمه التركى. غير أن إعجاب المعتصم بقوة الأتراك ونقاء عصبيتهم واعتماده عليهم فى قيادة الجيش ومحاربة خصومه، كان يجلب له بعض المتاعب. فقد كان سكان بغداد يتذمرون منهم ويتصادمون معهم نتيجة

1 - د. يوسف العشى - نفس المرجع ص 107.

تصرفات الجند الفوضوية ونهبهم الأسواق واعتدائهم على الأخلاق العامة -
ويبدو أنهم لم يريدوا أن تتكرر معهم نتائج الصراع بين الأمين والمأمون. عند
ذلك قام الخليفة بنقل مقر إقامته، وجنده، وحراسه، إلى خارج بغداد حيث
بنى مدينة (سامراء) التي سميت (سر من رأى). وكان ذلك الإجراء يمثل
تحولا كبيرا في سياسة الدولة، ويؤكد تصميم الخلافة العباسية على استبدال -
حلفاءها جدد لا يمتلكون شيئا سوى القدرة على قهر الجيوش وقمع الحركات
مقابل رعاية فائقة وأموال طائلة لم تتوفر للأتراك من قبل. وكانت انتفاضة
بابك الخرمي قد بدأت منذ عصر المأمون، ولما جاء المعتصم استفحل أمرها
فكان بحاجة إلى جيش قوى يقمعها، خاصة إذا عرفنا أن بقايا الجند
الخراساني كانوا يتعاطفون مع الحركات المناوئة للسلطة العباسية في بلادهم.
أما على المستوى الاجتماعي فقد تجسد ذلك التحول في إقطاع قادة الجند
الأتراك أراض حول العاصمة الجديدة بنوا فيها القصور وحطوا عليها الرحال.
فتوطد استقرارهم وتفردوا بالخليفة. وقد ظهر ذلك بشكل أوضح في عهد
الخلفاء الذين عقبوا المعتصم حينما أصبح الأتراك الحكام الحقيقيين يولون
ويعزلون من يشاؤون وجدير بالذكر أن «الاعتزال» كان الفكر الرسمي للدولة
في عهد المأمون والمعتصم والواثق ولما جاء المتوكل رأى أن سلفه قد فرط في
الخلافة فكادت تخرج من بنى العباس، ورأى أن يحد من تدخل الأتراك
باعتماده على أهل بغداد كحلفاء ومعروف أن أهل بغداد، آنذاك، كانوا سنيين
يتبعون الإمام الأشعري. وهو اتجاه يعرف برفضه لفكر المعتزلة. يقول (ميتز):
«خرج الأشعري على المعتزلة حوالى آخر القرن الثالث، بعد أن كان منهم،
وبدأ يحاربهم بسلاحهم وعلى هذا نشأ في القرن الرابع الهجري المذهب
الكلامي الرسمي القائم على العلم والنظر العقلي، وكان مذهب الأشعري
مذهبا توفيقيا». ويكون مذهب الأشاعرة اتجاه أهل السنة، أما الذين عادوا

الأشعري ولم يعتبروه ممثلاً لأهل السنة لأرائه السابقة فى الاعتزال فهم لم يتعدوا نفراً من أصحاب الحديث القدماء⁽¹⁾.

وبمثل اضطهاد المعتزلة (القدريون) لأهل السنة فى مرحلة المأمون كان اضطهاد الأشاعرة (السنيون) للمعتزلة فى مرحلة المتوكل ومن تلاه. ونجد مرة أخرى أن الأحداث تتشابه حينما عهد المتوكل بولاية العهد إلى أبنائه الصغار (المنتصر، فالمعتز، فالمويد) حينما قسم الدولة بينهم، وأوقع الخلاف فيهم بتحيزه للمعتز، فتحيز الأتراك للمنتصر وكان ذلك سبباً فى قتل المتوكل فى منتصف القرن الثالث الهجرى. وقد تميزت تلك الفترة بكثرة الفتن والحروب بين طوائف الجند وبينهم وبين «العمال» فتوقفت الأعمال وغلت الأسعار وتعطلت الزراعة لفقدان الأمن وكثرة التعدى والظلم، وزاد من ذلك البلاء أن أكثر ما حفرته الدولة فى عقودها الأولى من الترع والأنهار لتسهيل الرى انسدت بالحروب وتميز حكم البويهيين بإقطاع الأراضى والقرى للجند بدلاً من الرواتب (انظر مسكويه «تجارب الأمم») كما تميزت بكثرة المؤامرات التى كانت تحاك فى قصور الدولة، يتجاذبها طرفان: القواد العسكريون من جهة والكتاب والوزراء من جهة ثانية، كما لعبت أمهات الخلفاء دوراً كبيراً فى إذكاء ذلك الصراع. وكان ذلك الوضع السياسى يستمد ضعفه من اضطراب الحياة الاجتماعية وكثرة الاضطرابات والقلق، فخلال تلك المرحلة الطويلة من أواخر عهد المأمون، حتى عهد الخلفاء الضعاف (المعتد، المعتضد، المكتفى)، أى منذ العقود الأولى من القرن - الثالث حتى نهايته وبداية القرن الرابع، ظهرت أكثر الثورات والحركات الاجتماعية أهمية فى الدولة العباسية، تلك الحركات التى اتخذت من سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية مبرراً

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - المرجع السابق ص 163 وانظر: ميثز (آدم) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج 1 ص 377 / 378.

لعصيانها وخروجها على سلطة العباسيين، حيث ثارت البابكية فى حراسان،
وثار القرامطة فى البحرين، وثار الزنج فى سواد العراق واستمرت تفرشات
السطار والعيارين فى بغداد. كان ذلك صورة موجزة عن الطريقة التى كان
يجرى عليها الصراع السياسى داخل الدولة بين العباسيين أنفسهم وبينهم وبين
العصية الخرسانية ثم التركية⁽¹⁾.

1 - د. محمد نجيب أبو طالب - نفس المرجع ص 164.

المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| مقدمة | 7 |
| الفصل الأول | |
| العباسيون والدعوة للرضا من آل محمد (ﷺ) | 9 |
| الفصل الثاني | |
| حكم أسرة آل العباس | 115 |
| الفصل الثالث | |
| الحياة الإدارية | 235 |

المؤلف في سطور

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971.
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1984 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 2002 - 2006 الإمارات للتاريخ العسكري اسكاندافيا للاتصال السويد من عام 2007 في العديد من الجمعيات والدولية وعضو في المؤرخين العرب منذ عام ورئيس تحرير مجلة الإسلامية.

في هذا الكتاب

مقدمة

الفصل الأول : العباسيون والدعوة

للرضا من آل محمد.

الفصل الثاني : حكم أسرة آل العباس.

الفصل الثالث : الحياة الإدارية



التاريخ السياسي والمضاري للدولة العباسية

- صدر له أكثر من اثني عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية.

